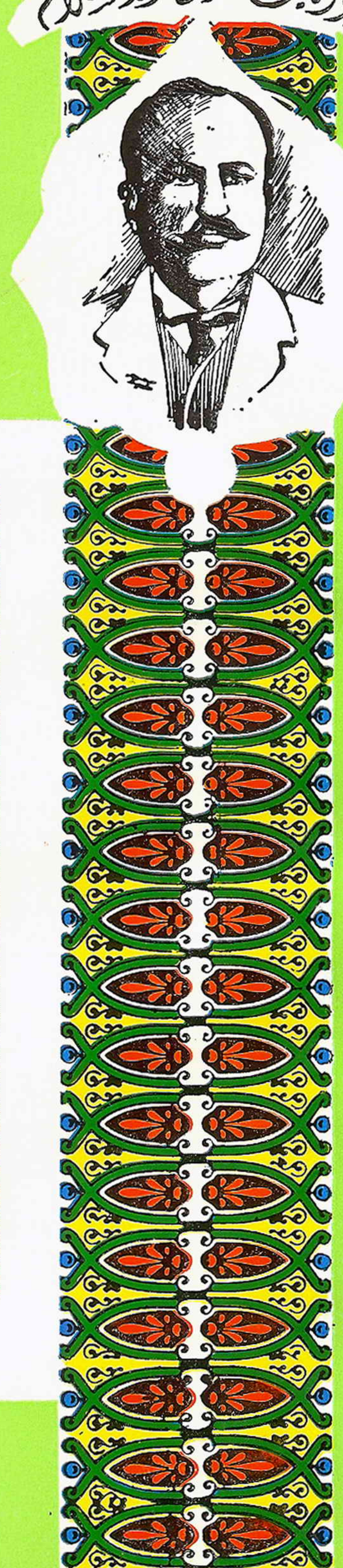
جرجي زيدان

غادة كربلاء





منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت . لبنان

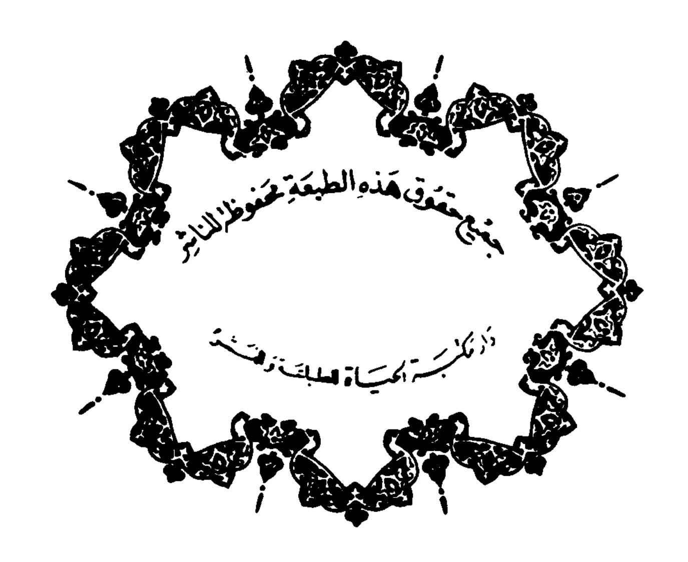
غادة كربلاء

روايات تاريخ العرب والإسلام

غادة كربلاء

تأليف
جرجي زيدان

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان


جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

مُقَـدّمَة النّاشِر

الأمة هي التاريخ . . وتاريخ كل أمة هو تلك البصمات التي يطبعها الرجال الذين يصنعون تاريخ أمتهم . . بالجهد والتضحية على وجهها حتى يعود وضاحاً مشرقاً، ومفخرة لها بين سائر الأمم.

ولا تزال الأمم في مسار تقدمها ورقيها تقتبس من نور تاريخها، وتلتزم تراثها، وتهتدي بعطاء عظمائها ورجالاتها وهي تمضي صعداً في مدارج الرقي والتقدم لبناء مستقبل حضاري أفضل.

ولا تزال الأمم تربي أبناءها وتؤدبهم بتراث آبائهم واجدادهم. . وتلقنهم عاداتها وتقاليدها لتنمي فيهم روح الالتزام بقيمها وتراثها . . لأن ذلك بعض الوفاء لتاريخ صنعه الآباء بكدهم وجهادهم.

ولعل أمتنا العربية هي أغنى الأمم عطاء . . وأكثرها رجالاً وعظماء . . . . !

وما زالت منذ أن أكرمها الله بخاتم رسله ورسالاته تقدم للإنسانية أسمى النماذج البشرية الفذة في كل مضمار وميدان . . . يعترف بذلك كل مطّلع على تاريخ الأمة العربية ويقرّ به كل منصف ونزيه. . .

ولقد قدمت هذه الأمة من النماذج البشرية الفريدة عظماء بهرت سيرتهم الشرق والغرب . . . حتى كانت أحد مواد دراساتها الجامعية في كل شأن وتخصّص إلى يومنا هذا. . . .

ولعل ذلك يثلج صدر كل عربي أصيل، ويبعث على الاعتزاز والفخر. . إلا أن الفخر وحده لم يعد أسلوباً في مواجهة تحديات العصر التي ترصد لصرف الأمة العربية عن تاريخها . . وتدعوها إلى التنكر لتراثها وقيمها الروحية والفكرية والحضارية الأصلية.

من أجل ذلك نقف إلى جانب الدعاة المخلصين إلى العودة الصادقة إلى تراثنا وقيمنا . . . للتزود منها في مسيرة البناء الحضاري مواكبة لسائر الأمم التي تأبى أن تزول قبل أن تترك بصماتها المشرّفة على هذه الأرض . . .

ومن ثم فإننا ندعو الأجيال الصاعدة إلى إعادة دراسة التاريخ العربي بنظرة أكثر عمقاً وشمولية ووضوحاً . . . ولسوف يرون حقاً أن التنكر لتراث الأمة وقيمها لم يأت عليها بغير

الخسران والتخلف على كافة المستويات الحضارية . .

وهذه سلسلة روايات تاريخ الإسلام لمؤلفها جورجي زيدان كتبها في أواخر القرن المنصرم، وحاول فيها أن يقدم التاريخ العربي في قالب روائي جديد، بعيداً عن تعقيدات الموسوعات التاريخية التي لا يتاح لكثير من الشباب أن يفيد منها لأسباب كثيرة يعرفها كل دارس ومعالج لمشاكل الكتاب العربي . . . على أن المؤلف استقى معلوماته من تلك الأمهات والمصادر التاريخية التي أثبتناها في نهاية كل رواية حرصاً على منهجية البحث وأمانته، لمن أراد المزيد من التفاصيل التي تجنبها المؤلف حرصاً على الأسلوب الروائي ومقتضياته.

ولا يفوت دار مكتبة الحياة وهي تصدر هذه السلسلة أن تطمئن القارىء الكريم إلى أنها قد راعت في هذه الطبعة الجديدة مراجعة النصوص إضافة إلى اختيار أحدث أساليب الطباعة لإخراجها في ثوب جديد يجمع بين الإتقان والدقة والجمال . . . راجين أن نكون أبداً عند حسن ظن القارىء الكريم . . والله الموفق إلى سواء السبيـــل.

دار مكتبة الحياة

شخصيات الرواية

*الإمام الحسين : ابن علي بن ابي طالب
* يزيد بن معاوية :ثاني ملوك الأمويين
*حجر بن عدي الكندي : من شيعة علي
* غادة كربلاء :سلمى بنت حجر بن عدي
* عبد الرحمن الكندي : ابن عم سلمى
* عامر الكندي : كفيل سلمى
* شمر بن ذي الجوشن : قاتل الحسين
* عبيد الله بن زياد : ابن عم يزيد
* مسلم بن عقيل : ابن عم الحسين
* عبد الله بن الزبير : ابن الزبير بن العوام
* زينب بنت علي : اخت الحسين

بنو هاشم وبنو أمية

قريش قبيلة من عرب الحجاز تحتها بطون ، أشهرها بطن عبد مناف . وهو فخذان بنو أمية وبنو هاشم ، وكلاهما ينتمي لعبد مناف . وكانت الرياسة في قريش جميعا ، لهذين الفخذين لا ينازعهما فيها منازع ، الا ان بـنـي أميـة كانوا اكثر عددا من بني هاشم واوفر رجالا ، وكانت لهم الزعامة في الحرب .

فلما جاء الإسلام والنبي من بني هاشم اعتز به الهاشميون ، ودهش النّاس من أمر النبوة ونسوا أمر[1] العصبية . ولا سيما أن الإسلام قد نهاهم عنها كما في الحديث«ان الله أذهب عنكم غيبة الجاهلية وفخرها لأننا وأنتم بنو آدم ، وآدم من تراب» .

وما زال العز في بني هاشم في مكة حتى مات ابو طالب عم النبي ، وهاجر بنوه مع من هاجر من الصحابة الى المدينة وفيهم حمزة والعباس عمّا النبي ، وكثيرون غيرهم من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم . فخلا الجو في مكة لبني أمية ، وصارت الرياسة اليهم في اثناء محاربتهم المسلمين في بدر وغيرها ، ورئيسهم يومئذ ابو سفيان والد معاوية مؤسس الدولة الاموية .

فلما فاز المسلمون في غزواتهم وهموا بفتح مكة سنة ٧ هـ ، كان أبو سفيان كبير قريش فيها . وتحقق ان المسلمين فاتحون مكة لا محالة ، فجاءهم وأسلم ثم أسلم أولاده .

ولما تولى ابو بكر الخلافة ، لم ينل بنو أمية وسائر قريش من المناصب ما ناله المهاجرون الأولون . . فشكوا ذلك الى أبي بكر ، فقال لهم : « أدركوا اخوانكم في الجهاد » ، وأنفذهم في حروب الردة ، فأحسنوا الجهاد وقوموا الأعراب . ثم تولى عمر ، فبعث بهم الى حرب الروم في الشام فافتتحوها ، وظل معظمهم هناك . وتولى ولاية الشام منهم يزيد بن ابي سفيان حتى مات في طاعون عمواس ، فخلفه أخوه معاوية . ولما تولى الخليفة عثمان أقره عليها ، فاتصلت رياسة بني أمية على قريش في الإسلام كما كانت قبله ، واشتغل بنو هاشم بامر النبوة ونبذوا الدنيا . .

فلما قتل عثمان واختلف الناس على من يبايعونه بعده ، كان دعاة عليّ أكثر عددا . . ولكنهم كانوا لفيفا من قبائل شتى من ربيعة ويمن وغيرهم . وكانت أحزاب معاوية كلها من

قريش أهل البأس والشدة ، وهم جند الشام الى ذلك الحين . . فكانت عصبية معاوية أشد وأمضى . ثم ظهر الخوارج من رجال علي فانكسرت شوكته حتى اذا قتل علي سنة ٤٠ هـ ، اضطر ابنه الحسن ان يخلع نفسه . فاتفق الجماعة على بيعة معاوية في منتصف سنة ٤١ هـ . وكان الناس قد نسوا دهشة النبوة ورجعوا الى أمر العصبية فدانوا للأقوى . . بذلك غلب معاوية واستقل بالخلافة. وساعده على ذلك دهاؤه وحسن سياسته . . فكان يصانع رؤوس العرب من بني هاشم، بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه، وكانت غايته في الحلم لا تدرك . .

على أنه كان من جهة اخرى ، يبالغ في الحط من قدر بني هاشم وخصوصا أهل البيت منهم ، وبالأخص ابناء علي :وكان يفرض على من يعترف بطاعته ان يلعن عليا جهارا ، فاذا لم يفعل عاقبه . وله من هذا القبيل حوادث كثيرة ، اشهرها مقتل حجر بن عدي الكندي احد أشراف بني كندة في السنة الحادية والخمسين للهجرة ، وقد قتلوه لأنه أبى ان يلعن عليّا كما سيجيء . .

وأقام معاوية خليفة في الشام عشرين سنة (من سنة ٤١ ـ ٦٠) وظل المسلمون في الحجاز والكوفة ينتظرون موته ليبايعوا الحسين بن علي لقرابته للرسول لأن الخلافة كانت شورى ، يولونها من أرادوا بالانتخاب كما كان شأنها في ذلك الحين . . فسبقهم معاوية قبل موته الى بدعة أحدثها فيها ما زالت مرعيّة بعده الى هذا اليوم ، نعني بها الحكم الوراثي ، فأوصى بولاية العهد لابنه يزيد . فلما توفي معاوية تولى الخلافة يزيد بن معاوية وعمره ـ اذ ذاك ـ بضع وثلاثون سنة ، وكرسيه دمشق الشام ، فبايعه الناس وهم بين راض وكاره . .

٢

دير خالد

غوطة دمشق بقعة في بلاد الشام مشهورة بخصبها . . مساحتها خمسة أميال في مثلها ، تحيط بها جبال عاليه ، وتجري فيها انهار تسقي بساتينها ، وتصب في بحيرة هناك[١] . . وفي هذه الغوطة عمرت دمشق الشام منذ بضعة الاف سنة . . وفيها عدا دمشق ، قرى صغيرة

---

(١) مراصد الأطلاع، الجزء الثاني.

متفرقة بينها المغارس والحدائق من أشجار الفاكهة تجري من تحتها الجداول والأنهار . .

وكان على بعد ميل من الباب الشرقي من دمشق، دير قديم يقال له« دير خالد » سمي بذلك نسبة الى خالد بن الوليد، لأنه حين جاء لفتح الشام في أوائل الإسلام نزل فيه، وكان اسمه قبل ذلك« دير صليبا»[1] وهو على مقربة من «مرج العذراء» في بستان تكاثفت فيه الأشجار، من كل فاكهة زوجان. .

واذا نظرت الى ذلك الدير من خارجه ، تخيلته قلعة منيعة . . فهو بناء مربع تكاد زواياه تستدير ، ويكسو جدرانه من الخارج ملاط صقيل . والجدران في صعودها تميل نحو الداخل بحيث تكون قاعدة البناء اوسع من سطحه قليلا . ولكن جدرانه عضائد من البناء قائمة على طوله . . مدخله ضيق قصير لا يكاد يدخله الرجل إلا منحنياً، وله باب من الخشب المصفح بالحديد قد كساه الصدأ بغشاء كثيف. وليس للدير مدخل غير هذا الباب. فإذا دخلته مشيت في طرقة طولها بضع اذرع كأنها دهليز ينتهي بباب آخر ينفذ الداخل منه الى ساحة الدير، وحولها الغرف طبقة واحدة الا عليّة منفردة يقيم فيها رئيس الدير في الصيف والخريف . وللدير في اعلى الجدران نوافذ لا يدركها كف الواقف ولو تطاول فيها بذراعه وهي كوى صغيرة فيها شبك من الحديد ولا يكاد المتأمل يقف هنيهة حتى يدرك الغرض من بناء تلك الأديرة على هذه الصورة. . فهم كثيراً ما كانوا يتخذونها معاقل وحصوناً عند الحاجة. . على انهم لم يكونوا يستغنون عن اصطبل او زريبة يربطون فيها مواشيهم ودوابهم.

وكانت زريبة دير خالد بقعة مربعة من الأرض في شرقي الدير مساحتها خمسون ذراعا في خمسين ، يحيط بها سور من أعواد غليظة مغروسة في الأرض بحيث تكون متوازية ، وفي أطرافها العليا عوارض من الخشب مشدودة الى الأعواد بأمراس من قشور الأغصان (السلوخ) . والسور اربعة أضلاع : ثلاثة منها ، من هذه الأعواد ، والرابع هو جدار الدير نفسه . . وللزريبة باب مصنوع من هذه الأعواد يدور على مصراع في طرف احد جدران السور مما يلي جدران الدير . ويقفل هناك بعارضة ضخمة تدخل في هذا الجدار . ويغطي نصف الزريبة سقيفة قائمة على اعمدة غليظة ، تأوي اليها الماشية والدواب في ايام الشتاء .

ويحيط بالدير والزريبة والبستان جميعا سور كبير من العليق المتكاثف يبلغ ارتفاعه قامة وبعض قامة ، وبابه من الخشب مثل باب الزريبة لكنه أضخم منه كثيرا . وقد علقوا عنده ناقوسا اذا جاء طارق دقه فيسمعه أهل الدير فيفتحون له .

---

(١) مراصد الأطلاع، الجزء الاول.

تلك هي معالم دير خالد في السنة الستين للهجرة . . وهي السنة التي توفي فيها معاوية بن ابي سفيان ، وخلفه ابنه يزيد بن معاوية على الخلافة الإسلامية في دمشق . وكان رئيس ذلك الدير شيخا طاعنا في السن رومي الاصل ، قضى في الدير نيفا ونصف قرن . . كان في بدئها راهبا ثم تدرج في مراتب الرهبنة حتى صار رئيسا ولما نزل خالد هناك ، كان هذا الرئيس راهبا صغيرا فشهد فتح دمشق ، ولم يكن يعرف العربية ولكنه اتقنها بعد ذلك . وكان لقدم عهده ووداعة أخلاقه ، قد فاز بمنزلة رفيعة لدى الرهبان . وكان معاوية يحترمه . وكثيرا ما كان يجالسه اذا خرج للرياضة في الغوطة، وربما مازحه . ولما تولى يزيد الخلافة ظل على احترامه واكرامه . .

٣

منظر الغوطة

وذات يوم من ايام الخريف عام ٦٠ هـ المذكور ، أصبح أهل الدير كالعادة وقد جاءهم الفلاحون بأحمال الفاكهة من بساتين الدير ، وفيها سلال العنب والسفرجل والتفاح والرمان والكمثري والخوخ والدراقن . وكان الرهبان يتوقعون قدومهم في كل صباح من ايام الخريف . فنزل بعضهم لمساعدتهم في أدخالها الى باحة الدير ، والباحة المذكورة بقعة مكشوفة تحيط بها الغرف ، وفي وسطها شجرة كبيرة من الصفصاف تظلل معظمها . وبقرب الصفصافة بئر يستقي منها أهل الدير عند الحاجة ، فأدخلوا السلال أزواجا وأفرادا والرئيس لا يزال في عليته . وكان قد عاد اليها بعد صلاة الفجر ، وشغل بالصلاة الأنفرادية . . فانتبه لضوضاء الناس ، فخرج من العلية حتى وقف على قمة سلم من الحجر ينتهي الى الباحة وقد تزمل بعباءته فوق المسوح . .

فأشرف على الرهبان فرآهم يحملون الأحمال كما تقدم . فقال لهم : « ما لي أراكم تدخلون السلال ونحن كما تعلمون لا بد لنا من حمل بعضها الى دار الخليفة لكي توزع على امرائه ورئيس شرطته كالعادة » . قال ذلك وتحول الى جانب من السطح يشرف منه على معظم الغوطة ، وكانت الشمس قد أطلت من وراء الجبال عن بعد ، فأرسلت أشعتها على تلك المغارس الواسعة ففزعت أطيارها وتناثرت عن الأغصان أسرابا تتسابق الى الخلاء البعيد

وقد اتجه معظمها نحو الشرق ، كأنها تتلمس الشمس وهي تحييها وترحب بها بالزقزقة والتغريد .

ونظر الى البساتين . . فاذا هي تشرح الصدر وتذهب الغم بروائحها العطرية المنبعثة عن أنجم[1] الريحان المتكاثف في اشكال مختلفة ، وأكثره يرتفع كأنه اسوار تفصل بين البساتين او بينها وبين الدروب ومجاري الماء . . ثم هذه الرياحين التي تظللها الأشجار على اختلاف أشكالها وأحجامها . . الأشجار التي اعتاض أكثرها عن أوراقه الخضر بالثمار المختلفة الألوان ، وفيها الرمان الأحمر والسفرجل الأصفر والآس الأبيض والخوخ البنفسجي والتفاح الوردي . .

وفي بعض جوانب الغوطة كروم العنب بأشكاله ، تتدلى منها العناقيد وفيها الأبيض الشمعي والأحمر الوردي والأسود الفحمي . . يتخلل ذلك أعشاب تكسو الأرض ثوبا جميلا تختلف الوانه باختلاف اعمارها بين الأخضر الحاني والأصفر الفاقع والأبيض اليقق والأحمر الزاهي ، يزينها ما ينحدر بينها من مجاري الماء فوق الحصباء فيختلط خريره بتغريد العصافير وحفيف الأوراق كأن الغوطة جنة تجري من تحتها الأنهار . والشمس من وراء ذلك ترسل أشعتها ، فتنكسر عن تلك المجاري متلألئة ، ويستوقف النظر انكسارها على سطوح البحيرات

وكان الرئيس منذ اقامته هناك لا يكاد يفوته صباح لا يقف فيه مثل ذلك الموقف ، يمتّع بصره بتلك المناظر البهيجة . . ويشغل نفسه بها عما قام من ضوضاء الرهبان والفلاحين وهم يقومون بترتيب الفاكهة وحمل الاحمال ، وما يخالط ذلك من ثغاء الشياه وخوار الثيران ونهيق الحمير في الرريبة .

فوقف يتأمل في صنع الخالق العظيم ، ثم ارسل بصره الى أطراف الغوطة من ناحية مطلع الشمس ، فرأى آثار الدروب عن بعد . فاذا هي أشبه شيء بآثار الجداول اذا جف ماؤها . وفيما هو ينظر اليها ، أبصر قافلة علم انها قادمة من العراق أو الحجاز . . وفيها النياق والحمير يتابع بعضها بعضا . . فطاب له استشراق تلك القافلة لعله يعرفها او يتبين وجهتها ، فحال البعد بينه وبين ذلك . وكان قبل شيخوخته حاد النظر لا يعجز عن تمييز الأشياء من مثل

---

(١) النجم : ما نجم ، أي طلع من النبات على غير ساق.

هذا البعد . . فلما اعجزه ذلك الآن ـ وقد كل بصره وتذكر شيخوخته ، ولعله أسف لانقضاء معظم العمر ـ تحول نحو ساحة الدير ، وعاد الى مخاطبة الرهبان وتدريبهم فيما يحملونه من الأحمال . حتى اذا فرغ من ذلك نزل الى الكنيسة ، فأقام صلاة الصبح كالعادة ، ثم عاد الى غرفته العليا .

٤

الضيوف الكرام

صعد على السلم الحجري ، وفي يده صحيفة يقرأ فيها ، حتى دخل عليته فاتكأ واستغرق في القراءة. ثم انتبه لجعجعة جمال تدنو من الدير ، فنادى قيّم الدير (وكيله) وكان كهلا قوي البنية ممتلىء الجسم ، جاء الى الدير منذ عهد قريب . فلما وقف بين يديه ، قال له : « اني أسمع جعجعة . فأشرف على الطريق واستطلع خبر القادمين »، فأطل من احد جوانب السطح، ثم عاد وهو يقول : « رأيت جمالاً محملة وأناساً يدل زيهم على أنهم من أهل العراق» .

فقال : « أظنهم من القافلة التي أبصرتها عن بعد في هذا الصباح ، وقد تحولوا الينا . . فلا بد لنا ان نقوم لهم بواجب الضيافة » . .

فقال القيم : « وما الذي يدعونا الى القيام بذلك وهم غرباء لا نعرفهم ؟ . . أما كفانا ما نقدمه من غلاتنا وثمارنا لرجال حكومتنا ؟ . . أما هؤلاء فاذا نزلوا عندنا أنزلناهم ساعة ريثما يستريحون ، ثم ينصرفون » .

قال : « اذا أرادوا الانصراف انصرفوا ولا حرج عليهم ، وأما اذا فضلوا البقاء فلا يسعنا غير القيام بواجب ضيافتهم ، عملا بالعهد المعطى لنا من خلفائهم » .

ولم يكن القّيم قد سمع بذلك العهد ، فقال : « وما هو ذلك العهد » ؟ قال : « هي عهود أخذت على النصارى منذ الفتح تقضي عليهم بأمور كثيرة ، من جملتها أن يقوموا بضيافة المسلمين ثلاثة أيام يخدمونهم ويقدمون لهم كل ما يحتاجون اليه . وهب أننا لم نلتزم عهدا ، فاذا نزل عندنا ضيف وجب علينا اكرامه حتى يرحل ولو أقام سنة » .

فخجل القيّم من نفسه وأراد أن يعتذر ، فسمع صوت الناقوس . فقال الرئيس : « لقد صدق ظني . . فاستقبل الضيوف ، ورحّب بهم ، وبعد ان تجلسهم في اماكنهم ، أخبر ني » .

فبعث أحد الرهبان الصغار ليفتح لهم باب البستان، ووقف هو بباب الدير ينظر اليهم وهم مقبلون . فإذا هم ثلاثة عليهم العبي ، وعلى رؤ وسهم الكوفيات مشدودة بالعقال تغطي بعض وجوههم ، ومعهم بضعة جمال تحمل قفافا وأجرية مملؤة تمراً جافاً . ويدل مجمل حالهم على انهم من تجار العراق ، وقد جاؤ ا بهذه الاحمال ليبيعوها في دمشق . ولما دنوا من باب الدير لحظ الوكيل من خلال الكوفيات ان أحدهم فتاة في مقتبل العمر ، فاشتبه في أمرهم وقال في نفسه : لو كانوا قادمين لمجرد الاتجار لما كان ثمة داع لمجيء تلك الفتاة معهم . فلما وصلوا الباب ، خفّ لاستقبالهم وخاطب بعض الخدم باليونانية أن يأخذوا الجمال الى الزريبة للعلف ، واستقبل الضيوف وخاطبهم بلغة عربية مستعجمة لحداثة عهده بالشام ، فدخلوا جميعا وهو يتقدمهم . . وكان احدهم طويلا فلم يستطع الدخول من باب الدير الا مطأطئا رأسه ، فمروا في الطرقة الضيقة حتى انتهوا الى الباب الآخر ومنه الى باحة الدير حيث الصفصافة والبئر .

٥

عروس الرواية

وأنبىء الرئيس بدخولهم، فنزل للقيام هناك ورحب بهم ودعاهم للجلوس . . فأنسوا بفصاحة منطقه العربي وان تكن العجمة لا تزال بادية فيه . وجلسوا على مقعد تحت الصفصافة وكل منهم في شغل من نفسه . . فتفرس الرئيس فيهم فرأى احدهم كهلا في نحو الخمسين من عمره ، طويل القامة ، عريض الأكتاف ، خفيف العضل ، واسع العينين أسودهما ، خفيف العارضين واللحية ، رقيق الوجه . . فتذكر أنه رآه غير مرة . والثاني شاب لا يتجاوز عمره بضعا وعشرين سنة ، ولكن من يراه يحسبه ابن ثلاثين لخصب جسمه ونمو عارضيه ولحيته . . وكان مشرق الوجه تكاد الصحة تتدفق من وجنتيه

واما الثالث ، وهو الفتاة ، فلم يلبث الرئيس عند النظر اليها ان اعجب بجمالها الذي لم يسبق ان رآه في فتاة قبلها ، طول عمره الذي قضاه في دمشق وضواحيها ، مع كثرة ما شهد من بنات الروم والعرب والنبط والسريان واليهود . فلم تقع عيناه قبل تلك الساعة على فتاة في وجهها من الجمال والهيبة مثل ما في هذا الوجه ، وقد أدهشه منها بنوع خاص جمال عينيها ، وان لم تكونا كبيرتين كعيني رفيقها الشاب ، ولكنهما كانتا حادتين ينبعث النور من بين أهدابهما مع لمعان . ولو أراد الرئيس الشيخ أن يعبر عن جمالها ما استطاع ذلك بأوضح من قوله

أنهما جذابتان ، لأن من يراهما لا يستطيع سوى الإستسلام لهما والرضوخ لسلطانهما . وقد زادهما تأثيرا على القلوب ما فيهما من ملامح الصحة . .

ولم يكن في وجه الفتاة بدانة ظاهرة ، ولكن وجهها كان ناضرا وفيه رونق ينطق بما وراء ذلك من الصحة . . وبخاصة في تلك الساعة ، على أثر السفر الطويل ، وقد توردت وجنتاها حتى كاد الدم يقطر منهما . والتفت الرئيس الى بساطة ثوبها ، فخيل اليه أنها من الفقراء . وقال في نفسه : اذا كان أبوها فقيرا بالمال ، فانه غني بهذه الفتاة . ولكنها لو حسرت أكمامها وأزاحت لثامها لبدا له أنها ليست من الفقر في شيء . . ففي أذنيها أقراط من اللؤلؤ ، وفي معصميها اساور ودمالج من الذهب والفضة والعاج . ناهيك بما يراه حينئذ من جمال فمها وما فيه من المعاني التي تسلب القلوب ، مما يقصر القلم عن وصفه ، ويكل اللسان . والجمال الذي يعبر عنه باللسان أو القلم ليس جمالا ، وانما هو صورة يمثلها الكاتب والمتكلم بألفاظه . ولكن الجمال ، ما أعجزك وصفه وخانتك القريحة في التعبير عنه . . ذلك هو جمال « سلمى » عروس روايتنا . وربما دلنا على بعضه ما أحدثه من التأثير في قلوب الناظرين . . فقد كان في محياها شيء لا يعبر عنه الا بالسحر ، اذ لا يراها أحد الا وينجذب نحوها ، ولا يكلمها بشر الا ويشعر بسلطان لها عليه ، فلا يقوى على جدالها . فضلا عما فطرت عليه من الذكاء وحدة الذهن وأصالة الرأي ، مع ما يتجلى في وجهها من عزة النفس والانفة . . وهما زينة العذراء وسياج عفافها .

ولما رأى الرئيس اولئك الضيوف ـ أول مرة ظنهم أبا وولديه ، ولكنه ما لبث أن تبين من اختلاف الملامح أن الكهل ليس أباهما ، وان يكن ثمة شبه بين الشاب والشابة .

فافتتح الرئيس الحديث قائلا : « يظهر انكم قادمون من مكان بعيد . . لعلكم من العراق » ؟

فأجاب عامر لأول وهلة : « نعم يا سيدي ، اننا قادمون بأحمال التمر من الكوفة الى أسواق دمشق » .

ولم يكد عامر يتم كلامه حتى عرفه الرئيس وتذكر أسمه ، فابتدره قائلا : « ألست عامرا الكندي » ؟ فابتسم عامر ، وقال : « اني هو يا سيدي . . وقد كتمت أمري لأرى هل تذكر ضيفك القديم » . .

فتنهد الرئيس وقال : « كيف لا أذكره وقد شاهدت من أيام ضيافته يوما هائلا . . اني لا أزال أذكر تلك الساعة الرهيبة تحت شجرة الجوزة » .

فأشار عامر بملامح وجهه أنه لا يحب تلك الذكرى المؤلمة . . وأراد استئناف الحديث ،

فسبقه الرئيس الى السؤال قائلا : « لعل هذا الشاب ابنك وهذه الفتاة ابنتك ؟. ما اسماهما»؟

فتوقف عامر لحظة وهو يحك طرف ذقنه بسبابته ، ثم قال : « نعم انهما ولداي . . اسماهما عبدالرحمن وسلمي » .

فاكتفى الرئيس بذلك السؤال ، وقد أحس في نفس عامر شيئا يريد كتمانه . . فتشاغل عنه بحصى كانت في جيبه جعل يعدها بين أصابعه في داخل الجيب . وكانت هذه الحصى تقوم مقام السبحة عند الرهبان في تلك الأيام ، لأنهم كانوا يفرضون على انفسهم صلوات معدودة يصلونها في اليوم . . فيضعون في جيوبهم من الحصى بقدر ذلك العدد ، وكلما فرغوا من صلاة رموا حصاة حتى تفرغ ، فيستدلون بذلك على اتمام الفرض . ولم تتخذ السبحات في النصرانية الا في القرن الثالث عشر للميلاد[1] فتشاغل الرئيس بتلك الحصى وحول الحديث الى موضوع آخر، فقال له: « في كم يوم قطعتم الطريق من الكوفة إلى هنا»؟

قال: « قطعناها في عشرين يوماً مع القافلة».

فقال الرئيس : « هل تكبدتم مشقات هذا السفر الطويل لمجرد الاتجار بهذه الثمار ؟ . . أنها لا تباع بما يساوي تعبكم في حملها » !

فاشتم عامر من سؤال الرئيس رائحة الأرتياب ، ولم ير بدا من ازالة كل شك فقال : « صدقت ـ يا مولاي ـ ولو كان متكلنا على بيع هذه الأحمال ما تكبدنا المشقة من أجلها ، ولكننا نبيعها ونبيع الجمال أيضا . . وهي تباع بثمن غال وأرباحها أضعاف أرباح التمر ، وفي عودتنا نتجر تجارة أخرى نحملها من دمشق إلى العراق » ، ثم تذكر ان مجيء سلمى معه لا يعقل ، فالتمس لذلك عذرا بقوله : « أما سلمى فانها أحبت مرافقتنا لترى دمشق ومناظرها ، فرأينا ذلك أجدر بها من البقاء في الكوفة وحدها في أثناء غيابنا » . .

٦

الشيخ الناسك

وكان عامر والرئيس يتكلمان، وسلمى تنظر الى شيخ متكىء في زاوية الباحة . . وبجانبه كلب كبير الهامة أسود اللون قوي البنية وكان الكلب جالساً على مؤخرته، وقد نصب يديه واعتمد عليهما كأنه اسد رابض. وكان بصره متجهاً الى سلمىٰ كأنه يتأمل وجهها وعيناه تتلألأن كالمصابيح.

---

(١) قاموس الاسلام.

وأما الشيخ المتكىء فإنه استرعى انتباه سلمى لغرابة هيأته وخشونة لباسه . ولم تكن رأت مثل ذلك الرجل قط ، ولا سمعت بمثله . وقد كان من الشيخوخة بحيث لم يبق في شعره شعرة سوداء ، ويخيل لك اذا نظرت الى رأسه عن بعد انه عمامة بيضاء قد برز منها أنف وعينان سوداوان غائرتان أحاط بحدقتيهما قوس قاتم اللون يعلوهما جبين متجعد . ومما يزيد منظره رهبة ، انه لم يمشط شعره ، ولا غسل وجهه منذ أعوام . . فأصبح الشعر معقدا لا يسلك فيه مشط . ورأته سلمى يحك لحيته ورأسه ويحاول تمشيطها بأظافر مستطيلة كالمناجل . وأغرب من ذلك كله ، انها لم تر عليه من اللباس الا ثوبا من نسيج الشعر كالمسوح التي يلبسها النساك او هي عباءة حال لونها لقدم عهدها .

وكان الشيخ متكئا بجانب الكلب وقد غلب عليه النعاس ، فكان يغمض جفنيه فينام - وهو لا يريد ان ينام وكلبه بالقرب منه ، وكلاهما مستأنس برفيقه . وكان عبد الرحمن ايضا مشتغل الخاطر بذلك الشيخ الهرم وكلبه ، ينظر اليهما ويفكر في حالهما . . فلما ذكر عامر اسم سلمى انتبهت والتفتت اليه والدهشة ظاهرة على وجهها ، وأشارت الى ذلك الشيخ وهي تقول : « ان هذا الشيخ متكىء في زاوية الباحة . . وبجانبه كلب كبير الهامة أسود اللون أدهشني أمره ، وأرى عبد الرحمن قد أخذته الدهشة مثلي » .

فسمع عبد الرحمن أسمه فالتفت . وفي لفتته ما يدل على تعجبه مثلها ، فأشار الرئيس اليهم باصبعه ، وعض شفتيه ودنا منهم فتطاولوا اليه بأعناقهم ، فقال لهم همسا : « ان هذا الشيخ أشبه شيء بالنساك والمتعبدين ، ولكنه يخالفهم في امور كثيرة ، وكأن به خبلا . جاءنا منذ اعوام فأقام عندنا ، وهذا الكلب الأسود قلما يفارقه ليلا أو نهارا . . ولم نره مرة غسل وجهه او قلم أظافره او غير ثوبه ومن غريب أمره انه لا يأوي الى غرفة ينام فيها ، فهو يتوسد يوما هذه

الزاوية ويوماً تلك، وآونة يبيت في الغوطة على بعض الأشجار أو تحت بعضها : ومن أغرب ما فيه أنه لا يذوق اللحم ولا الخبز، ولا يأكل شيئا غير الفاكهة . . فيطوف البساتين يقطف الثمار بيده ويتسلق الأشجار لهذه الغاية، لا يعترضه معترض منا رحمة به وشفقة على حاله . . والفاكهة هنا كثيرة» .

فقال عامر : « لا بد اذن ان يكون ذا كرامة ، لأن أمثال هذا الرجل يعدون عندنا من أصحاب الكرامات » .

وبينما هم يتهامسون ، سمعوا قرع الناقوس . . فخف احد الرهبان ليستقبل القادم . . فطال وقوفه خارجا ولم يعد ، فنهض الرئيس في أثره .

٧
طارق آخر

وكانت سلمى قد مدت يدها نحو الكلب ، وأشارت اليه بالمجيء اليها . . فهرول مسرعا ، فناولته تمرة كانت في جيبها ، فتناولها من يدها واستأنس بالفتاة ، فجعل يحك رأسه بثوبها وهي تمس جبينه بأناملها ، فيبالغ في الدنو منها وهو يحرك ذنبه . فلما سمع قرع الناقوس ، انتصب بغتة ورفع ذيله ووجه التفاتة الى باب الدير وحدق بعينيه ونشر أذنيه كأنه يتوقع ان يرى احدا ، وقد تأهب للوثوب عليه . .

فلما طال وقوف الرئيس خارجا ، نبح الكلب نبحة قوية ذعر لها الجالسون هناك ، وخاصة الشيخ الناسك . . وكان نائما ، فأفاق بغتة والتفت الى ما حوله ، فرأى كلبه بعيدا عنه ، فناداه « شيبوب » ، فدنا الكلب منه وأخذ يلحس أنامله وذراعه ، والشيخ يقول : « أهلا بك يا رفيقي وصديقي » ثم قال : « ما ظنك بهذا القادم ؟ . . يظهر لي من عاداتك أنك اسأت به الظن » ! . .

فلما سمع عامر صوت الشيخ ، ورآه يتكلم العربية الفصحى ، وقد سمى كلبه باسم عربي جاهلي ، قال في نفسه : « يظهر أن الرجل عربي أيضا . فمن هو يا ترى ؟ . . وما حاله » ؟ .

أما الرئيس فكان قد استبطأ راهبه وأسرع اليه ، فرأى بالباب رجلا في لباس يشبه لباس عامر ورفيقه . ولكنه أجفل لما رآه في وجهه من البرص الشديد إلى درجة البياض الناصع . على انه حسبه لأول وهلة رفيقا لعامر ، وقد تخلف في الطريق ، فرحب به وقال له : « تفضل . . ان رفاقك جلوس هنا منذ ساعتين » .

فأومأ اليه الرجل أن يسكت ، وأجتذبه بيده الى منعطف وراء الباب حيث لا يراهما احد ، وقال له : « احترس من ان تذكر خبر مجيئي لأحد ، وخاصة لهؤلاء الثلاثة الذين ظننتهم رفاقي . . فان في الامر سرا عظيما سأقصه عليك فيما بعد . وأما الآن فاني أطلب اليك ان تدخلني غرفة لا يراني فيها أحد ولا يعلم أحد بوجودي هنا . وقد قلت لك أحترس لنفسك . . والأمر يتعلق بمولانا أمير المؤمنين » . .

فخاف الرئيس ، وأجاب على الفور : « أني فاعل ما تريد . . واذا شئت أن أخرج هؤلاء الضيوف من الدير في هذه الساعة ، فعلت » . .

قال : « لا تخرجهم ، بل دعهم كما يشاؤ ون . . ولكنني أوصيك أن لا تذكر خبر مجيئي أبدا » .

قال : « سمعا وطاعة » ، وأدخله في باب من تلك الطرقة يؤدي الى دهليز ينفذ الى حجرات يقيم فيها الرهبان الذين يشتغلون في الصناعة ، وفيهم الخياط ، والنجار ، وصانع النعال ، والسلال ، وغير ذلك . والضيف الأبرص يعجب لما يراه حتى ظن نفسه في بعض أسواق الكوفة . فاستغرب ذلك منهم أكثر من استغرابه ملابسهم ، لأنه كان قد رأى رهبان العراق في مثل هذه الملابس . . وهي مسوح من نسيج الشعر أو القطن فوقه جلد أبيض من جلود الماعز لا يفارق أجساد الرهبان ليلا ولا نهاراً إلا وقت تناول الأسرار المقدسة[1].

ومشى الرئيس حتى انتهى الى غرفة خاصة بجانب الكنيسة ، فأدخله اليها وهو يردد في ذهنه ما سمعه منه . . ثم عاد الى ضيوفه في باحة الدير وقد أحس برغبة في الأقلال من مجالستهم ومحادثتهم . . فأمر احد الرهبان ان يعد لهم حجرة يقيمون فيها ، فأدخلهم غرفة ليس فيها الا حصير ، وعاد فأغلقوا الباب وجلسوا .

٨

جدال

وكان اول من تكلم منهم عبد الرحمن ، فخاطب عامرا قائلا : « ألم أقل لك أنك أخطأت بمجيئك في أثري الى هذه الديار . . ولو اتيت وحدك لكان خيرا ، ولكنك اصطحبت سلمى فكان هذا مدعاة الى سوء الظن حتى سمعت من رئيس هذا الدير ما سمعته من التلميح والتعريض » ! .

فقال عامر : « قلت لك يا ولدي انني انما جئت مدفوعا بما تعهدت به من أمر حراستك ، فانك بمنزلة ولدي . . وقد مات والدك وأوصاني بكفالتك . . ورأيتك اندفعت الى عمل خطير لم يقدم عليه أحد قبلك . وأردت ان تقوم به وحدك في بلاد غريبة ، فكيف لا اتبعك ؟ ! أما سلمى فانها أشد قلقا مني عليك » .

فقال : « لعلك ترميني بالسفه في عمل انتقم به لآل الرسول ﷺ وانقذ به المسلمين » .

فقطعت سلمى عليه الكلام بصوت هادىء ، والرزانة تبدو على وجهها ، وقالت : « لا ريب في أن الأمر الذي جئت من أجله أمر مقدس ، واذا أنت لم تقدم عليه اقدمت انا . . ولعلى أولى به منك . . فان الرجل الذي تنوي قتله واراحة الناس منه قد اساء الي ، وبيني

---

(١) دائرة المعارف البريطانية.

وبينه ثأر عظيم، لأن والده قتل والدي كما تعلم . قتله شر قتلة . . قتله وأنا لم أره ولا عرفت له رسما آنه قتل حجراالكندي سيد قومه ووجيههم . ولماذا قتله ؟ قتله لأنه لم يطعه في لعن الإمام علي ابن عم رسول الله ﷺ . . نعم ان يزيدا يستوجب القتل ان لم يكن انتقاما للإمام علي ، فانتقاما لحجر بن عدي وان لم يكن لهذا ولا ذاك ، فانه يستوجب القتل انقاذا للعباد من سلطان شغل عن مصالح الخلافة بالمنادمة على الشراب وتربية الكلاب والقرود والفهود[1] ، ومجالسة النساء والصيد والقنص[2] والشعر وضرب الطنابير ، ثم بتهاونه في امور الدين[3] . فالاقدام على قتله فضيلة . . ولكنه عمل خطير محفوف بالمخاطر . أنى لك ان توفق الى ذلك وانت فرد ، ويزيد خليفة يحيط به الاعوان والأنصار في الليل والنهار ؟ اني أخاف عليك ، ما بلغني ، مما اصاب ابن ملجم اللعين الذي تجرأ على قتل الإمام علي في وسط المسجد ولم ينج من القتل ، فهل تعرض نفسك لمثل ذلك الخطر » ؟ .

وكان عبد الرحمن جالسا وسلمى تتكلم ، فلما بلغت الى هذا القول وقف ، وجعل يخطر في الغرفة ذهابا وايابا ، وقد ظهر الاهتمام على وجهه ، فلما فرغت من كلامها التفت اليها وقال : « تأملي يا سلمى ما تقولين وتفهمي كلامك . . فاذا كنت وانت فتاة تعرفين ان قتل هذا الرجل فضيلة ، وأنه ان لم أقدم عليه أنا اقدمت انت . . فكيف لا أقدم أنا ، وكيف لا أفعل ذلك ، ولو كلفني حياتي » ؟! .

فقطعت كلامه قائلة : « لا تقل حياتي . حماك الله من كل شر . هذا هو الأمر الذي دفعني الى ان الحق بك مع عمي هذا . خرجت من الكوفة وانت عازم على قتل يزيد في دمشق الشام . . ومن هو يزيد ؟ أليس هو خليفة المسلمين الآن ،وفي يده الحل والعقد وحوله الجند والأعوان ؟ فخفنا ان تقع بين يديه او يصيبك شر ونحن بعيدان ، فكيف تكون حالتنا . . فلحقنا بك لنكون بالقرب منك ، لعلنا نساعدك في الرأي . أما يزيد فأنا لا أرى راحة الا بقتله ، وقد كنا نتوقع التخلص من ارتكاب هذه الجريمة لو انصف والده وترك الخلافة بعده شورى للمسلمين . وهو لو فعل ذلك ما تولاها إلا حبيبنا وسيد شباب المسلمين الإمام حسين لأنه أحق الناس بها . ولكن معاوية أبى إلا ان يوصي بها لأبنه هذا بالرغم عن كل مسلم . . فكيف نتخلى عنه ؟! .

« وزد على ذلك ان معاوية قتل أبي حجر شر قتلة . . فاذا كنت انت ناقما لقتل حجر لأنه

---

(١) المسعودي، الجزء الثاني. وابن الأثير، الجزء الثالث.

(٢) الفخري.

(٣) الدميري.

عمك ، فانه أبي وأصل وجودي ، وقد قتل ولم اره . . ثم انكم لم تنبئوني بمصيره إلا منذ عهد قريب فقد ربيت في البادية صغيرة لا أعرف غير اللعب والمزاح ، وأنا احسب والدي حيا في الكوفة . . والناس اذا ذكروه تحدثوا بمروءته وشهامته فأطنبوا . وكنت أتوقع اذا شببت عن الطوق ، أن أقدم اليه فأراه وأفاخر به قومي . . فما لبثت ان قيل لي أنه مقتول » .

قالت ذلك وغصت بريقها ، وتوقفت عن الكلام هنيهة ، ثم قالت لعامر : « وأنت يا عماه لم تخبرني حتى الآن بتفصيل ذلك القتل ، فلا تنس وعدك بان تقص علي تفصيل الخبر على قبره . . فقد ذكرت انه مدفون بالقرب من هذا المكان ، فهل تعرف قبره » ؟ .

فتنهد عامر ، وقال : نعم يا سيدتي . . اني أعرف قبره ، وأظن ان رئيس هذا الدير يعرفه أيضا . ألم تسمعي تلميحه الى ذلك العمل الفظيع الآن » ؟! .

قالت : « سمعت ذلك ، ولكنه لم يسرني لأننا قد عزمنا على ان يبقى أمرنا مكتوما عن كل انسان لنرى ما ينتهي اليه حالنا » .

وكان عبد الرحمن لا يزال يخطر في الغرفة وقد حل عقاله وارخى الكوفية على كتفيه ، ولكنه كان يوجه بصره نحو سلمى وهي تتكلم ، وهو يعجب بحميتها . فلما قالت ذلك اجابها : « اعلمي يا سلمى يا بنت عمي وخطيبتي ، ويا أملي ويا منتهى أربي . اعلمي - رعاك الله - أنه لن يهنأ لي عيش حتى أنتقم لوالدك المدفون في هذا المرج ، مرج عذراء ، واذا أنا وفقت الى ذلك حق لي ان اكون لك وتكوني لي - كما اوصى والدانا في حياتهما - فإذا انا لم اوفق فلن آسف على حياتي » .

فصاحت فيه ، وقد كاد الحياء يغلب عليها وهي تحاذر أن ترفع صوتها خوفاً من الرقباء ، قائلة : « حياتك أعز حياة عندي . . وما الفائدة من بقائي إذا أنت اصبت بسوء - لا سمح الله - فكيف تلومني بعد ذلك إذا لحقت بك؟ وأما عمنا عامر فإنه في الحقيقة بمنزلة الوالد لنا ، وقد انقطع عن العالم من أجلنا ، وهو رفيقنا في السراء والضراء» .

وكان عامر مع شدة تقديره لخطورة الأمر ، لا يغفل عن متابعة سلمى في حركاتها وسكناتها وهي تتكلم ، تارة ينظر اليها وطورا الى عبد الرحمن ، ويعجب بما اودعه الخالق فيهما من الخلال النادرة المثال . .

٩

حقيقة الحال

فهم القارىء من خلال الحديث ان سلمى هي ابنة حجر بن عدي قتيل مرج عذراء ،

وأن عبد الرحمن أبن عمها ، وأنهما مخطوبان وعامر كفيلهما . . وتفصيل ذلك ان سلمى ولدت في الكوفة قبل مقتل والدها بثماني سنوات ، فعهد بها الى امراة عامر ترضعها وهي عند زوجها في البادية . وكانت تلك عادة المتحضرين من العرب ، اذا ولد لهم مولود عهدوا برضاعته الى بعض نساء البادية فيربى في الخلاء حيث الهواء نقي والعيش رغيد ، فيشب أولادهم في سلامة البنية وشدة الساعد . فربيت سلمى في حجر عامر ثماني سنين وهي لم تر والدها ، فلما سيق والدها الى مرج عذراء سنة ٥١ للهجرة في جملة من سيق - كما سيجيء - وكانت والدتها قد ماتت ، كان آخر ما تكلم به حجر انه أوصى عامرا بالعناية بها وان يتخذها ابنة له ، وان يزوجها بعبد الرحمن ، ولكن بعد موت معاوية بن ابي سفيان . فظلت في حجرة حتى شبت .

وكان عامر كثير التردد على الشام للتجارة ونحوها ولا سيما في صباه ، وبنو كندة لا يزالون على النصرانية ، فكان اذا جاء دمشق أقام فيها مدة يتردد على الاديرة والكنائس يجالس أهل المعرفة . فيقصون عليه شذرات من تاريخ اليونان وما يتعلق به من تاريخ الشام وغيرها . . وكان لذكائه يحفظ كل ذلك ويتفهمه حتى كان معدودا بين رهطه من احسنهم معرفة واوسعهم اطلاعا في التاريخ . وآنس عامر في سلمى نباهة وذكاء ورغبة في استطلاع أقاصيص الأولين ، فكان يقص عليها كل ما عرفه من أخبار الفرس والروم وغيرهم . .

وكانت كثيرا ما تسأله عن والدها فيكتم خبر مقتله ، حتى اتفق منذ عامين ان ذكر الناس خبره أمامها . . فاستوضحته جلية الأمر ، فباح لها عامر بكل شيء ، فثارت حميتها وهاجت عواطفها وعزمت على الانتقام .

وأما عبد الرحمن فهو ابن عمها . . ربيّ معها في تلك البادية ، وقد سميت عليه منذ أن كانت في المهد . . فشبا معا منذ كانا طفلين ، يكيلان الرمل ، ويسابقان الماعز والغزلان على التلال والهضاب . وقد مات والده وهو طفل وعامر كفيله ، فلما أدرك وسمع بمقتل عمه حجر ، وما أعظمه الناس من أمره عول على ان يثأر له . وكان كسائر بني كندة ، وغيرهم من دعاة أهل البيت ، لا يرون لمعاوية حقا في الخلافة . فشبّ هو وابنة عمه على كراهية الامويين وحب آل البيت . وكان معاوية لا يزال حيا . والناس يتوقعون موته ليبايعوا الإمام الحسين . فصبر عبد الرحمن على ما في نفسه ، وقد نزل هو وعامر الحجاز ومعهما سلمى . . وأقاموا في المدينة في منزل الإمام الحسين زمنا ينتظرون ما يأتي به القدر .

وقضت عليهم الظروف قبيل وفاة معاوية أن يعودوا الى الكوفة ، فوصلوها وقد مات معاوية . . وجاء الخبر بمبايعة يزيد فعظم ذلك على عبد الرحمن، فأقسم أن لا يقيم أفراحا قبل أن يقتل يزيدا ، ووافقته سلمى على ذلك وعامر لا يبدي اعتراضا . . ولكنه لم يكن

يحسب أن عبد الرحمن سيقدم على ذلك الأمر سريعا .

فأصبح عبد الرحمن ذات يوم ، فودّع سلمى وعامرا واخبرهما أنه سيخف الى دمشق ليبر بقسمه . فاستمهلاه ، فما أصغى . وأخيرا ودعهما وخرج يريد دمشق ، وفي مساء يوم سفره اشتد قلق الفتاة ، فلم يهدأ لها بال حتى لحقت به هي وعامر وقد احتالا بتجارة التمر . فالتقيا به في القافلة قبل الغوطة بقليل ، فساءه ذلك ولامهما على مجيئهما . . ولكنه لم يجد حيلة الى ردهما ، فجاؤ وا معاً الى الدير .

فبعد ما دار بينهما من الحديث ، قالت سلمى : « لا بد لنا من تدبر الأمر بالحكمة . . أما قتل يزيد بين رجاله وجنده فتهور لا نرضاه لك ، ولا هو مستطاع . فهل من رأي صائب اهتديت اليه لتصل الى هذه الغاية » ؟ .

فلما قالت ذلك رجع عبد الرحمن الى صوابه ، وجلس وهو يصلح كوفيته على رأسه ، وقال : « انك تنطقين بالحكمة . . ولا تظنين أني جاهل الى هذا الحد ، فما أنا بمندفع الى هذا الأمر بجهلة ، ولكنني رأيت رأيا سأعرضه عليكما وأظنكما توافقاني عليه » .

قال عامر : « وما هو » ؟ .

قال : « إن يزيداً لا يلبث أسبوعا حتى يخرج للصيد لأن له به ولعاً شديداً ، فيخرج بحاشية كبيرة ومعه الفرسان والمشاة ، وأظنه سيقصد هذه الغوطة لكثرة ما فيها من الطيور والغزلان . . وأعرف قرية قريبة من هذا المكان يقال لها « جرود »[1] يكثر فيها حمار الوحش ، ويزيد مولع بصيد هذا الحيوان أيضاً . . فإذا أوغل في الصيد خرجت اليه متنكراً أرقب انفراده ، فأرميه بنبل أو أطعنه بخنجر . ولا يهمني بعد ذلك اذا بارزني فإني لا أخشاه . فإذا لم اتمكن من ذلك في المرة الأولى ، حاولت ذلك في الثانية او الثالثة حتى أظفر به وأخلص الناس من شره والسلام » .

فلما سمعت سلمى قوله ابتسمت وأبرقت عيناها سروراً بصواب رأيه ، وقالت : « انه رأي حسن . . ولكن علينا أن نرقب خروجه للصيد » .

قال عامر : « ذلك عليّ ، فأني إذا أصبحنا غداً دخلت دمشق بأجمالي وتجارتي واستطلعت خبر الصيد » .

فقالت سلمى : « وعلى الله التدبير . . ولكنني أتقدم اليك يا عماه أن تدلنا على قبر والدي فنزوره وأكحل عيني بترابه . . وأسمع خبر مقتله بالتفصيل » .

---

(١) حياة الحيوان، الجزء الأول.

فقال : « إن القبر يا ابنتي على مسافة ربع ساعة من هذا الدير تحت شجرة من الجوز كبيرة تظهر للرائي عن بعد ، ولكننا لا نستطيع الذهاب اليها إلا ليلاً لئلا يرانا الرئيس أو غيره ممن يعرفون المكان فيشتبه في أمرنا » .

وقضوا بقية ذلك اليوم في الاستراحة من وعثاء السفر ، وهم يتأهبون للخروج في الليل الى قبر حجر .

١٠

الأحتيال في الخروج

ولما غربت الشمس ، صعدوا جميعا الى سطح الدير وهم يتظاهرون برغبتهم في التفرج على منظر الغوطة ليلاً . . فلقيهم رئيس الدير ، وكان جالساً في أحد جوانب السطح يصلي على انفراد ، فتغافلوا عنه وجعلوا يتحادثون . حتى إذا فرغ الرئيس من صلاته نهض واقترب منهم . . وكان القمر في تلك الليلة بدراً كاملاً . . فما أزف الغروب حتى أطل من وراء الأفق كأنه يتطلع الى الشمس يتلمس وداعها وهي تتجاهله ، وقد اندفعت في سيرها لا تلتفت اليه ، ولسان حالها يقول : إذا كنت تبغي لقائي فاتبعني . وكأنه علم بحاجته الى نورها ، فجرى في أثرها يتتبع خطاها ويسترق من أشعتها حبالاً يرسلها على تلك الغوطة الواسعة الأطراف ، وفيها من الفاكهة أزواج ومن المياه قنوات وبحيرات ينعكس النور على سطوحها متلألئاً كالمصابيح . ولم تمض ساعة حتى علا البدر فأثار تلك الحدائق الغناء ، فأصبحت بحراً كثير الألوان لا تسمع فيه هدير الأمواج بل حفيف الأوراق وخرير المياه وزقزقة الطيور وهي راجعة الى أوكارها أسراباً متكاثفة تسبح الخالق العظيم .

وشغل عامر بالحديث مع الرئيس . . أما سلمى وعبد الرحمن ، فانهما لبثا واقفين يتأملان ذلك المنظر البديع . وسلمى لا تزال في قلق مما يهدد حبيبها عبد الرحمن من الخطر المقبل ، وهي مع ذلك تشاغل نفسها بالنظر الى ما بين يديها من الأشجار الباسقة والينابيع الجارية والأشعة المتلألئة ، مع ما يتخلل ذلك من تغريد العصافير وأصوات الماشية في الزريبة وفيها ثغاء الماعز وخوار الثيران وجعجعة الجمال . على ان هذا كله لم يلهها عن مقتل والدها ، وما تتوقعه من حديث عامر تلك الليلة . .

وأما عبد الرحمن ، فقد كان همه تدبير الحيلة لبلوغ أمنيته بمقتل يزيد . لا يلتفت الى

الغوطة ولا الى مناظرها . ثم حانت منه التفاتة الى سلمى ، وهي تنظر الى الغوطة ، وقد واجهها البدر ووقع ضوءه على وجهيهما كأنهما قمران تلاقيا على موعد . فثار فيه ثائر الحب ، وأعجب بما في ابنة عمه من المعاني البديعة . وتذكر اعجاب الشعراء وتغنيهم بجمال البدر فقال في نفسه : « أين تلك القطعة المستديرة الصماء من هذا الملاك الناطق الذي ينبعث نور الحياة من محياه » . . وكأن لسان حاله يقول :

بدري أرق محاسناً والفرق مثل الصبح ظاهر

وكان عامر يخاطب الرئيس في شؤون مختلفة لا علاقة لها بما في نفسه من حجر الكندي وعزمه على زيارة قبره في تلك الليلة . وكان نظره يترامى الى شجرة الجوز التي تظلل ذلك القبر . . يفعل ذلك ويغافل الرئيس لئلا يلحظ تطلعه . . حتى إذا وقع نظره على تلك الشجرة عرفها عن بعد من ضخامتها وانبساط أغصانها ، فتنهد تنهداً عميقاً وجعل يتفرس في الطريق الذي يؤدي اليها . ثم التفت الى الرئيس ، فقال له : « سبحان الخالق العظيم . . ما أجمل هذه الليلة المقمرة ، وما ألطف هذه المناظر البديعة » .

فقال الرئيس : « إن ذلك يدلنا يا ولدي على قدرة الباري سبحانه وتعالى ، اني لا أقف في هذا المكان إلا سبّحت العناية العظمى التي أعدت للانسان كل ما يحتاج اليه من دواعي السرور والبهجة في هذه الحياة الدنيا » . .

فقال عامر : « سبحانه جلّ سلطانه . . ما أجمل صنعه وما أبدع مخلوقاته ان في العراق كثيراً من البساتين الغضة ، ولكن أكثر أشجارها من النخيل . . أما أصناف الفاكهة التي أراها في هذه الغوطة ، فانها خاصة ببلاد الشام ، وتحدثني نفسي ان أخرج في هذا الليل لأتمتع بشذا الرياحين وأتجول بين الأشجار . . فهل ترى مانعاً من ذلك » ؟ .

قال : « لا أرى مانعاً يمنعكم . . غير أني أفضل أن أتطلع اليها من فوق هذا السطح فأنه أمتع للنظر ، وبخاصة في ضوء القمر » .

قال : « صدقتم . . ولكنني سمعت ابنتي هذه تتشوق الى الخروج ، فوعدتها أن أرافقها ، فنمشي هنيهة ثم نعود » .

قال : « لا مانع من خروجكم . واذا شئتم أرسلت معكم أحد الرهبان يرشدكم ويسير في خدمتكم » .

قال : « اني أعرف الطريق جيداً . . فلا حاجة لنا بالرفاق » .

قال : « أفعلوا ما بدا لكم » .

١١

الخروج من الدير

فتحول عامر الى عبد الرحمن وسلمى ، وقال لهما : « هلما بنا ننزل الى الغوطة نتمشى بين أشجارها . . فقد أذن لنا حضرة الرئيس بذلك » .

فنهضا وتحولوا جميعا . . فنزلوا الى باحة الدير وأطلوا منها الى الحجرة التي كانوا يقيمون فيها في أثناء النهار ، فرأوا بابها مفتوحاً فأسرع عامر الى إغلاقه . وبينما هو عائد رأى كلب الناسك نائماً بالقرب من الباب ، ولم ير شيخه معه . . فعجب لأنفراده هناك ، وقد سمع أن ذلك الشيخ الهرم قلما يفارق كلبه ليلاً أو نهاراً . .

وكان عبد الرحمن وسلمى قد سبقاه الى باب الدير ، فخرج في أثرهما وهو يقول : « لقد رأيت شيبوباً نائماً وحده بقرب حجرتنا فتذكرت ذلك الشيخ الجليل . ومما أدهشني من أمر هذا الشيخ ، أنه يتكلم العربية الفصحى ، وفي لهجته ما يقارب لغة أهل العراق . ووالله ، وددت لو خلوت به لأسأله عن أصله » .

فقالت سلمى : « أين هو من العراق ، وما الذي يأتي به الى هذه الديار . . اني لا احسبه إلا رجلاً أبله ، ولكنني استأنست بكلبه شيبوب ويا ليتنا نصطحب هذا الكلب ، فإنه قد يدفع عنا أذى الذبابات أو ينبهنا الى لص أو نحوه » .

فقال عبد الرحمن : « دعونا من هذا الرفيق . . أننا في حاجة الى التستر أكثر منا الى رفقة الكلاب » .

وكانوا قد وصلوا الى باب البستان ففتحوه وخرجوا الى الغوطة، وهم يتظاهرون أنهم يريدون التمشي . حتى إذا تواروا عن الدير أوغلوا بين الاشجار المتكاثفة ، وعامر يسير الى الامام وسلمى وعبد الرحمن يتبعانه . . تارة يصعدون وطوراً يهبطون ، وهم يتجسسون الطرق على ضوء القمر المنبعث من خلال الأغصان وقد رسمت ظلالها على الأرض صوراً تشبه أشباح الآدميين متوسدة لا حراك بها ، أو كأنها أرواح علوية خافت أن يراها البدر فتفيأت ظلال الأشجار .

وما زالوا يقطعون قناة أو يعبرون جسراً وهم سكوت ، وقلب سلمى يخفق تطلعاً الى قبر والدها ، وعبد الرحمن يفكر فيما عزم عليه من قتل يزيد . حتى اشرفوا على مرتفع صغير تعلوه شجرة من أشجار منبسطة الأغصان ، تظلل بقعة خالية من النبات وفيها مرتفعات من الأتربة ، موزعة على غير نظام . فلما أطلوا على الجوزة ، وقف عامر . . فوقفا في اثره وهما يتوقعان أن

يسمعا منه قولاً يدل على موضع القبر ، فإذا به قد التفت الى سلمى وأشار بيده الى أكمة صغيرة بجانب ساق الجوزة وقال : « هذا هو يا سلمى قبر والدك » .

وما أتم كلامه حتى ترامت بكليتهاعلى ذلك التراب وجعلت تقبله وتبكي وتصيح : « وا والداه هذا هو ترابك ، فأين أنت ؟ أين أنت يا حجر بن عدي سيد كندة ؟ » ، وانخرطت في البكاء .

أما عبد الرحمن فتقدم حتى وقف بجانب سلمى وقد أكبر البكاء لأنه إنما جاء لينتقم لا ليبكي . فوقف الى ساق الجوزة ، وقال لسلمى : « لا تبك يا سلمى . . ان البكاء لا يجوز على ميت سننتقم له في الغد » ، والتفت الى عامر وهو يقول : « أقصص علينا يا عماه تفصيل مقتل صاحب هذا القبر » . .

فقال عامر : « أجلسا يا ولديَّ لأقص عليكما الحادث كما شهدته » ، ثم قال بصوت ضعيف : « واعلما أننا في ارض العدو . . فينبغي ان نتستر ما استطعنا » .

فسكتوا برهة وهم ينظرون الى ما حولهم ، فإذا بالمكان خال من انفاس الناس لا يسمع فيه غير خرير السواقي عن بعد ونقيق الضفادع . وقد وقعت ظلال تلك الجوزة على ما حولهم فآووا الى الظل بجانب القبر ، وجلسوا على التراب وسلمى جاثية وعيناها تدمعان ، وهي صامتة تتسمع لما سيقوله عامر من حديث والدها .

١٢

حجر بن عدي

أما عامر ، فجلس جاثيا وبدأ بالفاتحة فتلاها واستغفر الله ، ثم افتتح الحديث قائلا : « اعلمي يا سلمى ان والدك صاحب هذا القبر كان من أقوى أنصار الإمام علي ، وقد حارب معه حروباً كثيرة وجاهد عنه بسيفه ولسانه جهاداً ضخماً الى آخر نسمة من حياته . فلما قتل الإمام علي وصار أمر الخلافة الى معاوية بن ابي سفيان في دمشق . . ظل والدك من أنصار علي ، وعلى دعوته . ولكن السلطان أصبح لمعاوية، واستفحل أمر بني امية . وكان والدك يقيم في الكوفة مع قومه ينادي بحبه علياً على رؤوس الأشهاد . .

« وكان معاوية كما تعلمين قد جعل ديدنه الحط من كرامة علي وسائر أهل البيت ، فكان يأمر الناس ان يلعنوه . فمنهم من يطيع خائفاً ، ومنهم من لم يكن يفعل . . وفي مقدمة هؤلاء والدك حجر وبعض رفاقه . .

« وبعث معاوية في سنة ٥١ للهجرة عاملاً الى الكوفة أسمه المغيرة بن شعبة وأوصاه حين بعثه قائلاً : أما بعد ، فإني لذي الحلم - قبل اليوم - تقرع العصا ، وقد يجزي عنك الحكيم

بغير التعليم ، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك ، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تترك شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب لأصحاب علي والاقصاء لهم . فقال له المغيرة : قد خرجت وجربت وعملت قبلك لغيرك فلم يذمني وستبلو فتحمد أو تذم . فقال معاوية : بل نحمد أن شاء الله . .

«فأقام المغيرة عاملاً على الكوفة وهو لا يدفع شتم علي والوقوع فيه والدهاء لعثمان والاستغفار له . فكان والدك اذا سمع ذلك قال: بل إياكم من ذم علي ولعنه . ثم يقول: أنا أشهد ان من تذمون أحق بالفضل ومن تزكون أولى بالذم . فيقول له المغيرة : يا حجر اتق هذا السلطان وغضبه وسطوته ، فإن غضب السلطان يهلك امثالك . ثم يكف عنه ويصفح . فلما كان آخر امارة المغيرة قال في علي وعثمان ما كان يقوله ، فقام والدك فيه وصاح صيحة سمعها كل من في المسجد وقال له : مر لنا أيها الانسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا ، وليس ذلك لك وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين . فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون : صدق حجر وبر ، مر لنا بأرزاقنا فإن ما انت عليه لا يجدي علينا نفعاً . وأكثروا من هذا القول وأمثاله . فنزل المغيرة فدخل عليه قومه وقالوا : علام تترك هذا الرجل يجتريء عليك في سلطانك ويقول لك هذه المقالة فيسخط عليك أمير المؤمنين معاوية ؟ فقال لهم المغيرة : أني قد قتلته . . سيأتي من بعدي أمير يحسبه مثلي فيصنع به ما ترونه يصنع بي فيأخذه ويقتله . اني قد قرب أجلي ولا أحب ان اقتل خيار هذا المصر غيسعدون وأشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة .

« ثم توفي المغيرة وولي الكوفة زياد بن ابيه المشهور بدهائه ومكره ، فقام في الناس فخطبهم عندقدومهثم ترحم على عثمان وأثنى على أصحابه ولعن قاتليه . فقاموالدك ففعل كما كان يفعل بالمغيرة ، فكظم زياد غيظه ، حتى اذا عزم على الفتك به دخل وصعد المنبر ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه ووالدك جالس، ثم قال: «أمابعد فإن غب البغي والغي وخيمان هؤلاء جمعوا فأثروا وأمنوني فاجترأوا على الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر وأجعله نكالاً لمن بعده ويل لك يا حجر سقط الغشاء بك على سرحان . ثم ارسل الى والدك يدعوه وهو بالمسجد . فلما أتاه رسول زياد قال لأصحابه لا نأته ولا كرامة له . فرجع الرسول فأخبر زياداً فأمر صاحب شرطته وهو شداد بن الهيثم الهلالي أن يبعث اليه جماعة ففعل ، فسبهم أصحاب والدك فرجعوا واخبروا . زياداً . .

« فلما رأى زياد امتناع والدك بأهله وأصحابه ، أحتال حيلاً شتى حتى تمكن من القبض عليه بخديعة . وذلك ان بعض أصحاب والدك استأمنوا زياداً على أن يرسله الى معاوية في الشام فأمنه زياد ، وأرسلوا الى والدك ـ رحمه الله ـ فحضر عند زياد . . فلما رآه

قال : مرحباً بك أبا عبد الرحمن أحرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس . على اهلها تجني براقش . فقال والدك ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة واني على بيعتي فأمر به الى السجن ، فلما تحول قال زياد والله لأحرصن على قطع رقبته[1] .

« ثم جد زياد في طلب أصحاب والدك فهربوا وأخذ كل من قدرعليه منهم ، وجاء أحد الوشاة الى زياد فقال له أن امرءاً منا يقال له صيفي من رؤ وس أصحاب حجر . فبعث زياد فأتى به فقال : « يا عدو الله ماذا تقول في ابي تراب » ؟ قال : « ما أعرف ابا تراب » . فقال : « ما أعرفك به . . أتعرف علي بن ابي طالب » ؟ قال : « نعم » . قال : « فذاك ابو تراب » . قال : « كلا ذاك ابو الحسن والحسين » . فقال له صاحب الشرطة : « يقول هو ابو تراب وتقول لا » ؟ فقال صيفي : « أفأن كذب الأمير أكذب أنا ، وأشهد على باطل كما شهد » ؟! فقال له زياد : « وهذا أيضا ؟ علي بالعصا » فجاءوه بها فقال : « ماذا تقول في علي » ؟ قال : « أحسن قول » قال : « اضربوه » فضربوه . . حتى لصق بالأرض . ثم قال : « اقلعوا عنه . . ما قولك في علي » ؟ قال : « والله لو شرحتني بالمواسي ما قلت فيه الا ما سمعت مني » . قال :«لتلعنه أو لأضربن عنقك » . قال : « لا افعل » . فأوثقوه حديداً وحبسوه . اني والله لم أر اشجع منه إلا والدك رحمها الله .

« ثم جمع زياد اثني عشر رجلاً أتهمهم بالنصرة لعلي ، وأشهد شهوداً أن حجراً جمع اليه الجموع وشتم الخليفة معاوية علناً ، ودعا الى حربه . وأنه قال ان هذا الأمر لا يصلح إلا في أبي طالب . وأنه وثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه ، وإن هؤلاء الاثني عشر الذين معه هم أصحابه على رأيه . . ثم دفع زياد والدك وأصحابه الى اثنين من خاصته وسلمهما تلك الشهادات وأمرهما أن يسيرا بهم الى الشام . .

« فساقاهم من العراق حتى انتهيا بهم الى هذا المكان ، وهو مرج عذراء فوضعاهم هنا ، وسارا الى دمشق فدخلا على معاوية وعرضا عليه الكتب التي كانت معهما . واتفق ان كان في مجلس معاوية أناس استوهبوا ستة من رفاق والدك فوهبهم اياهم ، وبعث أناساً الى هذا المرج فوصلوه في المساء نحو هذا الوقت .

---

(١) ابن الأثير، الجزء الثالث.

١٣

مقتل حجر

«وكنت قد صحبت الجماعة من الكوفة ومكثت عن بعد أنتظر ما سيكون، فلما رأيت القادمين من دمشق ومعهم الأسلحة والأنطاع علمت أنهم قادمون ليقتلوه وأصحابه . ولم أكن اعلم ان معاوية وهب ستة منهم . . فدنوت عند ذلك من والدك ، فلما رآني دعاني اليه وقال لي قولاً لا أنساه طول العمر . . وكأني به قد تحقق دنو الأجل فقال : « أني أوصيك يا عمر بطفلتي سلمى . . أحتفظ بها ما أستطعت ولا تزوجها إلا بابن عمها عبد الرحمن ، ولكن لا تفعل ذلك إلا بعد موت معاوية هذا . فإذا مات وعاد أمر الخلافة شورى للمسلين يولون الحسين لا محالة ، فإذا وليها هو ينتقم لنا ان شاء الله» ولم يكد والدك ـ واأسفي عليه ـ يتم كلامه حتى وصل القادمون من عند معاوية ، فاستقدموا والدك وستة من رفاقه وقالوا لهم قبل القتل : « أنا قد أمرنا ان نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له ، فان فعلتم تركناكم وان ابيتم قتلناكم » . فقالوا : « لسنا فاعلي ذلك » . فأمر فحفرت القبور وأحضرت الأكفان وقام والدك وأصحابه يصلون عامة الليل . فلما كان الغد قدموهم ليقتلوهم ، فقال لهم والدك : « أتركوني أتوضأ وأصلي . . فاني ما توضأت ولا صليت » فتركوه فصلى ثم أنصرف منها ، وقال : « والله ما صليت صلاة قط أخف منها ، ولولا ان تظنوا في جزعاً من الموت لاستكثرت منها » . ثم قال : « اللهم انا نستعديك على أمتنا فان أهل الكوفة شهدوا علينا ، وأن أهل الشام يقتلوننا . . والله لئن قتلتموني بها فاني لأول فارس من المسلمين هلك في واديها وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها » .ثم مشى أحدهم اليه بالسيف ، فارتعد رحمه الله . فقالوا له : « زعمت أنك لا تجزع من الموت . . فأبرأ من صاحبك وندعك » . فقال : « ومالي لا أجزع وأرى قبراً محفوراً وكفناً منشوراً ، وسيفاً مشهوراً ، واني والله ان جزعت من القتل لا اقول ما يسخط الرب » . فقتلوه ـ والهفي عليه ـ وقتلوا ستة من رفاقه ، ثم صلوا عليهم ودفنوهم في هذا المكان[1] ، وهذا هو قبر والدك رحمه الله . وخرجت أنا الى الكوفة ثم قمت بكفالتك ، وربيتك انت وعبد الرحمن كما تعلمين » .

---

(١) ابن الأثير، الجزء الثالث.

١٤

الانتقام . . . الأنتقام . . .

وكان عامر يتكلم وسلمى وعبد الرحمن شاخصان بأبصارهما وقلباهما يكادان يشتعلان . فلما بلغ الى هذا الحد صرخت سلمى قائلة : « ويل لقساة القلوب قتلة الأبرياء ! . . الأنه لم يلعن الإمام علياً قتلوه » ؟ ثم قالت : « ان الله منتقم من القوم الظالمين » . .

فوقف عبد الرحمن واستل خنجراً أبرق فرنده في ضوء القمر، وقال هو ينظر الى القبر: اعلم أيها الراقد بلا حراك . . اعلم يا عماه، يا حجر بن عدي. أني لا أخاطب تراباً ولكنني أخاطب روحاً طاهرة لا أظنها تفارق هذا المكان اعلم - رحمك الله - أني منتقم لك بحد هذا الخنجر قريباً أن شاء الله».

وساد الصمت تحت تلك الشجرة هنيهة ، لم يكن يسمع فيها الا طنين البعوض وخرير الماء . وكان كل واحد من هؤلاء الثلاثة يفكر في شي ء ، وتدور جميع تلك الأفكار حول الانتقام . . ثم هبت سلمى من مكانها بغتة وجثت على قبر والدها ، وتناولت حفنة من ترابه بيدها ، وقالت وهي تنظر الى السماء من خلال الأغصان : « أنت تعلم أيها القهار العظيم أن والدي هذا قد مات مظلوماً ، وأنت وحدك نصير المظلمومين . انه قتل في سبيل نصرة نبيك ﷺ ، انه قتل في نصرة الإمام علي وصي النبي وصهره وابن عمه . . . » .

ولم تتم سلمى كلامها حتى سمعوا صوتاً عميقاً كأنه خارج من أعماق القبر ، أو كأن هاتفاً من عالم الأرواح يقول بصوت ضعيف وقع همساً في أذن كل منهم على حدة : « وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم » . .

فلما سمعوا الصوت ، اقشعرت أبدانهم ، وسيطر عليهم الذعر ، وتملكتهم الدهشة ، وظلوا صامتين هنيهة . وكل منهم يحسب نفسه قد تفرد بسماع الآية ، ويتلف الى رفيقه والبغتة ظاهرة على وجهه . فأدركوا أنهم سمعوها جميعاً على السواء وخيل لهم ان روح حجر تنطق من عالم الغيب أو أن روحاً من الأرواح العلوية تخاطبهم بما تنطوي عليه ارادة الخلاق العظيم . فتخشعوا واستولت عليهم الرهبة ، وكلهم صامتون لا يبدون حراكاً ، وتصوروا المكان مسكوناً بعد ان كانوا يحسبونه مهجوراً . وكانت سلمى لا تزال ممسكة بالتراب بيدها . . وعبد الرحمن واقف والخنجر في يده .

وبدأ عامر بالكلام ، فاستعاذ بالله وقرأ الفاتحة . . ولم يكد يتم تلاوتها حتى ابتدره عبد الرحمن وهو يغمد خنجره ، وقال وصوته مختنق من عظم الدهشة : « أرأيت يا عماه كيف ان الله معنا وصوت الهاتف شاهد . فهل بعد ذلك من شك في نجاح المهمة التي انتدبت نفسي لأجلها » ؟ .

فسكتت سلمى وقد اقتنعت في نفسها بأن عزم عبد الرحمن الهام من الله ، ولكنها كانت تخاف على حياته . . فلم تحرضه على ذلك بل تركت الأمر يجري في مجراه الطبيعي . .

ووقف عامر وهو ينفض التراب الذي لصق بثيابه من أثر جلوسه هناك ويقول : « سر يا بني وتوكل على الله وثق به » ، وقد سمعت قوله تعالى : « وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم » .

ونفضت سلمى يدها أيضاً ، وتحولوا جميعا نحو الدير . . وقد تكبد القمر السماء والسكوت ساعتئذ أرهب مما عهدوه وهم قادمون ، لشدة ما أثر في نفوسهم حديث عامر وكلام الهاتف . واصبحوا اذا وقعت اقدامهم على العشب أو التراب في أثناء مسيرهم سمعوا لوقوعها دوياً ، وإذا دبت دابة أو نقنق ضفدع وقع ذلك في آذانهم وقعاً شديداً . فمشوا معظم الطريق وكأن على رؤ وسهم الطير ، وعامر يفكر في باب الدير ومن يفتحه لهم بعد أن مضى نصف الليل . وخاف أن يوجب غيابهم شبهة . . فغير الطريق التي جاءوا منها .

١٥

الناسك

فأطلوا على الدير من جانبه الغربي فرأوه وأهله نيام ، فخافوا أن لا يجدوا من يفتح لهم الباب . لكنهم تحولوا يلتمسون مدخل البستان ، حتى إذا أشرفوا عليه شاهدوا شبحاً قادماً نحوه من الجانب الآخر . فظنوه لأول وهلة ضيفاً آخر ، وعجبوا لقدومه في منتصف الليل .

وفيما هم يتفرسون فيه قالت سلمى : « هذا هو الشيخ الناسك بعينه . ألا ترون الجلد على ظهره ! ورأسه لشدة بياضه كأنه قطعة من ثلج » ؟! .

وكانوا لم يروه ماشياً قبل ذلك الحين ، فعجبوا من نشاطه وخفته . . وقال عبد الرحمن : « كنت قد حسبته ـ لأول وهلة ـ شيخنا الناسك ، ولكنني اشتبهت في أمره لما شاهدت من نشاطه وسرعة جريه . فاني لا أرى قامته محدودبة كما كنت اتوقع ان تكون بعد ان رأيناه في باحة الدير » .

فقال عامر : « ولا أظن سبب هذا النشاط إلا أقتصاره على الفاكهة والخضر دون اللحوم . على انني أستغرب خروجه في هذا الليل ، وأخشى أن يكون قد رآنا تحت الجوزة ، أو لعله سمع كلامنا أو اطلع على شي ء من أمرنا » .

فقالت سلمى : لو مر بنا لرأيناه أو لسمعنا وقع خطواته ، فقد كان السكوت سائداً وضوء القمر ساطعاً . ولكنني أظنه كان يتجول في الغوطة يتناول الثمار ، كما حكى لنا الرئيس عن غرابة أخلاقه وكيفية معيشته » .

وفيما هم يتسهامسون كان الشيخ قد أدرك باب البستان وعالجه بأداة في يده حتى انفتح ،

فدخل ووقف ينتظر وصولهم . . فاستغربوا عنايته بذلك ، ولم يفهموا السبب الذي حمله على هذا العمل. ولكنهم عزوه الى غرابة طباعه ، وخاصة بعد أن دخلوا من الباب وحيوه . فلم يرد التحية ، بل أسرع الى باب الدير فقرعه وأيقظ أحد الرهبان ففتح له ، فدخل ودخلوا هم في أثره . ثم اختفى ولم يعودوا يشاهدونه كأنه كان ظلا وزال ، وأما هم فأسرعوا الى غرفتهم يلتمسون النوم بعد المشقة وطول السهر .

١٦

الخروج للصيد

وبالرغم من تعبهم لم تغمض أجفانهم إلا قبيل الفجر ، لما ثار في خواطرهم تلك الليلة . . على انهم لم يكادوا ينامون حتى أفاقوا على ضوضاء الرهبان في باحة الدير وهم لا يفهمون سبباً لذلك . . فنهضوا مذعورين ، وخرج عامر للبحث عن السبب ، ثم عاد والدهشة تعلوه . . فابتدرته سلمى بالسؤال عن سبب دهشته . .

فقال بصوت خافت : « ان أهل الدير يستعدون لاستقبال يزيد بن معاوية » .

فبغت عبد الرحمن وقال : « يزيد ؟ وكيف يستقبلونه ؟ ولماذا » ؟! .

قال : « لأنه ذاهب الى الصيد في هذا الصباح . . ومن عادته إذا مر بهذا الدير أن يستريح ساعة وينصرف » .

ولم يتم عامر كلامه حتى اختلج قلب عبد الرحمن دون أن يمازج اختلاجه شي ء من الخوف ، ولكنها البغتة تفعل أشد من ذلك . .

وأما سلمى وقد تأثرت أكثر مما كان من عبد الرحمن . . بنسبة ما بين الرجل والمرأة من دقة الشعور . فقال عبد الرحمن : « هل أنت واثق يا عماه مما تقول ؟ . . وهل نرى يزيد في هذا الدير اليوم »؟.

قال : « ليس نزوله هنا أمراً واجباً » ولكنه خارج الى الصيد لا محالة . . وسيمر من طريق بقرب هذا الدير ، ويغلب على الظن انه يعرج عليه ويقيم هنيهة ، لأنه يعرف رئيس الدير ويحترمه . والرئيس يعد مائدة من الفاكهة والأشربة . . فاذا شاء أقام أو ظل سائراً في طريقه » .

فقالت سلمى : « أرجو أن ينزل هنا لأراه ، لأني لم أر وجهه بعد » . .

فقال عبد الرحمن : « ولكنك لا تستطيعين ذلك إلا إذا جلست في مكان مشرف بحيث ترينه ولا يراك » .

قال عامر : « وأنا أريد أن لا يرى وجهي . . فالأجدر بنا أن نتخذ مكاناً في خلوة تشرف على باحة الدير ، وإذا استطعنا أن نشرف على بستان الدير أيضاً كان حظنا أوفر ، لأن يزيد اذا أراد الصيد خرج في حاشية كبيرة ، وفيها البازيارية والعقادون وساسة الفهود والقرود والكلاب وحملة الزاد والخدم والأعوان وغير ذلك ، مما يحتاجون اليه أثناء الصيد » .

قال عبد الرحمن : « وهل يقيمون طويلاً في الصيد » ؟.

قال : « ربما أقاموا أسبوعاً أو شهراً أو بضعة أسابيع[1] وهم في مضاربهم ومعهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام والشراب والكساء ، كذلك كان يفعل ملوك العراق عندنا من عهد الفرس . فقد كان الملك منهم اذا خرج للصيد بنوا له حائطاً طوله فرسخ يبتدىء من دجلة مثلاً أو من الفرات على زاوية . . ثم يخرج الملك أو الأمير ومعه الرجال والأعوان على الخيول والبغال والحمير يطاردون الغزلان وحمر الوحش وغيرها من الطرائد نحو الحائط والنهر ، ويمنعونها من الرجوع فلا تفر من امامهم ، وهم يحتالون عليها حتى يدخلونها وراء ذلك الحائط . . فتنحصر بينه وبين النهر ولا يغدو لها مجال للهروب . فاذا انحصرت هناك دخل الملك ومن معه من خاصته وتأنقوا في القتل ، فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي . . وأظن أن يزيد سيفعل في هذه الغوطة مثل ذلك » . .

فقال عبد الرحمن : « وما الحيلة في مكان نستتر فيه » ؟.

قال عامر : « دعوا ذلك إلي » ، وخرج الى رئيس الدير . وكان الصبح قد انبلج والرئيس على السطح يراقب تنفيذ أوامره في تنظيف الدير ، وفرش الطنافس ، واعداد المجالس ، وترتيب الفاكهة في الآنية ، واستحضار المياه الباردة المحلاة بالسكر وأنواع الاشربة الحلوة .

١٧
العلية

فصعد عامر اليه وحياه . . فرحب به الرئيس ، فتجاهل عامر انه يعرف سبب ذلك الاهتمام وسأله عنه ، فأجاب الرئيس قائلا : « ان أمير المؤمنين سيمر بنا في هذا الصباح وهو في طريقه الى الصيد ، ومن عادته اذا خرج للصيد ان يجعل هذا الدير أول محطة يقف فيها » .

---

(١) الآداب السلطانية للفخري.

فأظهر عامر ارتياحه لذلك ، وقال : « وقد بلغني أن مولانا الخليفة يحبكم ويحترمكم لقدم عهدكم في هذا المنصب » .

قال : « ربما فعل ذلك تفضلاً منه ، ولا غرو فاني اعرف والده من قبله ، وكثيراً ما كان يجالسني وأجالسه . وكان خليفتنا هذا يومئذ صبيا يخرج أحياناً الى هذه الغوطة ، ومعه معلم كان يعلمه حركات النجوم وأنساب العرب ، اسمه دغفل[1] ، وكان اذا أتاني أنس بي فأكرمه . فلما تولى الخلافة ظل يذكر هذه الصحبة ويحافظ عليها » . .

فقال عامر : « ان منظر أمير المؤمنين بحاشيته وخدمه مما ينشرح له الصدر ، وأراني كثير الشوق الى مشاهدة ذلك المشهد ، وابنتي أكثر مني اليه شوقاً . . ولكنني لا أدري كيف أستطيع أن أريها أياه من غير أن يراها أحد ، لأن تقاليدنا تقضي بالتحجب » .

فقال الرئيس : « هذا أمر هين يا بني . . فاني أقدم لكم غرفتي فوق السطح ، تجلسون فيها أثناء تلك الزيارة » .

فأثنى عامر على تفضله ، وقال : « بورك فيك يا مولاي » ، ومضى يريد أن يستدعي سلمى وعبد الرحمن .

فلما تحول عامر ، تذكر الرئيس ما سمعه بالأمس من الضيف الأبرص المتنكر بأن لهؤلاء حكاية مع أمير المؤمنين . . ولكنه لم يعد يستطيع الرجوع في قوله .

وبعد قليل عاد عامر ومعه رفيقاه ، فصعدوا جميعا على السلم الحجري حتى انتهوا الى علية الرئيس . . فاستقبلهم وأوصاهم بالتستر ما استطاعوا .

فلم يفقهوا لوصيته معنى غير مجاراتهم في مقتضيات الحجاب فدخلوا العلية ولها نافذتان ، تطل أحداهما على باحة الدير والأخرى على بستانه . . فأطلوا على البستان والغوطة من ورائه ، يستطلعون موكب الخليفة قبل وصوله . وقد أشرقت الشمس وأرسلت أشعتها على تلك المروج الخضراء تتخللها الجداول والبحيرات ، وقد تبعثرت العصافير وغنت البلابل ألحاناً لم تكدرها سوى أصوات الماشية والحمير والجمال في الزريبة . . فانصرفت أذهانهم الى تلك المناظر البديعة بما يخالطها من ألوان الفاكهة والرياحين والأزهار .

١٨
يزيد وابن زياد

على انهم لم يكادوا يشتغلون بذلك ، حتى تبين لهم من بين الأشجار خيول قادمة من

---

(١) حياة الحيوان الكبرى، الجزء الأول.

ناحية دمشق في هيئة موكب يتقدمه فارس بلباس زاه وعلى رأسه عمامة صغيرة . ويجلل ثيابه جبة أرجوانية موشاة ، والى جنبه سيف مرصع انكسرت أشعة الشمس على احجاره فأضاء كالمشعل . ووراء الفارس بضعة عشر فارساً آخرون ، في مقدمتهم فارس هو أحسنهم زياً وأقربهم مظهراً من الفارس الأول . .

فعلم عامر لأول وهلة أن الفارس الأول هو يزيد بن معاوية ، ولكنه لم يتبين وجهه لبعد المسافة ، ولا عرف رفيقه . . على أنه حسبه من بعض خاصته .

ولم تستطع سلمى أن تمسك عن الاستفهام ، فقالت . من هو هذا الفارس يا عماه ؟ . . لعله الخليفة المزعوم » ! . .

قال : « يظهر من لباسه انه هو بعينه » .

قالت : « ومن هو رفيقه الراكب الى جنبه ؟ . . يظهر لي انه من أخصائه » . .

قال : « أظنه كذلك . . فاذا اقترب عرفته وأنبأتك بحقيقة حاله » .

وظلت أبصارهم شاخصة الى هذين الفارسين لا يلتفتون الى ما ورائهم حتى اقتربا من سور البستان . وكان رئيس الدير قد خرج برهبانه لاستقبال ذلك الضيف العظيم .

فترجلت الفرسان ودخل الخليفة أولاً والى جانبه رفيقه ووراءهما بقية الحاشية ، فمشوا في البستان وعامر يتفرّس فيهم ، وسلمى وعبد الرحمن ينظران الى عامر . . فرأيا سحنته قد تغيرت ، والتفت الى سلمى .

فقالت : « ما سبب هذه البغتة يا عماه ؟ . . ماذا رأيت » ؟ . .

فتنهد وقال : «يا للعجب سبحان جامع الأشباه والنظائر . . أتعلمين من هما هذان » ؟ .

قالت : « كلا . . ومن عسى أن يكونا » .

قال : « أما الأول صاحب الحلة الأرجوانية الذي تريان وجهه شديد الأدمة وعليه أثر الجدري[1] ، فهو يزيد بن معاوية الذي يسميه أتباعه أمير المؤمنين خليفة رب العالمين والخلافة بريئة منه . وهو كما تريانه شاباً حسن الصورة[2] لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره[3] ولم يغير الجدري شيئاً من جماله . ولكن الخلافة لا تحتاج الى الجمال ، وخصوصاً اذا كان صاحبها منغمساً في الملاهي . أما رفيقه الماشي مرحاً ، فاذا اقترب منكما شممنا رائحة المسك ، وهو عبد الله بن زياد »[4] .

---

(١) تاريخ الخميس، الجزء الثاني.

(٢) الآداب السلطانية للفخري.

(٣) تاريخ الخميس، الجزء الثاني.

(٤) ابن الأثير، الجزء الرابع.

فلما ذكر اسمه أرتعدت سلمى ، وقالت : « لعل أباه هو الساعي في قتل أبي » !؟ .

قال : « هو . . هو بعينه » .

فقال عبد الرحمن : « يا للغرابة قد اجتمع القاتلان . . ولكن سيقتل كلاهما ان شاء الله » ، قال ذلك وصرّ على أسنانه . . فنظر عامر اليه شذراً كأنه يوبخه على ذلك التصريح لأنهم محاطون بالرقباء والأعداء من كل ناحية . .

ولم يكد يقترب يزيد ورفقاؤه من الدير ، حتى وصل أتباعهم ودخلوا البستان زرافات ووحدانا ، وفيهم الراكبون على البغال والحمير ، وفيهم المشاة وهم الأكثرون . ولكنهم على أشكال شتى في ملابسهم وأزيائهم ، وفيهم أصحاب الملابس القصيرة والطويلة على اختلاف الألوان . . وبينهم حملة الحراب والنبال ، بعضهم يقودون فهوداً وآخرون يسوسون قروداً وغيرهم يجرون كلاباً . وفي أيدي الكلاب أساور الذهب ، وعلى ظهورها الجلال المنسوجة بالذهب يحدق بها عبيد[1] ، يخدم كل عبد منهم كلباً . . فيقوم بكل ما تحتاج اليه من الطعام والنظافة . . وشاهدوا في جملة تلك الحاشية أناساً يحملون طيوراً جارحة كالباز والصقر والعقاب .

وانتشر هذا الجمع في البستان لأن باحة الدير لا تسعهم جميعاً ، ولا تسل عن الجلبة التي ارتفعت من اختلاط الأصوات . وفيها صهيل الخيل ، ونهيق الحمير ، وشحيج البغال ، وصياح الثعالب ، ونباح الكلاب ، وضحك القرود ، وصرصرة البزاة ، وحفيف الأجنحة . . تلك ضوضاء وصلصلة وقعقعة مما يشغل الذهن ، ويستوقف الانتباه ، ولم يدخل الدير إلا يزيد وخاصته وفيهم ابن زياد . .

١٩

ضروب الصيد

وأخذت سلمى تستفهم عن الجمع المحتشد ، وما يحملونه أو يسوقونه من أنواع الحيوان .

فابتدرها عامر قبل أن تبدأ بالسؤال ، قائلاً : « اننا يا سلمى أمام مشهد بديع يندر أن يتفق لمثلك أن تراه . ولذا فاني أقص عليك خلاصته . . اعلمي أن الخليفة خارج للصيد ، وربما أوغل في الغوطة وأقام في سفرته أسابيع عديدة ـ كما قلت لك قبلاً ـ وهو مولع بالصيد

---

(١) الآداب السلطانية.

ولعاً شغله عن مهام الخلافة . ولا يقتصر في صيده على نوع من أنواع الحيوان ، بل هو يصطاد الطيور والظباء والأرانب وحمر الوحش وغيرها . . وهذا هو السبب في كثرة هذه الحاشية ، فان منهم حفظة الفهود وقد أركبوها على الخيل . . ويزيد هذا أول مِن أركبها عليها[1] ، أما أول من اصطاد بالفهود فهو كليب بن وائل الشهير في حروب الجاهلية . وهي تصطاد له الغزلان وحمر الوحش ونحوها . . وترين في هذا الجمع عبيداً يسوسون الكلاب وعليها الألبسة الفاخرة والأساور الذهبية ، فان ليزيد ولعاً غريباً في اقتنائها وهي تصطاد الغزلان والأرانب[2] .

«وأما الطيور التي ترينها في أيدي حامليها فمنها الباز ويسمى حامله البازيار والباز كما تعلمين من الجوارح التي تفترس الطيور الضعيفة كالدراج والحبارى والورشان والعصافير[3]، فيحمل الصيادون الباز من الجبال ويعلمونه الطيران والرجوع الى مكانه. فإذا خرجوا به للصيد أطعموه قليلاً، ويقبض البازيار عليه من رجليه بعد أن يكسو كفه بقفاز من جلد. وإذا امعنت النظر في هؤلاء البازيارية، رأيت القفافيز الجلدية تكسو اكفهم. فيمشي البازيار وهو قابض على رجلي الباز. . فإذا اشتم الباز رائحة دراج او حبارى رفرف والتمس الافلات، فيفلته البازيار فيطير حتى يقع على طريدته فيقتلها، والبازيار يركض في أثره. وقد يهم الباز بأكل الطريدة، فيدركه البازيار ويستخرجها من فمه. . وقد لا يهتم بذلك.

« وهكذا يفعل العقاب ، ويقال لحامله عقاب ، وكذلك الصقر والشاهين وغيرهما من الجوارح . . ولكنها لا تصطاد الا الطيور الضعيفة كما ذكرت » .

فاعترضه عبد الرحمن قائلا : « ولكنني سمعت أن الباز قد يصطاد الغزال أيضاً » .

قال عامر : « ربما اصطاده ، ولكنه لا يستطيع ذلك وحده . فان بعض البزاة اذا أطلقها على غزال رفرفت على وجهه واعترضت مسيره ، فتعيقه عن الفرار السريع ريثما يدركه الكلب أو الفهد ويفترسه . ولا تسل عن صيد حمار الوحش ، فان الفهد يصطاده . . وقد يصطادونه بالنبال ، وحمار الوحش كثير في « جرود » وهي قرية في هذه الغوطة[4] ».

وكانت سلمى مصغية تسمع حكاية الصيد وهي تعرف شيئاً منه ، ولكنها لم تكن تعرف هذا التفنن فيه . فلما وصل عامر الى هذا الحد ، ظهر من نغمة كلامه أنه يهم باقفال

---

(١) حياة الحيوان.

(٢) مروج الذهب.

(٣) حياة الحيوان، الجزء الثاني.

(٤) مراصد الأطلاع، الجزء الأول.

الحديث . . فقالت سلمى : « ولكنني أرى جماعة من هؤلاء الغلمان يسوسون قروداً ، منها قرد عليه قباء من حرير أحمر وأصفر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بديعة ، وقد ركب على أتان وحشية عليها سرج من الحرير الأحمر منقوش بألوان جميلة[1] ، وبين يديه خادم يسوسه ويطعمه الفاكهة من يده . . فما شأن القرد » ؟ .

فضحك عامر ، وقال : « هذا هو أبو قيس . . وقد رباه يزيد وسماه بهذا الاسم » .

فاذا جلس يزيد للشراب مع منادميه وطرح له متكئاً معهم ، وهو قرد خبيث كثيراً ما يركب على هذه الأتان ويخرج لمسابقة الخيل في أيام الحلبة (السباق) . وقد يحوز قصب السبق عليها كلها » .

٢٠

الضيافة

فاشمأزت سلمى مما سمعته عن يزيد وقالت : « هل الى هذا الحد بلغت حال الخلافة . أين ذلك من عصر الخلفاء الراشدين ، وقد كانت أثوابهم من الكرباس الغليظ ، ونعالهم وحمائل سيوفهم من الليف ، يمشون في الأسواق كبعض الرعية[2] ؟ الله يا عمر يا ابن الخطاب . . الله الله يا علي بن أبي طالب ، ويا أبا بكر الصديق . أين الزهد والتقوى ؟ أين العدل والقسط ؟ أين الحزم والعزم ؟ أين العلم والفضل ؟ أواه . . وأسفاه على الاسلام والمسلمين » . .

فابتدرها عبد الرحمن للحال ، وقال : « لا تندبي يا سلمى ان وقت النجاة قريب . . ولا أظنك بعد ما سمعت ورأيت ، تترددين في أطلاق حريتي فيما عزمت عليه . . وان غداً لناظره قريب » .

فتنهدت سلمى وأطرقت ، وكأن قلبها قد دلها على خطر يهدد حبيبها ، ولكنها ظلت صامتة . . وبينما هم في ذلك اذا بنباح الكلاب قد علا في باحة الدير ، وفيه عواء شيبوب .

فتحولوا الى النافذة المطلة على تلك الباحة . . فرأوا الخليفة ورجاله جلوساً على طنافس فرشوها لهم تحت الصفصافة، وبين أيديهم مواعين الفاكهة . . والرهبان وقوف بأقداح الماء المحلى بالسكر وأنواع الأشربة الحلوة التي يستخرجها الرهبان من الثمار وفيها أصناف الخمور

---

(١) مروج الذهب، الجزء الثاني.

(٢) الفخري.

المستخرجة من العنب والتفاح والبلح . . وكل منها بلون خاص به كالأحمر والأصفر والبرتقالي وغير ذلك. وكان الرئيس جالساً باحترام بين يدي يزيد، وبيده قدح من الفضة يقدمه له ليشرب . . ولكن الصفصافة حجبت كثيراً من مشاهد تلك الجلسة، فلم يروا الجلوس إلا من خلال الأغصان . . على ان عواء الكلاب كان يصم آذانهم وقد شغلهم عن كل شاغل.

وسبب عوائها أن يزيد لما دخل باحة الدير ، تبعته كلابه وعليها الألبسة والأساور كما تقدم . وكان شيبوب وصاحبه نائمين على دكة في أحد جوانب الباحة . . فلما شعر الشيخ بمجيء يزيد ارتعدت فرائصه ولم يعد يستطيع البقاء فهرول وانزوى في زاوية من الدير ، ولم يدع شيبوباً لمرافقته . فظل الكلب متكئاً حتى دخل يزيد وانتشرت كلابه تحت الصفصافة ، واشتم شيبوب رائحتها فكان أشد نفرة ورعدة من صاحبه ، فأخذ في النباح والكلاب تحاكيه . .

فلما طال بالكلاب العواء ولم تسكت ، أمر الرئيس بعض الرهبان أن يطرد شيبوباً من ذلك المكان . . فانتهره فركض الى السلم وصعد الى السطح . وكان لعلية الرئيس كوة واطئة تشرف على السطح ، فأدخل الكلب رأسه منها فرأى سلمى ورفيقيها . . فحمحم بصوت الأستئناس ووثب الى الداخل ودنا من سلمى وقد أرخى أذنيه وهز ذيله ، فاستأنست هي به وجعلت تمسح رأسه بيدها وهو يدنو منها ويحك جنبه بثوبها . . على أنها خشيت أن تشتغل به عن مشاهدة الضيوف ، فشغلته بثمرات جافة كانت في جيبها، وكان شيبوب قد ألف أكل الفاكهة مثل صاحبه وان لم يكن ذلك من طبعه .

٢١

النظرة الأولى

عادت سلمى الى التطلع من النافذة، وأهل الباحة مشتغلون عنها بملاطفة أمير المؤمنين وإكرام وفادته، وكلابهم لا تزال تنبح بقوة الاستمرار. فلم يكن من شيبوب إلا أنه أجابها بنبحة ارتجت لها العلية، واستلفتت انتباه الجالسين تحت الصفصافة . . فالتفت بعضهم إلى جهة الصوت، وفي جملة الملتفتين عبيد الله بن زياد رفيق الخليفة وصديقه. فوقع بصره على وجه سلمى فلم يستطع سوى الإعجاب بجمالها وهيبتها، وشعر بجاذبية تجذب قلبه وتثير عواطفه نحوها.

أما هي فلحظت انتباه الناس لنباح شيبوب ، والتفات بعضهم الى العلية ، ووقوع نظر ابن زياد عليها . فهرعت الى الداخل وقد غلب عليها الحياء وتبدلت هيأتها للحال . وكان

عامر وعبد الرحمن قد شغلا عن النافذة بحديث بينهما . فلما عوى شيبوب وتحولت سلمى عن النافذة التفتا اليها فاذا وجهها قد انصبغ بحمرة الحياء وظهر عليهاالاضطراب . فابتدرها عبد الرحمن بالسؤال عما حملها على ذلك ، فأظهرت عدم الاكتراث وقالت : « ان نباح هذا الكلب قد استلفت أنظار بعض الجالسين بن يدي الخليفة فتطلعوا الى النافذة » .

فقال عبد الرحمن : « وما الذي تخافينه » ؟ .

فقطع عليه عامر الحديث قائلا : « وماذا أنبأك بخوفها ، وما هو إلا الحياء غلب عليها » ؟ .

وكان عبيد الله بن زياد قد افتتن بسلمى بمجرد تلك النظرة على غير انتظار . . ولم يبق له صبر عن رؤ يتها والبحث عن حالها ، ولكنه لم يجسر على ذلك والخليفة معه . . فعزم على ان يسرع في العودة من الصيد ، بحيلة يخترعها ليزيد ، وعند عودته يعرج على الدير وحده ويبحث عن تلك الغادة الفاتنة .

على انه لم يستطع أن يصبر عن سؤ ال الرئيس خلسة عن سكان تلك العلية ، ولا تسل عن حال الرئيس عند ذلك السؤ ال بعدما كان قد سمع من ضيفه الأبرص من خطورة أمر أولئك الضيوف ، وعلاقة ذلك بالخليفة . فلما سمع ابن زياد يسأله عنهم ، خفق قلبه خوفاً وجزعاً ولكنه تجلد وأجاب بسذاجة قائلاً : « انهم يا مولاي رجل وابنه وابنته ، وهم من أهل العراق نزلوا ضيوفاً علينا» ثم انتبه لعذر ظنه يرضي الله فقال: « ولا يخفى على مولاي أننا مكلفون بقبول ضيافتهم لأنهم مسلمون . . فأنزلناهم عندنا وقمنا بخدمتهم عملاً بعهد الخليفة عمر بن الخطاب . وهو يقضي علينا بالقيام بضيافة من ينزل علينا من المسلمين ثلاثة أيام» .

فقال عبيد الله : « حسناً فعلت » واطمأن باله عندما عرف أنهم مسلمون وترجح لديه ان تلك الحسناء عذراء . ولكي يتأكد من ذلك قال مغالطاً : « ألم تقل أن الثلاثة : رجل وامرأته وابنه . والابنة فتاة لا زوج لها » . . فإزداد اطمئنان عبيد الله ، ولكنه خشي اذا طال غيابه أن تخرج سلمى من الدير فلا يعود يظفر بها ، فقال للرئيس : وهل تظن ان اقامتهم ستطول في هذا الدير » ؟ .

قال : « لا ادري . . ولكنني أظنهم سيسافرون قريباً الى دمشق ، لأنهم جاءوا للتجارة » .

قال : « أوصيك باستبقائهم ريثما أعود » .

فقال : « سمعا وطاعة » .

وكان يزيد قد تحفز للقيام ، فبادر عبيد الله الى الغلمان فأمرهم بالتأهب للمسير . . فاصطفّ الجماعة بالترتيب الذي تعودوه في مثل ذلك الحين. فمشى يزيد وحوله شرذمة من الحشم ومعهم الحراب يحرسونه بها ريثما يمتطي جواده . وكان الخلفاء الراشدون لا يتخذون الحشم او الحراس ، وانما كانوا يسيرون منفردين كعامة الناس . واذا صلوا في الجوامع صلوا امام النا س . فلما قتل الإمام علي في المسجد بالكوفة ، رأى معاوية بعد نجاته من عواقب تلك المؤ امرة[1] **واعتلائه كرسي الخلافة** ان يبني لنفسه مقصورة في الجامع يصلي فيها منفرداً ، خوفاً مما أصاب علياً . . واذا سجد وقف على رأسه الحراس بالسيوف ، واذا مشى او جلس في مجلسه قام الحشم بين يديه بالحراب[2] . وهو أول من فعل ذلك ، ثم أصبح قاعدة مرعية لمن جاء بعده من الخلفاء وأولهم ابنه يزيد هذا .

فخرج يزيد بحاشيته من الدير والرئيس يشيعهم الى البستان ـ مع رهبانه ـ حتى ركبوا وهو يدعو لهم بالسلامة . .

أما عبيد الله ، فإنه خرج وقلبه يخفق بحب سلمى . . وهو يعد نفسه بالرجوع اليها عاجلا .

٢٢

الحب والانتقام

أما سلمى ،فانها نزلت هي ورفيقاها بعد انصراف الضيوف حتى بلغوا غرفتهم . . وعبد الرحمن ساكت لا يتكلم ، وقد ادرك عامر وسلمى ما جاش في خاطر عبد الرحمن من أمر الانتقام . فلما وصلوا الى الغرفة هموا بالجلوس ، إلا عبد الرحمن فانه ظل واقفاً والقلق ظاهر على وجهه . . فتجاهلت سلمى حاله ودعته للجلوس ، فقال : « أتدعينني للجلوس وقد أزفت الساعة التي نحن في انتظارها منذ اعوام » ؟! .

ففهمت مراده ، ولكنها تجاهلت وقالت : « وأية ساعة تعني » ؟ .

قال : « أراك تتجاهلين حين لا ينفع التجاهل . . فقد قضيَ الأمر وآن أوان الانتقام» .

فاختلج قلبها في صدرها لما تخافه عليه من الخطر الشديد بعدما شهدت من كثرة تلك الحاشية ومعهم العدة والسلاح ، وقالت : « دعنا من الانتقام يا عبد الرحمن ، فان الساعة لم تأت بعد » .

---

(١) راجع رواية ١٧ رمضان.

(٢) الفخري.

قال : « وكيف ذلك . . وهذا يزيد خارج للصيد بكلابه وفهوده وجوارحه » ؟ .

قالت : « ذلك هو الأمر الذي أخافه عليك . . بالله لا تلق بنفسك الى التهلكة ، ان المركب خشن والطريق وعر » .

قال : « لقد عزمت وعولت . . واني أتوكل على الله » ، قال ذلك وهو يبحث عن خنجره ويصلح ثيابه ويتأهب للخروج .

فأمسكت سلمى بذيل ثوبه ، وقد توردت وجنتاها وغلب عليها الحب والحياء معاً ، وقالت : « قف بالله لا تذهب . . اني خائفة عليك من هذا الأمر العظيم . انك فرد وهم جماعة » .

فقال : « دعيني . اني لا أبالي مهما يكن من كثرتهم ، وقد صممت على الانتقام وهذا وقته ، فلا تثنيني عن عزمي » .

فقالت وهي تكاد تشرق بدموعها : « لا . . لم يئن وقت الانتقام ، فلا تذهب الآن » .

قال : « اني لا أرى فرصة أثمن من هذه . . دعيني يا سلمى . . دعيني أقتل هذا الرجل وأنقذ المسلمين من خلافته ، وأنتقم لحجر بن عدي وأشفي غليلي منه » .

فقالت : « اذا لم يكن بد من الذهاب ، فدعني أذهب معك . . فإما ان نقتل معاً ، أو ننجو جميعاً » .

قال : « أليس عاراً علي أن أصطحب ملاكاً لسفك الدماء ؟ . . دعيني يا سلمى » . . وحاول التملص منها ، فاذا هي ممسكة ثوبه بيدها . فغضب وأراد أن يتخلص بالعنف ، ثم نظر الى وجهها فرأى الدموع تتساقط من عينيها . . فسكن غضبه ووقف وهو ينظر اليها بعين المحب المفتون وقال لها : « ما هذا يا سلمى ؟ ما الذي تفعلينه ؟ . . انك تضعفين عزيمتي وتحملينني على الجبن . ما الذي يدعوك الى ذلك ؟ وعهدي بك أشد حنقاً مني وأكثر رغبة في الانتقام » . .

فقالت وهي تجهش بالبكاء ، وصوتها يتلجلج : ألا تدري ما الذي يدعوني الى ذلك ؟ هو الحب يا عبد الرحمن . . ان الحب يحملني على هذا الخوف » ، ثم قالت بصوت ضعيف متقطع وهي تنظر الى الأرض : « ان الحب حلو شهي لذيذ . . . » .

فابتسم إعجاباً بقوة كلامها ، وابتدرها وهو يتجلد مخافة أن تتغلب عواطفه على ما في نفسه ، وقال : « صدقت يا حبيبتي . . ان الحب حلو . . ما أحلاه . ولكن الانتقام يا سلمى أحلى منه . . ليس في العالم ألذ من الانتقام ، ولاأحلى منه . دعيني أخرج الى هذا الرجل الذي يسمى نفسه أمير المؤمنين ، فأقتله بهذا الخنجر وأنتقم لك ولي ، وأنقذ المسلمين من خلافته . أو أموت نصرة الحق و . . » .

فقطعت كلامه ، وقالت : « لا تذكر الموت يا عبد الرحمن . . أن ذكره يؤلمني ويؤذيني ، حماك الله من شره » .

قال : « يؤلمك ذكره وقد ذاقه قبلي من هو أكرم عند الله مني . ذاقه الإمام علي ، وذاقه والدك حجر بن عدي ، وذاقه كثيرون غيرهما في سبيل نصرة الحق . . فما أنا خير منهم ، وقد آن وقت الانتقام » .

وأرادت سلمى أن تجيبه ، فوقف عامر وقد تأثر لما شهده من ذلك الجدال العنيف ، ووقع في حيرة لا يدري لمن منهما ينتصر . . ولكنه خاطب عبد الرحمن بسكينة وهدوء ، قائلا : « تمهل يا بني وارفق بنا . . واعلم انك ان أصررت على الذهاب ، فإنك سالك طريقاً وعراً لا نرضى أن تسلكه وحدك . دعني أسير معك ، لعلي أنفعك في جهادك أو أكون بين يديك، فيصيبني ما يصيبك» .

فالتفت عبد الرحمن الى عامر ، وقال : « وأنت أيضاً يا عماه تثبط عزيمتي ؟ ألم نسمع كلام الهاتف معاً ؟ . . ألم يقل الهاتف فوق قبر حجر : « وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم » ، أترى بعد ذلك مجالاً لقائل ؟ . . دعوني أنصرف إذا لم يكن اجابة لدعوة الهاتف ، فانتقاماً لحجر الراقد تحت تلك الجوزة ، المقتول ظلمًا . وان لم يكن انتقاماً له ، فانتقاماً لصهر النبي ﷺ وابن عمه ووصيه الإمام علي . وان لم يكن لهذا ولا ذاك ، فانتصاراً للحق وانقاذا للإسلام والمسلمين من سلطان شغل عن الخلافة برعاية الجوارح والكلاب والفهود والمنادمة على الشراب[1] وغير ذلك مما تعلمانه » .

فأراد عامر ان يراجعه لعله يثنيه عن عزمه شفقة على سلمى ، فقال له : « لا أنكر عليك نبل الغاية التي أنت تهدف اليها . . ولكنني أظن أن الوقت لم يحن بعد » .

٢٣

الإصرار

فمل عبد الرحمن الجدل ، فقال : « لقد ضيقتما عليّ السبل ، وأنا لا أرى وقتاً أنسب من هذا للقيام بعهدي » ثم التفت الى سلمى وقد هاجت أشجانه فوق هياج غضبه ، وكأنه تحقق عظم الخطر الذي يهدده في طريقه فقال : « ويكفيني يا سلمى أن يكون تأجيل قتل هذ الرجل باعثاً على تأجيل زواجنا ، يا منتهى أملي . ألم أجعل قتله شرطاً لإتمام زفافنا ؟ لعلك تبتغين

---

(١) مروج الذهب، الجزء الثاني.

البعد ، وأنا أسعى في القرب واشتريه بحياتي . ألم اعاهد نفسي على ذلك ؟ آه يا سلمى اني اعلم ما يهددني ، ولا أجهل خطر الطريق . . ولكنني مضطر لركوب هذا المركب ، فاتركيني وادعي لي فان دعاءك من دعاء الملائكة لأنك ملاك في صورة انسان » .

قال ذلك واختنق صوته فسكت . . وهو ينظر الى سلمى بعينين تلمعان بما غشاهما من الدمع ، وقد هاجت أشجانه وثارت عواطفه وهو يغالبهما بشهامته وبسالته . . وسلمى لا تزال ممسكة بطرف ثوبه والحب والحياء يتنازعانها ، والعرق يتصبب من جبينها . فلما سمعت كلامه أطرقت الى الأرض والدمع يقطر من محجريها وهي تحاول اخفاءه بسكوتها ، وعامر ينظر الى ذينك الحبيبين وقلبه يشاركهما عواطفهما . . ولكنه لايدري لأيهما ينتصر .

وظل الجميع ساكتين على تلك الحالة هنيهة والقلوب تتناجى وتتفاهم ، وضرباتها أصوات حية تفصح عما لا يعبر عنه بالنطق الصريح .

ظلوا صامتين . . وعبد الرحمن يغالب عواطفه ، وهو يخشى أن تتغلب عليه ، ولكنه أمسك نفسه وأعاد الكرة لاقناعهم ، فقال بصوت هادىء : « لا أجهل يا سلمى أني انطلق إلى أمر ذي خطر عظيم . . ولكنك تعلمين أننا إنما قطعنا البراري والقفار وجئنا إلى هذه الديار ،

ولا غرض لنا غير الانتقام وقد اردت المجيء وحدي ، فأبيتما إلا اللحاق بي . . وهذا ما كنت أتخوفه فلا تكوني عثرة في سبيلي وسبيل الحق . انني انما جئت الى هذه الديار لقتل هذا الرجل وليس لشيء آخر . . أم صدقتما أننا جئنا للإتجار بالتمر والجمال ؟ ما جئنا إلا للقتل ، فهل يليق بنا أن نرجع الى الوراء بعد أن أستخرنا الله وعزمنا على ذلك ؟ أليس من العار أن يكون أبن ملجم الباغي أشد ثباتاً مني ؟ . . وهو انما ارتكب بثباته قتل نفس بريئة ، وأنا أسعى في استئصال شجرة فاسدة . اني أسعى في أنقاذ الإسلام من فساد تولاه ، ولا علاج له غير القطع . . فاذا قتل يزيد عادت الخلافة الى حبيبنا سيد شباب المسلمين الإمام الحسين ابن بنت الرسول ﷺ فاتركاني أمضي لسبيلي ، فقد توكلت على الله في أمري . وما الموت الذي تخافانه على الا سنة الله في خلقه . فاذا حكم علي به ، فلي أسوة بغيري من القوم الصالحين ، وأكون قد تبطنت الثرى قرير العين ألقى وجه ربي باشاً مطمئناً، وكل ذرة من ترابي تشهد بجلال جهادي. وإذا فزت وحييت فإني أحيا سعيداً . . وسلمى زوجتي، والحسين مولاي وخليفة المسلمين. هذا هو القول الفصل. . وكفانا تردداً وجبناً».

فلم يبق ثمة مجال للدفاع، فقال عامر: «دعيه يا سلمى . . دعيه، ان الله دعاه الى عمل صالح واختاره دون سائر المسلمين . . فعسى أن يوفقنا به . دعيه والقي قياد أمرك

الى الله . . » .

فتركت سلمى ثوب عبد الرحمن ، ولكنها ظلت صامتة . فأتم عامر كلامه قائلا : « والآن اذا أنت خرجت في أثر هذا الركب ، فما الذي نفعله ، وكيف نطلع نحن على خبرك ، ألا ترى أن أسير أنا معك » ؟ .

قال : « أقسم بثرى عمي الثاوي في هذا الجوار أنه لن يذهب معي في هذه المهمة أحد . أما خبري فسأحمله اليكم بنفسي وإلا . . » وسكت . .

فعادت سلمى الى القلق ، وقالت : « وإلا ، ماذا ؟ . . قل . . » .

٢٤

الضيف الأبرص

قال عبد الرحمن : « اني ذاهب الآن في اثرهذه الحملة الى حيث ينزلون لصيدهم ، فأختبىء في بعض الأماكن حتى أنفرد بيزيد فأقتله (ان شاء الله) وامكثا أنتما هنا في انتظاري بقية هذا النهار وطول ليله ، فاذا جاء مساء الغد ولم أعد اليكما فاطلباني فاني لا ادري أين أكون . . » .

فقال عامر : « سر وتوكل على الله . . ونحن في انتظارك الى غروب الغد . فاذا غابت الشمس ولم تعد الينا . . » .

فقطع عبد الرحمن كلام عامر ، قائلا : « لا أظنني بعد مباشرة قتل الخليفة إلا مضطراً للاختفاء ، فلا أستطيع دخول هذا الدير . . » وسكت ولبث يفكر ، ثم قال : « ولكنني ارسل اليكم علامة » .

قال عامر : « ما هي علامتك ؟ . . وكيف ترسلها » ؟ .

قال : « أرمي اليكما بسهم اكتب بين ريشتيه أسم المكان الذي نلتقي فيه ، فتوافياني اليه . فاذا جاء غروب الغد ، انتظرا سهمي على سطح هذا الدير . ولن أذكر لكما بين الريشتين غير اسم المكان ، فلا خوف منه اذا وقع في ايدي الرهبان » .

فأعجب عامر بتلك الفطانة ، وقال : « انها لنعم العلامة » .

وتقلد عبد الرحمن قوساً صغيرة وأسهماً وتقلد الخنجر ، ولبس ثوباً يشبه ثياب بعض أتباع يزيد ، وتزمل برداء فوق ثوبه . وكانت سلمى في أثناء ذلك تنظر اليه وقلبها لا يطاوعها على مفارقته . فلما أتم الاستعداد وهم بوداعها ، خفق قلبها وندمت على أنها وافقت على ذهابه ، وأرادت أن تعود إلى محاولة منعه . . فلم يترك لها فرصة ، وأسرع ففتح الباب وخرج . فلم

يعد في امكانها التظاهر بشيء مخافة أن يشتبه الرهبان في أمرهم ، فتظاهرت بالسكينة وأرادت ان تتبعه بنظرها . . فاذا هو قد أدرك باب الدير وخرج منه ، فأصطحبت عامراً والتمست سطح الدير لكي تشيعه ببصرها وهو يخترق الغوطة . فصعدا السلم وهما يتظاهران بالميل الى التفرج . فلما أشرفا من السطح رأيا عبد الرحمن قد قطع البستان حتى خرج من بابه وهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ثم اوغل بين الاشجار . .

وفيما هما ينظران اليه من خلال الأشجار، رأيا رجلاً ملثمًا خرج من الدير وسار في أثره . . فلم يعرفاه ولا اشتبها فيه لخلو ذهنهما من أن رقيباً يراقبهما هناك . ولو علما من هو ذلك الملثم وما نصبه من الشراك لعبد الرحمن لتعقباه وأوديا به . . أو أرجعا عبد الرحمن عن عزمه .

وما كان ذلك الملثم إلا الضيف الأبرص الذي جاء الى الدير بالأمس ، واختبأ في أحدى الغرف كما قدمنا . وكان قد رافقهم خلسة منذ خرجا من الكوفة لغرض في نفسه ، لو أوحى به لسلمى لارتعدت فرائصها ولما صبرت الى غروب الغد تنتظر رجوع حبيبها .

وظلت سلمى واقفة تتطاول بعنقها وتحدق بعينيها بين الأشجار ، حتى غاب عبد الرحمن عن بصرها . . فلما توارى أحست كأن قلبها أنخلع من مكانه ، ولم تتماسك فانخرطت في البكاء لما غلب عليها من الخوف على حياة حبيبها ، وندمت على ان رضيت بخروجه من الدير ، ثم عادت الى غرفتها حزينة كئيبة لا تخاطب عامراً ولا تنظر اليه .

ولم يكن عامر أقل ندماً منها على ذلك ، فظل صامتاً . . ونزل في أثر سلمى والرهبان في شاغل عنهما برفع الأواني والأبسطة التي كانوا قد أعدوها للخليفة .

٢٥

البكاء

دخلت سلمى غرفتها، وقد أظلمت الدنيا في عينيها، ولم تجد متنفساً لها سوى البكاء، فأطلقت العنان لدموعها واستغرقت في النحيب. . وكأن نفسها حدثتها بما سيلقاه عبد الرحمن من الخطر العظيم، وتاقت الى الذهاب في أثره لعلها تكون له عوناً في شيء . . ولكنها لم تكن تعرف الجهة التي سار فيها هو ولا التي سار فيها موكب الخليفة، فظلت تضطرب بين اليأس والرجاء. . وعامر جالس وقلبه منقبض، وفي نفسه هواجس أمسك عن بيانها تخفيفاً لما ظهر له من خوف سلمى. ثم تجلد، وتقدم اليها يريد أن يخفف عنها أحزانها ليهدىء من روعها ويدعوها الى الاطمئنان ولكنها أبت أن تصغي اليه.

على أنها عادت الى تعليل نفسها بنيل المنى، فتصورت فوز حبيبها بقتل يزيد، وما

يترتب على فوزه من الأمر العظيم الذي تتوق اليه نفس كل مسلم من دعاة أهل البيت، فضلاً عن شفاء غليلها بالانتقام لوالدها . . فسكن روعها وخف بكاؤ ها، فاغتنم عامر تلك الفرصة وقال لها: خففي عنك يا بنيتي وتوكلي على الله، وعسى أن يسعدنا الحظ بنيل المنى. وما قتل هذا الخليفة بالأمر العسير لأنه لا يستطيع دفاعاً، وخصوصاً أن عبد الرحمن لا ينوي الاندفاع الى قتله جزافاً كما قد علمت. . ولكنه سيتوقع أنفراده ولو بعد أيام. فهل تخافين عليه منه إذا التقيا منفردين؟ ألا تظنين عبد الرحمن كفؤاً ليزيد إذا تبارزا؟. . لا تخافي ولا تجزعي».

فوقع كلام عامر من نفسها وقوع الغيث على الأرض الظمآنة ، ومسحت دموعها ونهضت تتشاغل بترتيب ما انتثر من الأثواب والآنية عندما لبس عبد الرحمن ثيابه . . ثم استلقت وقد غلب عليها التعب بعد ذلك البكاء وشعرت بالنعاس . وادرك عامر ذلك ، فتركها في الغرفة وخرج ليخلو الى نفسه .

وظلت سلمى نائمة الى العصر ، وعامر يتردد الى الغرفة يتفقدها ، فاذا رآها لا تزال نائمة عاد الى السطح او دخل الى الكنيسة او كلم بعض الرهبان في شؤون لا تهمه ولا تهمهم .

وفيما هو عائد ذات مرة ، رأى شيبوباً تحت الصفصافة . فتذكر الشيخ الناسك وما توسم فيه من الغرائب ، فخطر له ان يذهب اليه لعله يسمع كلاماً يطمئنه على عبد الرحمن ، وهو يعتقد الكرامة في مثل هؤلاء النساك . ثم خطر له أن يصطحب سلمى لتشاركه في ذلك الأطمئنان ، ففتح الغرفة فرآها استيقظت مرعوبة وقد غلب عليها الأنقباض ، فقال : « ما بالك يا بنية ؟ . . ما لي أراك منزعجة ؟ . . »

قالت والدمع ملء عينيها: « آه يا عماه كيف تسألني عن سبب انزعاجي وأنت تعلمه؟ وزد على ذلك ان الاحلام قد تراكمت علي وزادتني قلقاً».

فأظهر عامر الاستخفاف، ولم يشأ أن يسألها عن تفصيل الحلم. . ولكنه ابتدرها قائلاً: « دعينا من الاحلام والأوهام. . وهلمي بنا الى الشيخ الناسك نجلس اليه، عسانا ان نسمع منه بشارة، أني والله اعتقد الكرامة في امثاله».

فارتاحت نفس سلمى لذلك الرأي . ووقفت للحال وقد انبسط وجهها وزال عبوسه ، وقالت : « لقد رأيت الرأي الصواب يا عماه . . هيا بنا اليه ، أين هو » ؟ .

قال : « أظنه في أحد جوانب الدير . . فقد رأيت كلبه الساعة تحت الصفصافة ، فلا يبعد ان يكون هو في زاوية من زوايا الدير أو في أحدى غرفه . . » .

٢٦
الكهف

قال ذلك ، وخرجت هي في أثره . . فلما أطلا على الباحة ، رآهما الكلب فهرول الى سلمى وهو يحرك ذيله ويغمغم استئناساً بها ، وانفرد عامر للبحث عن الناسك ، ثم عاد وهو يقول : « سألت في كل أطراف الدير فلم أقف له على أثر ، وقال لي الرئيس أنه خرج منذ كان الخليفة هنا ولم يعد » .

قالت : « هل تظنه في أحد جوانب هذا البستان » ؟.

قال : « ربما كان هناك . . هلم بنا اليه » .

فمشيا حتى خرجا من باب الدير ، والزريبة الى يمينهم وفيها الماشية والدواب كما قدمنا ، فوقفا يتطلعان الى جوانب البستان . . وكان الكلب قد خرج في أثرهما ، ثم رأياه يهرول نحو اليسار وأمعن في مسيره ، فقالت سلمى : « يظهر أن شيبوباً اشتم رائحة صاحبه فأسرع يطلبه ، فلنذهب في أثره » .

وتبعاه . . فاذا هو قد انتهى الى جميزة قديمة العهد ، في أسفل ساقها كهف يشبه غرفة صغيرة ، آوى اليها الناسك . ورأياه عن بعد جالساً ويداه متقاطعتان على ركبتيه ، وقد أطرق كأنه يفكر في مشكلة يبتغي حلها . فلما وصل الكلب اليه وجعل يلحس يديه ويتحكك به تحبباً انتبه الشيخ من غفلته . . فرفع عينيه وشعر حاجبيه يغطيهما وأمسك لحيته وثناها الى فمه وأطبق شفتيه عليها . فوقعت عيناه على سلمى وعامر ، فجعل يتفرس فيهما وهما قادمان اليه يفكران فيما يبدآن به الحديث . ولم يكادا يبلغانه ، حتى سمعاه يقول بصوت جهوري اخترق نطاق قلبيهما : « أين عبد الرحمن » ؟ . .

فلما سمعت سلمى اسم حبيبها خفق قلبها وارتعدت فرائصها . . ولم يكن عامر أقل بغتة منها . وأغلق عليهما، فلم يعلما بماذا يجيبانه . .

ولم يصلا اليه حتى وقف بخفة ورشاقة كأنه شاب في عنفوان الشباب ، وصاح فيهما : « أين عبد الرحمن : . أين ذهب ؟ . . » .

فاقشعر بدن سلمى واستغربت معرفته عبد الرحمن ، وهمت بالجواب . . فارتج عليها ، فأجابه عامر قائلاً : « وأي عبد الرحمن » ؟.

قال :«أتسألني يا عامر عن عبد الرحمن وأنت كفيله ؟ . . قل أين ذهب ؟ . وقد كان معكم بالأمس . . » .

فتصور عامر نفسه بين يدي ولي من الأولياء ، فقال : « انه سار في مهمة اذا كانت فيك كرامة عرفتها من تلقاء نفسك » .

قال : « أظنه ذهب وراء يزيد بن معاوية الذي يسمونه الخليفة » .

فخاف عامر وسلمى أن يسمعه أحد وهو يقول ذلك . فالتفتا فاذا هما في معزل عن الناس ، فقال عامر : « نعم يا سيدي » . .

فضرب الناسك يداً بيد ، ونظر الى السماء وقال : « حماك الله يا عبد الرحمن من ذلك الخائن المنافق . . كيف تركتمانه يذهب تحت هذا الخطر العظيم » .

٢٧

استطلاع الغيب

فلما سمعت سلمى كلامه ، ترامت على قدميه وصاحت : « قل يا سيدي . . قل لي بالله ما هو ذلك » ؟ .

قال : « الخطر عليه من ذلك الأبرص الذي خرج في أثره » .

قال عامر : « وأي أبرص يا مولاي . . قل بالله . . قل ، أفصح ، لقد أقلقت خاطرنا » . .

فأطرق الشيخ وسكت لا يبدي حراكاً وهو يقبض على لحيته ثم يتركها ويداه ترتعشان من عظم التأثر . . ولم تعد سلمى تستطيع صبراً على سكوته فقالت : « قل بالله يا سيدي . . قل ما الذي يصيب عبد الرحمن في رحلته هذه . . ومن هو ذلك الأبرص » ؟ .

فرفع الناسك طرف ثوبه حتى غطى رأسه ، ثم قال : « ألا تعرفان ذلك الأبرص ؟ ألا تعرفان شمر بن ذي الجوشن » ؟ .

فقالا بصوت واحد : « بلى نعرفه . . وأين هو » ؟ .

قال : « انه خرج في هذا الصباح من هذا الدير ملثماً بعد خروج يزيد ، وأظنه رأى عبد الرحمن خارجاً فاقتفى أثره ليوقع به » .

فالتفتت سلمى الى عامر ، والشيخ لا يزال يغطي رأسه بثوبه ، وقالت : « تبا لذلك الخائن . . أظنه اقتفى أثرنا من الكوفة وقد علم بالغرض الذي جئنا من أجله الى الشام . . تباً لك يا شمر يا خائن » . ثم التفتت الى الشيخ وقالت : « ماذا نعمل الآن يا سيدي ؟ . . قل لي كيف نعمل ؟ . . وما الذي نخافه على عبد الرحمن ؟ . . يظهر لنا انك من الأولياء ذوي الكرامات » ، قالت ذلك وقلبها يخفق وقد اصطكت ركبتاها ، ولم تعد تستطيع الوقوف وهي

مع ذلك تحسب نفسها في حلم ، وعامر ينظر الى ذلك الناسك نظر الاستغراب لا يدري كيف يفسر فراسته . ولكنه شغل بأمر الخطر المحدق بعبد الرحمن عن البحث في تلك الفراسة ، وحمل اطلاع ذلك الناسك على سرهم محمل الكرامة . على انه أحب ان يغالطه فقال له : « أننا نراك يا سيدي تخاطبنا بالرموز والألغاز ، فما هو خبر عبد الرحمن ؟ وما الذي ذهب من أجله » ؟ .

ولم يتم عامر كلامه حتى قهقه ذلك الشيخ من تحت الغطاء ، . ثم أنقطعت القهقهة بغتة ، وقال : « هل تختبرني يا عامر وتتجاهل ؟ . . انك معذور بتجاهلك . . ولكن الأمر الذي جئتم من أجله لهذه الديار لا يخفى على هذه الأحجار ، ولا على هذه الأشجار . . وإذا لم تصدقاني أسألا الهاتف الذي كلمكم من الجوزة ، ألم يقل لكم : « وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم » .

فلا تسل عن حال عامر وسلمى عند سماعهما ذلك الكلام . . أما عامر فهم بيد الشيخ وأراد أن يقبلها وهو لا يبالي برائحة قذارتها وقذارة ذلك الثوب . فلما أحس الشيخ بيد عامر جذب نفسه وانزوى في الكهف والغطاء لا يزال على رأسه . .

فقال له عامر : « بالله أيها الشيخ الجليل ألا كشفت عن وجهك وافصحت عن نفسك » .

فزجره الشيخ وقال : تأدب يا عامر ، ولا تتطاول الى ما لا يعنيك . واعلم أني لن أخاطبك بعد الآن إلا مستتراً ، ويكفيك ما علمته من أمر ابن ذي الجوشن الأبرص[1] وما يبتغيه من إدراك عبد الرحمن .

فخافت سلمى أن يغضب الناسك منهما إذا أكثرا من السؤال فقالت : « لا تغضب يا سيدي ولا يسوءك سؤالنا وانت تعلم حالنا بعد ما ظهر من أطلاعك على امرنا . . إنا سائلوك سؤالاً واحداً لا نزيد عليه شيئاً . هل تجيبنا عليه » ؟ . .

فلم يزد على قوله : « هم هم » أي نعم . .

فقالت : « هل ترى من بأس على عبد الرحمن في رحلته هذه ، وكيف نحتال لانقاذه » ؟ . .

فوجم الشيخ وسكت برهة ، ثم قال : « ارجو ان لا يكون عليه بأس باذن الله لأنه قذف بنفسه في سبيل مصلحة المسلمين . وهذا آخر ما أقوله لكما فلا تزيدا » ، قال ذلك وهرول

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

مسرعاً والكلب يجري في أثره نحو الغوطة ، وترك سلمى وعامر على أحر من الجمر . . وقد جمد الدم في عروقهما، وهما يكادان يمسكان النفس من شدة الدهشة .

٢٨

الحيرة

فلما توارى الشيخ وكلبه عنهما ، ظلا برهة صامتين ، ثم قالت سلمى : « ما قولك يا عماه في هذا الشيخ وما سمعناه من كلامه » ؟ .

قال : « اني والله في عجب من أمره . . وقد كنا نسمع بالأولياء سمعاً ، فشاهدناهم اليوم رأي العين » .

فقالت : « اني أحسبني في منام » ، قالت ذلك وهي تفرك عينيها وتلتفت الى ما حولها ، فلم تشك في يقظتها .

وأدرك عامر دهشتها وحيرتها ، فقال : « لا تعجبي يا سلمى مما شهدت من اطلاع هذا الشيخ على الغيب مع ما يظهر لك من بلاهته ، فان الغيب قلما ينكشف لغير أمثاله ، ومن شروط الولاية الزهد والتقشف . وقد قيل في أهل الولاية أنهم جواسيس القلوب[1] فلا أرى غرابة في معرفته حقيقة حالنا . ولكن يظهر انه على رأينا فلا خوف منه على افشاء سرنا » . .

فقطعت سلمى كلامه قائلة : « ولكن من عسى أن يكون هذا الرجل » ؟ . .

فأجابها عامر : « ان أمره حيرني لان حاله ولباسه يدلان على تنسكه وانقطاعه عن الدنيا . . ولكن كلامه عن يزيد يدل على اهتمامه بأمر المسلمين : ويظهر انه عربي . . وكأن لهجته عراقية » .

فقالت سلمى : « يا ليتنا سألناه عن بلده ،وطلبنا اليه ان ينتسب » . .

فقال : « ومن يتجرأ على هذا السؤال ، وقد رأيت مبالغته في التستر حتى غطى وجهه . . ولما طال الحديث بيننا فر من أيدينا ، فلعله من بعض الذين ابتلوا بمثل بلوانا ، فلجأ الى هذا الدير للاختفاء » . .

فقالت : « لا أظنه الا مصاباً في عقله لأنه شاذ في أطواره . . ألم تسمع من رئيس الدير عن معيشته ، وكيف يقضي نهاره على الأشجار يقتات بثمارها لا أنيس له غير هذا الكلب » .

قال : « ومهما يكن من أمره ، فانه ذو كرامة وعساه ان ينفعنا بكرامته » . .

---

(١) التهانوي.

قالت : « ما العمل الآن ؟ اني لم أزدد من حديثه إلا قلقاً » . . وسكتت برهة ثم قالت : « وما رأيك في شمر اللعين » ؟ .

قال : « هذا الذي شغل بالي ، قبحه الله . لقد طالما شككت في هذا الأبرص وخشيت من غدره . . والظاهر أنه علم بسفرنا الى الشام واطلع على غرضنا ، فاقتفى أثرنا ليشي بنا . ولولا ما قاله الناسك مما يدعو الى الاطمئنان على حياة عبد الرحمن لأسرعت في البحث عنه وارجاعه عن عزمه . ولكن هبي أني لم أطمئن ، فليس لي سبيل اليه لأني لا اعرف الجهة التي ساروا فيها . وأخشى اذا انا سرت في ناحية ان نختلف في الطريق ، وتبقى أنت وحدك . .

ولعل هذا الخائن قد نصب لك أحبولة أخرى » .

قالت : « اذهب . . وانا معك أيضاً » .

قال : « وماذا نعمل وقد وعدنا عبد الرحمن أن ننتظره هنا ، وربما جاء الليلة ونحن غائبان فيرمي سهمه . . وقد يكون فيما سيكتبه عليه ما يبعث على موافاتنا آياه الى مكان ، فيقع السهم بين يدي أحد الرهبان ولا نطلع عليه . . دعينا نمكث هنا . ونكل أمره الى الله وهو كفيله » .

قال ذلك ومشيا حتى اقتربا من الدير ، وهما مبهوتان كأنهما في حلم . . فأراد عامر ان يشغل وقته في شيء يبعد الشبهة عنه ، فقال لسلمى : « تعالي معي الى الزريبة نتفقد جمالنا ، ونرى ما تم بأحمالنا» .

قالت : « دعنا من الجمال والأحمال . . فلا طاقة لي على ان افكر في شيء غير ما نحن فيه .

قال : « وهذا الذي اشعر به انا ايضاً ، ولكن لا بد لنا من الانتظار الى مساء الليلة او صباح الغد او مسائه، فكيف نقضي الوقت . . ووقت الانتظار طويل » ؟ .

فأطاعته وتحولا الى الزريبة ، فرأيا الخدم قد بذلوا العناية في خدمة الجمال ، وأما التمر فلم يجدوه . . فبغت عامر ـ لأول وهلة ـ ثم تذكر أنهم حملوه معهم الى داخل الدير . .

وقضيا هناك برهة يتشاغلان بما يسمعانه من أصوات الدواب ، وسلمى لا تنتبه لشيء مما حولها لعظم ما ثار في خاطرها من القلق على حبيبها ، بعد ما سمعته من الشيخ الناسك . . ولم يكن عامر أقل قلقاً منها ، ولكنه أراد تشجيعها وتحويل ذهنها برهة ، فلما لم ير ذلك الموقف يشغلها أطاعها في العودة الى الدير ، وسار تواً الى الغرفة ومكثا هناك برهة بين كلام وتفكير .

٢٩

الانتظار

فلما مالت الشمس الى المغيب ، تعلقت آمال سلمى بسهم عبد الرحمن ، وخيل لها من فرط قلقها أنها لا تكاد تصل الى السطح حتى ترى السهم ساقطاً أمامها . . فاستحثت عامراً على الصعود معها فأطاعها وقلبه لا يدله على خير ، فوقفا على السطح ينظران الى الأفق لا يشغلهما شاغل عن الهواجس ، وسلمى كلما لاح لها طائر ظنته سهماً من حبيبها حتى شاعت عيناها ، وعامر يلاحظ حركاتها وعواطفها ولا يبدي رأياً حتى أذنت الشمس بالزوال ولم يأت السهم ، ولم يسمع هو شيئاً يتعلق به .

وكان رئيس الدير مشغولاً في ذلك اليوم بصلوات خاصة لم يفرغ منها الا نحو الغروب ، فخرج من عليته وتمشى على السطح . . فرأى عامراً وسلمى جالسين ينظران الى الغوطة ، وقرأ القلق على وجهيهما فلم يشأ ان يزعجهما بالسؤال ، فظل بعيداً وفي نفسه أنهما أذا أحبا مجالسته دعياه اليهما ..

فغابت الشمس وهما على السطح ولم يحدث شيء ، فإزداد بهما القلق وعامر يحاول طمأنة سلمى بحديث أو رأي وهي لا تطمئن وشاع بصرها بعد الغروب نحو الغوطة في الطريق الذي سار فيه عبد الرحمن ، لعلها ترى قادماً تستأنس به فلم تر شيئاً .

وأخيراً نهض عامر وهو يقول : « ان موعدنا يا سلمى الى غروب الغد ، ومن العبث بقاؤ نا هنا الليلة . . فضلاً عن أن بقاءنا في أثناء الليل يوجب شبهة » ، قال ذلك ومشى ، فمشت هي في أثره وعيناها لا تستقران من الالتفات .

باتا تلك الليلة ، وكل منهما يفكر في عبد الرحمن . . فإذا تصورا غروب الغد وسهمه لم يأت ، تحيرا في أمرهما وخصوصاً سلمى . . فانها عزمت إذا غربت شمس الغد ولم يأتها خبر من عبد الرحمن، أن تتنكر بلباس الرجال وتذهب للتفتيش عنه . ولم يكن تصميم عامر أقل من ذلك ، ولكنه كان يخشى اذا ترك سلمى في الدير وحدها أن يكون عليها بأس . ثم صمم إذا لم يعد عبد الرحمن ان يذهب هو وسلمى معاً للبحث عنه .

وأما رئيس الدير ، فانه فطن الى بقاء عامر وسلمى على السطح بدون عبد الرحمن ، فظنه في أحد جوانب الدير ، ولم يداخله ريب في أمره . . ونهضت سلمى قبيل الفجر ، وأيقظت عامراً وحثته على الصعود الى السطح عسى ان يكون سهم عبدالرحمن، قد وقع في أثناء الليل ، فصعد ولم ير شيئاً فرجع . . فاستحثته بعد هنيهة على الصعود وهو لا يحتاج الى من يحثه . . فما ان اشرقت الشمس حتى دعاها للصعود معه وفيما هما صاعدان على السلم ،

شاهدا طائراً يحلق في الجو ولا يحرك جناحيه فتطيرا به[1] . وكانت تلك عادة العرب اذا رأوا طيراً يحلق على تلك الصورة تشاءموا منه وأدرك عامر تشاؤم سلمى ، فابتدرها قائلاً : « أراك تطيرت بمنظر هذا الطير ، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال : « من عرض له من هذه الطيرة شيء ، فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا اله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[2] . وقال ﷺ : « اذا تطيرت فلا ترجع »[3] ، فانزعي من بالك هذا الوهم ، ودعي أمرك الى الله » ، فسكتت وخاطرها لم يطمئن ، ولكنها سايرته وصعدت معه .

ولما طال انتظارهما وتعاظم بهما القلق ، تذكرا الشيخ الناسك وكانا لم يرياه منذ فر من بين ايديهما في الأمس ، ولا رأيا كلبه في الدير . .

ولم يكن أطول من ذلك النهار على سلمى ، فلما دنا الأصيل ولم يطمئن بالها أخذت تلوم نفسها وتقرع عامراً على التقاعد عن اللحاق بعبد الرحمن . . وهي الى ذلك الحين لم تذق طعاماً فخارت قواها ، ولكنها لم تشعر بالجوع لشدة القلق .

٣٠

الوقوع في الفخ

وبينما هي غارقة في بحار الهواجس ، لمحت فارساً يركض فرسه بين الأشجار بالقرب من باب البستان . . فخفق قلبها والتفتت الى عامر ، فاذا هو ينظر أيضاً الى ذلك الفارس وقد علته البغتة . ورأت رئيس الدير قد خرج من عليته مسرعاً وهو يصلح عباءته وينظر الى باب البستان ، ثم أمر القيم ان « أبعث راهباً ليفتح الباب لأني أرى عبيد الله بن زياد قادماً ، فلعله جاء لينبئنا بقدوم الخليفة » . فلما سمعت سلمى اسم ابن زياد ارتعدت فرائصها ، وتفرست في الفارس فرأته واقفاً بالباب . وهرول بعض الرهبان ففتحوا له . . وهمت بمخاطبة عامر ، فإذا هو يقول لها : « انزلي يا سلمى إلى غرفتك واستتري هناك ، وسأبقى أنا هنا لنري ما يكون من أمر هذا القادم » . فأرادت أن تستمهله . . فألح عليها بالنزول ووعدها بأنه باق في انتظار رسالة عبد الرحمن ، فنزلت مسرعة واختبأت في غرفتها وظل عامر على السطح .

---

(١) الأغاني، الجزء الثالث عشر.

(٢) المستطرف، الجزء الثاني.

(٣) العقد الفريد، الجزء الأول.

وكان الرئيس قد نزل الى الباب واستقبل ابن زياد ، ووقف معه برهة وهما يتكلمان همساً ثم صعدا الى السطح ، وقبل ان يصلا فاحت رائحة المسك ، فعلم عامر انها رائحة عبيد الله بن زياد لأنه كان مشهوراً برائحة طيبه[1] . . ولبث عامر جالساً وقد ندم على بقائه هناك . ثم ما عتم ان رأى الرئيس مقبلا نحوه وعبيد الله الى جانبه ، فوقف له وحياه . . فرد عبيد الله التحية هاشاً ، والرئيس يبتسم كأن في نفسه قولاً يريد ان يصرح به ، فتجاهل عامر وتأدب في موقفه ، فدعاه ابن زياد للجلوس ، وأمر الرئيس بطنفسة فرشت لهم على حصير فجلسوا عليها . . وعامر يعجب مما يبدو من مظاهر الترحاب . وحدثته نفسه بظنون كثيرة حتى لم يبق له صبر على استطلاع كنه ذلك ، وهو يخاف ان يكون فيما سيسمعه بأس على عبد الرحمن .

فلما استقر بهم المجلس ، جاءتهم اطباق الفاكهة وكؤوس الأشربة . . فأكلوا وشربوا ، ثم بدأ الرئيس بالكلام قائلاً : « لعل مولانا الخليفة قادم الينا فنتأهب لاستقباله » ؟ .

فضحك عبيد الله وهو يصلح حمائل سيفه ، وقال : « لا أظن مولانا يمر بكم اليوم » .

قال الرئيس : « نعم . . انه عائد الى دمشق » قال عبيد الله : « نعم . . أنه عائد الليلة » .

قال الرئيس : « وما الذي دعاه الى الرجوع من صيده عاجلا ، وقد كنت أحسبه لا يعود قبل اسبوع على الأقل » ؟ .

قال عبيد الله :«انه تشاءم من سفرته هذه . فأحب الرجوع سريعاً » . فارتاب عامر في أمر هذه العودة السريعة ، ولم يعد يصبر على الكلام وهمّ بالاستفهام ، فاذا يابن زياد يستأنف الحديث قائلا : « وقد نجا أمير المؤمنين من خطر عظيم » . فلما سمع عامر قوله توسم الوصول الى ما يتوقعه ، لكنه خشي ان يكون في ذلك الحديث ما يسيئه ، فبدت البغتة على وجهه ومدّ عنقه ليسمع بقية الكلام . فأتم عبيد الله حديثه قائلاً : « وكانت نجاته من ذلك الخطر بسرّ عجيب ، يرجع الفضل فيه الى كلبه والى رجل من خاصتنا » .

فقال الرئيس : « وكيف كان ذلك » ؟ قال : « خرجنا من عندكم بالأمس واعتزمنا ان نبيت في قرية على بضعة أميال من هذا الدير . . فجاءني في المساء رجل أعرفه من الكوفة ونبهني الى غريب متنكر ، يسعى الى الفتك بأمير المؤمنين في أثناء صيده . . فشكرت مسعاه ووعدته خيراً على جميله ، وأصبحنا وأنا أطلع الخليفة على ذلك لئلا أزعجه . . فخرجنا للصيد ، وكلما أراد الخليفة الانفراد في الغوطة لحقت به مخافة ان يكون ذلك المتنكر متربصاً في بعض الأماكن . وأوصيت جماعة من الرجال الأشداء ان يقتفوا أثرنا ، ويتأهبوا للوثوب عند

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

أول اشارة .

« وكان معنا كلب من كلاب الصيد يمتاز عن سائر الكلاب بسرعة جريه ونباهته ، وقد أحبه الخليفة حتى ألبسه الدمقس والحرير وملأ قوائمه بالأساور الذهب[1] . . وفيما نحن على إخيلنا بالقرب من غابة متكاثفة الأغصان ، نبح الكلب نباحاً شديداً وأسرع أمامنا حتى أوغل بين الأشجار وهو يبالغ في العواء ، فتعجبنا لأمره وما زلنا ندعوه الينا وهو لا يطيع حتى أشكل عليّ أمره . فتفرست في أثر الكلب ، فما شعرت إلا وقد خرج لنا شاب ملثم في يده خنجر مسلول طعن به أول قادم عليه ، ثم طعن الثاني والثالث ، واخترق الجميع وهو يلتمس الخليفة . فأمرت الرجال أن يقبضوا عليه ولا يقتلوه ، فتكاثروا عليه . . فقتل منهم خمسة ولم يبلغوا منه وطراً إلا بعد أن عثر بجذع شجرة ناتىء ، فتجمهروا عليه وأوثقوه وثاقاً شديداً وساقوه الى الخليفة ، وكنت قد سبقته اليه وأخبرته بخبره ، فأمر بارساله الى دمشق . . وعدل عن إتمام الصيد وأمر بالرجوع ، فأسرعت قبله لغرض عند عمي هذا » ، وأشار الى عامر .

٣١

كلب يزيد

فلما سمع عامر حديثه لم يبق عنده شك في ان الذي قبضوا عليه هو عبد الرحمن بعينه . ولكنه عجب للغرض الذي قال انه معه . وخاف ان يكون فيه بأس عليه ، إذ لا يبعد على الذي وشى بعبد الرحمن ان يشي بهم جميعاً ، فاسودت الدنيا في عينيه . ولكنه صمت في صبر ، وتجلد والتفت الى عبيد الله وهو يظهر الاستغراب مما اتفق للخليفة وقال : « مهما يأمر سيدي ، فاني رهن أشارته » . قال : « لا أطلب منك شيئاً يسوء ، ولكنني أحببت مصاهرتك . فهل ترضاني لك صهراً » ؟ فوقع ذلك الكلام على عامر وقوع الصاعقة وارتج عليه ، فلم يدر بماذا يجيب ، على انه لا يستطيع مجافاته لأنه في قبضة يده ، فأراد ان يحتال في جوابه . وقبل ان يبدأ الكلام ، رأى ابن زياد يقف فجأة وهو ينظر الى البستان نظرة فاحصة وقد علته البغتة . فالتفت عامر ، فاذا بالخيول تتزاحم عند باب البستان ، وعليها الفرسان وفيهم يزيد بن معاوية . ثم رأوا يزيد يترجل وحده ، ثم يسرع على قدميه نحو الدير كأنه يطارد شيئاً .

فبغت الرئيس ، وأسرع الى باحة الدير وهو يتعثر في أذياله حتى كاد يقع على السلم .

---

(١) المسعودي ، الجزء الأول.

فرأى كلباً من كلاب الخليفة يدخل الباب.وعليه الأطالس والأساور كما وصفه ابن زياد . فلما رآه الكلب مهرولاً نحوه ، انحرف عنه الى جهة غرفة سلمى . ووصل يزيد في أثناء ذلك وهو يشتد في أثر الكلب لأنه افتقده وهو يقرب من الدير فلم يجده، فعلم انه دخل الدير. فجاء للقبض عليه بنفسه لأنه كان يحبه . . وخصوصاً بعد أن بدا ما بدا من نباهته في ذلك اليوم .

وكانت سلمى متكئة على عباءة في غرفتها ، وباب الغرفة نصف مفتوح وجهها مكشوف ، وقد استلقت على جنبها وسندت رأسها بكفها وفي يدها الأخرى منديل تمسح به دموعها . . وهي غارقة في ظلمات الخيال تفكر في حبيبها وما هو فيه من الخطر الشديد ، وقد طال غيابه ولا تزال متطيرة مما شاهدته في ذلك الصباح ، فغلب عليها البكاء وأطلقت لعواطفها العنان حتى أحمرت عيناها وتكسرت أهدابها وتوردت وجنتاها . وكان شعرها محلولاً فاسترسل بعضه على جبينها وتدلى البعض الآخر حتى غطى معصمها ، وانحسر كمها عن زندها فانكشف معظمه وعليه الوشم كدبيب النمل . ولما أطمأنت الى الخلوة ، تصورت حبيبها ساعة خروجه من الغرفة في صباح الأمس فهاجت عواطفها وأبرقت عيناها فزادهما لمعاناً وأزدادت هيبة وجمالاً .

وبينما هي على تلك الحال ، سمعت وسوسة الأساور في قوائم الكلب ، ثم رأته داخلا غرفتها فتذكرت يزيد . . فأجفلت وتشاءمت وهمت بالقعود ، واذا بيزيد يدخل في أثره ويناديه . فسمعت صوت يزيد قبل ان تراه ، فارتعدت فرائصها ومدت يدها الى النقاب لتستر رأسها به ، فلم تدركه فأرسلت شعرها على وجهها وقبل ان تستتر أطل يزيد ورآها ، فانذهل لجمالها ووقف مبهوتاً لا يدري ماذا يقول ، وقد نسي الكلب وأساوره .

اما هي فقد سترت وجهها بكمها ، وغلب عليها الحياء والوجل ، وظلت جالسة لا تدري كيف تحتجب ، وسيطرت عليها الدهشة فزادتها رونقاً ومهابة ، فولت وجهها عرض الحائط وظهرها نحو يزيد . فغمرت يزيد موجة من الأعجاب بجمالها وهيبتها ، فلم يستطع سوى الأنعطاف اليها ، فقال لها بنغمة المحب المفتون : « لا تحجبي شمس وجهك عن خلق الله يا أجمل خلق الله » .

٣٢

خاطب آخر

فظلت هي صامتة ، وقد جمد الدم في عروقها من شدة الخجل ، فتحول يزيد من الغرفة وقد وقعت سلمى من نفسه موقعاً عظيماً . وكان عبيد الله بن زياد قد نزل الى الباحة والرئيس معه ، فرأى يزيد خارجاً من غرفة سلمى وإمارات الإعجاب بادية في عينيه فشعر بغيرة

شديدة ، وغلب عليه الحسد لعلمه ان الخليفة اذا رآها وأعجبته لا يبقى لعبيد الله سبيل اليها . فتجاهل عما ثار في خاطره ، وخاطب الخليفة على سبيل المزاح قائلا : « أرى أمير المؤمنين مشغولاً بكلبه بعد الطريدة التي اصطادها له في هذا الصباح » . فقال يزيد وهو يحاول الابتسام : « لكنه أصطاد لنا طريدة أخرى أجمل من تلك ، فتضاعف فضله علينا » . فأدرك ابن زياد ما دعاه إلى إعجابه بسلمى ، فازدادت غيرته ولكنه أضطر الى الكتمان وندم على إمتداح نباهة الكلب ولعن الساعة التي جاء فيها الى ذلك الدير . ولكنه عمد الى المغالطة ، ونادى أحد الخدم فسلم اليه الكلب ، واستشار الخليفة فيما يراه من البقاء أو الرحيل . . فأشار بالرحيل ، والرئيس يرحب به ويستأذنه في الاستراحة بقية ذلك اليوم هناك . فأجابه أنه في حال تدعو الى سرعة الانطلاق ، ولكنه طلب الخلوة به ، فتبعه الرئيس على انفراد . . وظل ابن زياد واقفاً وعيناه تتبعان يزيد حتى توارى مع الرئيس وراء الصفصافة . فلما خلا يزيد بالرئيس سأله عن تلك الفتاة ، فأخبره أنها ابنة تاجر قدم من العراق منذ بضعة أيام . فقال يزيد : « هل هي عذراء » ؟ .

قال : « أظنها كذلك يا مولاي » . قال : « حسناً » ، ولم يزد .

فأمر يزيد فركبت حاشيته ، وركب هو وابن زياد معه ، وودعوا الرئيس وخرجوا وعامر لا يزال على السطح يختلس النظر الى حركات يزيد ، وقد رآه وراء الصفصافة مع الرئيس .

فلما مضى يزيد ورجاله، صعد الرئيس إلى السطح ووجهه يبرق سروراً. وفي وجهه ابتسامة دلت عامراً على شيء في نفس الرئيس، فتقدم اليه وملامح الاستفهام بادية على وجهه. وقبل أن يهم بالكلام، ابتدره الرئيس قائلاً: « أني أبشرك بالسعادة يا بني» . .

قال عامر : « بماذا . ؟ . . وكيف » ؟ قال : « لأني رأيت أمير المؤمنين معجباً بابنتك » .

فشق ذلك على عامر ، وقال وهو يتظاهر بالسذاجة : « وماذا وراء ذلك من علامات البشرى » ؟ قال : « قد لحظت من كلامه أنه يريد ان يسعدك بالمصاهرة » .

فوقع ذكل الكلام على عامر وقوع البلاء العظيم ، ولم يفه بكلمة . وتراكمت عليه الهواجس ، فلم يعد يدري فيم يفكر ! . . أفي عبد الرحمن وقد وقع في الأسر ، أم في سلمى وهي اذا علمت بما أصاب حبيبها يئست من الحياة ـ ولن يزيدها خبر المصاهرة الا قنوطاً ـ فلم يعد يعرف كيف يتخطى درجات السلم لشدة كدره . . أما سلمى ، فحين خرج يزيد من غرفتها ، أسرعت الى الباب فأغلقته ووقفت مبهوتة وهي تردد ما سمعته ، وأدركت ما جال في خاطره عنها . . فوقفت في حيرة لا تدري ماذا تفعل ، ثم عاد خيال عبد الرحمن الى ذهنها . . فشغلت به عن كل هاجس ، وودت لو لقيت عامراً لتستطلع ما علمه عن عبد الرحمن ،

وحدثتها نفسها ان تخرج في طلبه على السطح ، ولكنها خافت ان يكون يزيد هناك فأحجمت . .

٣٣
موقف رهيب

وبينما هي تفكر في ذلك ، واذا بعامر قد فتح الباب ودخل . . فرآها على تلك الحال من القلق . وقد أثر البكاء في عينيها والبغتة لا تزال مرسومة على محياها ، فلم يدر كيف يخاطبها ولا عن أي شيء ، وهي أولى بسؤ اله عما جاء به من الخبر المحزن عن عبد الرحمن . . فوقف لحظة لا يتكلم . وفطنت هي الى ما يبدو عليه من الكدر ، فقالت : « ما وراءك يا عماه » ؟ .

قال : « ما ورائي إلا الخير ان شاء الله » . قالت : « هل جاءت رسالة عن عبد الرحمن ؟ هل وصل اليك سهمه » ؟ قال : « نعم . . ولكنه وقع في قلبي » .

فلحظت أنه سمع شيئاً يسوءها ، فقالت : « ما الخبر ؟ أين عبد الرحمن ؟ ماذا جرى له » ؟ .

قال وهو يتلجلج في كلامه : « لم يجر له شيء . . ولكن » . . قالت : « ولكن ماذا ؟ . . هل قتلوه » ؟ قالت ذلك وقد اختنق صوتها وسبقتها العبرات . قال : « لا . . لم تصل يدهم الى ذلك ، ولكنهم أسروه » . فلطمت خدها حتى كادت تقع أقراطها ، وقالت : « من أسره ؟ وكيف » ؟ فجعل يخفف عنها ، وهو يقص عليها حديث ابن زياد ، ولم يذكر لها شيئاً من أمر المصاهرة . فلما فرغ عامر من كلامه ، عادت سلمى الى البكاء ، وهي تقول : « قبحهم الله . انهم قبضوا عليه . أرأيت تطيري في هذا الصباح وأنت لا تزال تغالطني ؟ هذا هو الذي خفته عليه . . فما العمل الآن » ؟ .

فلبث عامر صامتاً ، وقد استغرق في الأفكار . . وظهر استغراقه من تقطب حاجبيه وثبوت نظره . فابتدرته قائلة : « قل يا عماه . قل ما الرأي » ؟ قال وهو يفرك لحيته بسبابته ، كأنه يهيىء عبارة يخفف بها عنها : « لا تتعجلي يا سلمى . . تمهلي واستعيني بالله . . ولننظر في الأمر على مهل » . قالت : « كيف أتمهل وقد أسروا عبد الرحمن ، ولا أدري ما الذي يحدث له هناك » ، قالت ذلك وأجهشت بالبكاء .

فتحير عامر في امره ، وقد استولى عليه الخوف لما سمعه من حديث ابن زياد وطلبه سلمى . وحدثته نفسه ان يطلعها على ذلك ، ولكنه خاف ان يزداد قلقها ، فقال : « لا يفيد التسرع ونحن الآن حوالي الغروب . . والليل أعمى لا نستطيع فيه شيئاً ، فلا بد من الانتظار

الى الغد . وان غداً لناظره قريب » . قالت : « انني أخاف هذا الليل . . انني أخاف أن يصاب عبد الرحمن ببلاء عاجل ، فلا يمهلوننا لتدبير الحيلة ، والعياذ بالله » . .

قال : « لا أظنهم يسرعون في أذاه ، ولا بد من أن يمهلوه حيناً ليتفهموا حاله وليكشفوا عن سبب تعمده قتل الخليفة ، وأرى أن أنزل غداً بأحمال التمر الى دمشق أحتال بها على تسقط الخبر ، ثم اعود اليك ونرى ما يكون » . قالت : « لا بد من الأنتظار أذن . فلنصبرن ، آن الله مع الصابرين » .

٣٤
سلمى وشمر

وقضيا تلك الليلة على مثل الجمر ، وسلمى لم تذق نوماً ، وعامر يدبر الحيلة للوقوف على خبر عبد الرحمن . فلما أصبحا ، هيأ عامر جماله ، وتزيا بزي التجار ، وركب يلتمس دمشق . وسلمى تدعو له بالتوفيق وقلبها يخفق خوفاً على عامر أيضاً لئلا يكون شمر قد دبر له مكيدة . ولما توارى عن نظرها ، عادت الى غرفتها وأغلقت الباب وراءها . ولما خلت بنفسها ، تذكرت حبيبها وما هو فيه من الخطر الشديد ، فهاجت أشجانها . . فاستغرقت في البكاء . وفيما هي في ذلك ، سمعت وقع أقدام خارج غرفتها وصوتاً يشبه صوت الرئيس . . ولم تكد تصيخ بسمعها حتى سمعت قرع الباب ، فأجابه قلبها بدقات متوالية ووقفت بلا انتباه ويدها اليسرى على خمارها تتأهب لارساله على رأسها اذا رأت رجلاً غريباً . .

ولا تسل عن اضطرابها ووجلها حين فتحت الباب فرأت الرئيس وشمر بن ذي الجوشن معه ، وقد تزيا بأفخر لباس وتطيب بأحسن الطيب ، وأصلح نفسه كأنه يستعد للقاء عروسه . فلما رأت برصه ارتعدت فرائصها ، وحدثتها نفسها ان تبتدره باللعن والتوبيخ ، ولكنها خافت الفضيحة وهي منفردة هناك . فتجلدت برغم انها تضطرب . أما الرئيس فلما رأى سلمى وحدها ، قال لها : « أين والدك » ؟ قالت : « أظنه ذهب بأحمال التمر الى دمشق في هذا الصباح ، وما الذي تريده منه » ؟ قال : « ان مولانا الخليفة بعث اليه بهذا الأمير للحديث معه في شأن » .

فلما سمعت اسم الخليفة ورسالته خافت مما وراء تلك الرسالة ، ولكنها أمسكت عواطفها وأجابته بهدوء وسكينة : « ان والدي ليس هنا الآن » . قالت ذلك وهي ترجو أن ينصرف شمر بهذا الجواب . فابتسم شمر ، وهو يحاول أن يتظاهر بالرزانة والاستخفاف معاً ، وقال : « لا بأس من غيابه ، فاني مكلف بتأدية هذه الرسالة اما له واما لك » . قال

ذلك ودخل الغرفة ، فتحول الرئيس راجعاً . وأما سلمى فظلت واقفة . . وقد اصطكت ركبتاها واقشعر بدنها وخافت أن يبدو ذلك الاضطراب على وجهها ، فأسدلت عليه النقاب ، ولم تكشف عن شيء سوى عينيها . ولكن شمر قرأ في هذين العينين امارات الخوف والوجل . فلما خلا بها تظاهر باللطف ، وقال لها : « لا تخافي يا سيدتي ، ولا تظني بي سوءاً . . ولكني أرجو أن تعرفي هذا الوجه » وقبض على لحيته . فقالت : « وما الذي يترتب على معرفتي ذلك » ؟ قال : « اذا عرفته عرفت اني جاركم القديم ، وأني من أصدقاء والدك أو كفيلك عامر » ، قال ذلك وهو يحاول الابتسام . فعلمت انه يهددها بمعرفة سر وجودها هناك ، ولمست إمارات الغدر في وجهه فندمت على ارسال عامر وانفرادها . ولكنها لما تذكرت ما ارتكبه ذلك الأبرص من الوشاية بعبد الرحمن ، هان عليها كل صعب وعولت على أن تبذل غاية الجهد لتشفي غليلها منه ، فقالت : « واذا كنت ، فما الذي يهمك من أمرنا » ؟.

قال : « ما بالك تخاطبيني بجفاء يا سيدة الملاح وانما جئت لاستعطافك ، فلا تجزعي » . فأدركت ما وراء ذلك اللطف ، وسكتت وقد صعد الدم الى رأسها ، فتحول وجلها الى غضب ، وقالت : « عهدتك جئت لمخاطبة والدي . . وهو غائب ، فاذا جاء خاطبه » . قال : « وماذا يفيدني خطابه اذا لم تكوني انت راضية » ؟ قالت : « أراك تلمح بما لا يليق بك بين يدي فتاة لا تعرفك » . قال في استخفاف : « كيف تقولين أنك لا تعرفينني وأنا أعتقد غير ذلك ؟ ألا زلت مأخوذة بذلك الولد الجاهل » ؟.

٣٥

الاعراض والجفاء

فلم تعد سلمى تستطيع صبراً على تلك الوقاحة ، وأعملت فكرها فيما تستطيعه حينئذٍ . . فرأت نفسها ضعيفة منفردة غريبة والخليفة وأعوانه وكل أهل الشام ضدها ، وحياتها أو موتها بين شفتي ذلك الرجل . فأحست ان الجبال تراكمت فوق صدرها ، فتساقطت دموعها بالرغم منها ، فحولت وجهها لئلا يلحظ شمر ذلك فيزداد طمعه بها . أما هو ، فلما رآها تبكي استسهل رضاها . فعمد الى اللين ، فتقدم نحوها ، وقال بصوت ضعيف : « لا تبكي يا سلمى ولا تخافي . انني مع علمي بكل أسرارك وأسرار عامر وعبد الرحمن فأنا لا أضمر لك شراً ، بل أنا نصيرك وعونك حتى تخرجي من هذه الديار آمنة ، على شرط أن تجيبي سؤال قلبي وترحمي محباً قطع البراري والقفار سعياً اليك . . فارحمي قلب هذا العاشق ، وانزعي عن نفسك مجاراة الغلمان الذين يجلبون الموت الى أنفسهم بجهلهم

وغباوتهم ، كما فعل ابن عمك عبد الرحمن الذي أغواك بشقشقة لسانه حتى وقع أسيراً ، وسيق الى السجن مغلولاً . ولو أردت أن أسوقك وأسوق عامراً الى ذلك الأسر لفعلت . ولكن قلبي لم يطاوعني لأني أحبك ، واذا أطعتني ورضيت بما أطلبه منك عشت معي سعيدة آمنة لأن ما تسعون اليه انما هو أضغاث أحلام ، ونحن الآن أهل الصولة والبطش ، وخليفتنا صاحب السلطان والأعوان . فما قولك » ؟.

وكان شمر يتكلم وينظر الى وجهها من وراء النقاب ، وهي معرضة عنه ملتفتة الى الحائط . وفرائصها ترتعد وقد جمد الدمع في عينيها ، فاحتارت في أمرها وظلت صامتة . فاستبشر شمر ، وظن أن السكوت دليل الرضا ، فأعاد الكرة وقال : « اني والله ليعجبني تعقلك وسداد رأيك . فأفصحي لي عن رضاك ، وهذا يكفيني الآن » . فلم تعد سلمى تصبر عن الجواب ، فحولت وجهها اليه وقالت : « انك تطمع في شيء لن يتأتى لك أبداً فانصرف من هنا بسلام » .

فضحك وقال : « إلى أين أنصرف يا سلمى ؟ هل أنصرف الى أمير المؤمنين فأطلعه على حالك فيصيبك ما أصاب ابن عمك ؟! وأظنك لم تفهمي معنى كلامي بعد . . فأقول لك بصريح العبارة ان عبد الرحمن أصبح في قبضتنا ، ولم يبق له أمل في الحياة . فاستبقي نفسك وعامراً ، والا فان الموت أقرب اليكما من حبل الوريد » . قال ذلك والخبث يتجلى في وجهه . فابتدرته سلمى قائلة : « خسئت يا نذل الرجال . أن يدك ويد يزيد أقصر من أن تنالا شعرة من عبد الرحمن » . فضحك شمر ضحكة طويلة ، وقال : « صدقت . أننا قاصرون عنكما . كأنك لم تفهمي قولي بعد . ألم تعرفي ان عبد الرحمن أسير عندنا ؟ وقد قبضنا عليه وهو يحاول قتل أمير المؤمنين . فمن أين تأتيه الحياة بعد ؟ أقلعي عن عنادك وأطيعي ناصحاً يعرض عليك السعادة ، فاذا رفضتها أذاقك الموت الزؤام » .

قالت : « لا تحسبني أجهل ما تقول ، فقد علمت ان عبد الرحمن أسير . وانك انت وشيت به ، وانك قادر على ان تشي بي أيضاً وتميتنا معاً ، لقد فهمت كل ذلك ، فيا حبذا الموت مع عبد الرحمن ، ولا الحياة معك يا خائن . قلت لك امض واختف وافعل ما تشاء . والموت اهون من ان تخوفني به ، وهو احب الي من قربك . فاذا بعدت عن وجهي ، فلن أبالي أحييت أم مت » . فوقع ذلك التقريع موقع السهام في قلبه ، ولكنه كان شديد الولع بسلمى منذ كانت في العراق ، وهو انما لحق بهم الى الشام واوقع بعبد الرحمن طمعاً في الفوز بها ، لأنه لم يكن يجسر على طلبها وعبد الرحمن باق . فلما أوقعه في الأسر ، ظن انها تيأس من حياته وتخاف على حياتها فترضى به ، وكان يريد مخاطبة عامر بشأنها ويهدده ، فلما لم يجده هناك خاطبها ، وعجب لجسارتها وعزة نفسها ، وهان عليه ما سمعه من التوبيخ ، وعزم على

استرضائها بأية وسيلة كانت . فقال : « يا للعجب من جهالتك ، وقد كنت أحسبك عاقلة ، فاذا أنت . حمقاء مغرورة ، ولكني اعرض عليك الحياة مرة أخرى ، فاذا رفضتها كان ذلك آخر العهد بك » .

قالت : « أمض وافعل ما تشاء . . اخرج من هنا ، وقل ما تقول » . فخرج شمر والغضب ظاهر على وجهه وحركاته ، وهو يلعن سلمى ويتوعدها ، ولكن قلبه لم يطاوعه ، فصبر نفسه ريثما يرى عامراً ويسترضيه بالوعيد والتهديد عسى ان يقنعها . أما سلمى ، فأغلقت الباب وراءه وأطلقت لنفسها عنان البكاء ، وجلست تبكي حبيبها وتندب سوء حظها وتفكر في حالها وقد أيقنت بالهلاك ، حتى أذا كلت من البكاء والنحيب عادت الى رشدها واعملت فكرها ، فلم تر خيراً من ان تصبر حتى يرجع عامر فتستشيره في الخروج من هذا الدير والاختفاء في مكان آخر ريثما ينفتح باب الفرج .

٣٦

العزم على الرحيل

مضى أكثر ذلك النهار وهي بين البكاء والتأمل ، لا تفكر في طعام ولا شراب ، حتى اذا مالت الشمس الى المغيب ، سمعت خطوات مسرعة أمام باب الغرفة فخفق قلبها ، ثم رأت الباب قد فتح ودخل عامر وعلى وجهه مظاهر الدهشة، فازداد اضطرابها وقالت: « ماذا سمعت»؟ قال: « ما سمعت إلا خيراً، وأنت ما بالك في هذه الحال، هل جاءك احد بخبر جديد»؟

قالت : « كيف تسألني عن حالي وانت تعلم أن عبد الرحمن مسجون ، فهل أضحك وألعب ؟ هل علمت شيئاً من خبره ، وما سبب اضطرابك؟ قل لي حالاً . . قل » . قال : « أما عبد الرحمن ، فقد علمت انه حي في سجنه ولا خوف عليه الآن . . وأما سبب اضطرابي فاني رأيت جواداً واقفاً بباب الدير موسوماً بلفظ « عدة »[1] فعلمت انه من خيل الحكومة ،

---

(١) العقد الفريد.

وخفت أن يكون قد جاءنا احد من رجال يزيد يريد بنا سوءاً لأني أصبحت وأنا احسب أشجار هذه الغوطة كأنها جواسيس علينا». فقالت : « لقد نطقت بالصواب ، وأنا أيضاً أرى رأيك. فهل توافقني على الخروج من هذا الدير والاختفاء في مكان آخر»؟ قال: « نعم. ولكنني اخاف إذا خرجنا الساعة ان يكون صاحب ذلك الفرس يتجسس علينا. فلنصبر هنيهة » .

فتذكرت سلمى حديث شمر فقالت : « وربما كان هذا الفرس لذاك الرجل الأبرص » .

قال : « وما شأنه ، هل جاء الى هذا الدير اليوم » ؟ قالت : « نعم جاء وتطاول الى ما يقصر بنو أمية جميعهم عن نيله » . فتعجب عامر وقال : « وماذا تعنين ؟ هل رأيته وهل خاطبك » ؟ قالت : « انه جاء بعد خروجك في هذا الصباح ، وجعل يستعطفني ويسترضيني . ولما لم يسمع مني غير الاعراض خرج مغضباً وهددني بالوشاية الى خليفته ، وما زلت منذ خرج وأنا أفكر في حالنا وانفرادنا في هذه الديار بعد افتضاح أمرنا ، فلم أر خيراً من الخروج سريعاً » .

فصفق عامر يداً بيد وقال : « تبا لك يا شمر يا غادر . أظنه لا يصبر عن الوشاية بنا الى الغد . ألم يكن من الحكمة يا سلمى أن تماطليه وتدافعيه ولو بالباطل ريثما نخرج من هذا المكان ؟ وانت تعلمين ان قيادنا في يديه ، وهو يعلم بحقيقة حالنا » . فقطعت سلمى كلامه قائلة : « لا تلمني يا عماه ، فاني لم استطع صبراً عن توبيخه ورده . ولم أعد أريد الحياة بعدما أصابنا » . قالت ذلك ، ثم خنقتها العبرات فسكتت واغرورقت عيناها بالدموع .

فندم عامر على ما بدا من لومه اياها ، وقال : « اني لا ألومك يا سلمى . وربما لو كنت انا في مكانك ما قابلته بغير ذلك ، على أني لا أخفي عنك أمراً يشبه هذا وقع لي بالأمس مع ابن زياد ولم أطلعك عليه بعد » . قالت : « وما ذاك » ؟ فقص عليها خطبة ابن زياد لها ، الى ان قال : « وقد دافعته يومئذ خوفاً من غضبه . والآن لم يبق لنا الا الاستعداد ، فقد بعت الجمال والاحمال ، فخفت أمتعتنا ولم يبق لنا ما نحمله غير هذه الثياب » . قال ذلك واخذ في جمع الثياب وحزمها . ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع رئيس الدير يناديه باسمه . . فأجفل وتحول الى الباب ففتحه ، وتطلع فرأى الرئيس واقفاً تحت الصفصافة وإمارات البشر على محياه . فلما وقعت عينه على عامر أو مأ اليه باصبعه ان يأتي اليه ، ولم يكلمه .

٣٧
القول الفصل

فاستبشر عامر بوجه الرئيس وذهب عنه اضطرابه واستأذن سلمى في الخروج الى الرئيس ، وأخبرها بأنه يدعوه اليه . ثم خرج على عجل . وقبل ان يصل اليه ، تحول الرئيس

نحو السلم المؤدية الى السطح وهو يومىء اليه أن يتبعه . فسار في أثره حتى صعد الى السطح وتحولا الى غرفة الرئيس ، فاذا هناك عبيد الله بن زياد جالساً على وسادة مثناة فوق البساط . فشعر عامر بالانقباض وأوجس خيفة من قدومه ، وأيقن انه انما جاء خاطباً ، تجلد وتظاهر بالبشاشة والارتياح ، فوقف له ابن زياد ورحب به وأجلسه الى جانبه ، وجلس الرئيس على جانب البساط بقرب الباب .

فلما استقر بهم الجلوس ، قال عامر : « كيف اصبح مولانا أمير المؤمنين اليوم » ؟ قال : « أصبح في خير . وقد كلفني أن أحمل اليكم بشرى أظنها تسركم ، وان كانت في الحقيقة لا تسرني » .

فسكت عامر ، ثم أدرك ان سكوته يعد احتقاراً لانعام الخليفة ، فقال : « اننا جند أمير المؤمنين ، نأتمر بأمره » . قال : « أنت تعلم ما في نفسي من أمر ابنتك وما خاطبتك به بالأمس ، ألا تذكر ذلك » ؟ قال : « بلى يا مولاي » . قال : « وقد كان في نيتي أن أعود اليك مرة أخرى ، فسبقني أمير المؤمنين لأنه شاهد ابنتك ـ مصادفة ـ ووقعت من نفسه موقعاً حسناً ، فأحب أن يسعدك بالمصاهرة ، على ان تكون ابنتك من بعض نسائه » . فوقع ذلك الكلام في أذن عامر وقوع السهم في قلبه ، وتلعثم لسانه وظهرت الحيرة على محياه ، فظل ساكتاً .

ولم يخطر ببال ابن زياد ان عامراً يتردد في الجواب ، ولكنه حسبه قد بغت لظفره بنعمة لم يكن يتوقعها . فأعاد عبارته ونمقها ، فقال : « ولو لم يسبقني أمير المؤمنين الى ذلك ، لكنت أحسبني سعيداً بمصاهرتك . ولكن أمره فرض واجب . فأهنئك بهذه النعمة التي يغبطك عليها كثيرون لما ستناله بهذه المصاهرة من أسباب السعادة » . فلم يزد عامر بذلك الايضاح الا ارتباكاً . وحدثته نفسه ان يعتذر بخطبة سلمى لشاب آخر ، ولكنه خشي أن يسأله عن ذلك الخطيب وهو لا يستطيع ان يصرح باسمه ولا ان ينتحل اسم أحد سواه لأنه لا يعرف من يعهد اليه بسره في تلك الديار . فلم يستطع غير التظاهر بالقبول واسداء الشكر ريثما يدبر حيلة للفرار ، فقال وهو يحاول الابتسام : « اني اعد نفسي اسعد الناس بهذه المنة . لأن التقرب من أمير المؤمنين شرف وسعادة ، وما ابنتي إلا جارية من جواريه . ولكني أرغب الى مولاي ان يمهلنا يوماً أو يومين ريثما نتأهب لحمل الفتاة الى دار الخليفة ، لأنها ستتلقى الخبر بالدهشة لبعد هذه النعمة عن خاطرها . لا سيما وقد أصبحت اليوم منحرفة المزاج » . فقال ابن زياد : « لا أظن أن الخليفة إلا راضياً بما ترتاح اليه عروسه . وإذا استعجل في الأمر فانما يكون إستعجاله عن رغبة في سرعة استقدامها اليه ، فيرسل اليها من يكون في خدمتها حتى تصل الى داره في أمن وراحة » .

فسكت عامر، فحمل ابن زياد سكوته على الرضا، ثم نهض، فنهض الرئيس وعامر. فودعهما وخرج.

٣٨

انقلاب غريب

أما عامر، فأسرع الى سلمى ليرى رأيها في هذا الأمر الجديد. وكان قد نفد صبرها وهي في أنتظاره. فلما أطل عليها وشاهدت البغتة على وجهه أوجست خيفة في نفسها، وابتدرته بالسؤال، فقال لها: «هلمي بنا الى الفرار. فاني لا أرى فرجاً إلا به».

قالت: «ولماذا؟ وما الذي حدث»؟ قال: «لقد وقعنا في مشكلة أعظم مما كنا ننتظر».

قالت: «وما ذلك»؟ فقص عليها حديث ابن زياد. وكان يتكلم وهو يتوقع ان يرى الذعر قد غمرها، فاذا هي قد أبرقت أسرتها وأشرق وجهها وزال غضبها ولم تجب.

فقال: «ما رأيك يا سلمى ألا ترين أن نسرع في الفرار»؟ قالت: «ولماذا الفرار»؟.

فدهش لسؤالها، وقال: «وما هذا السؤال؟ ألا نفر من هذه الهوة»؟ قالت: «أتحسب ان الزواج بالخليفة هوة»؟ وضحكت. فازداد عجباً ولكنه حسبها تمزح، فقال لها: «صدقت ان الزواج بالخلفاء سعادة، هيا بنا نحمل امتعتنا وننصرف قبل أن تدهمنا تلك السعادة».

فقالت: «كيف نفر من سعادة يتمناها كل أنسان؟ لعلك تحسبني أمزح»؟ قال: «لا شك أنك تمزحين»! قالت: «كلا. اني أقول الجد. ومتى رأيتني أزف الى الخليفة، تحققت هزلي من جدي». فلم يصدق قولها، وفي رأيه أنها ما تزال تعبث به، فقال: «دعينا من المجون الآن، فان الوقت قصير. هلم بنا نرحل. وأرى ان يخرج كل منا على حدة وخلسة. وإذا رأينا أن حمل الأمتعة يدعو الى شبهة خرجنا بدونها».

قالت: «اذا شئت الخروج فاخرج، وأما انا فاني سأنتظر وفد الخليفة لأسير اليه».

فقال: «قلت لك دعينا من المجون يا سلمى، فليس هذا وقته». قالت والجد باد على وجهها: «قلت لك اني غير ماجنة، ولا أقول غير الجد، وأنا باقية هنا حتى يحملوني الى دار الخليفة. واذا ساءك ذلك فابق حيثما شئت». فقال وقد مل جدالها: «اذا كنت تقولين الجد، فما انا معك، وإلا فما الذي تعنينه»؟ فقالت: «كن حيث شئت، فاني اعني ما اقول». قال: «أتعنين أن تقبلي يزيد زوجاً لك»؟ قالت: «لا تقل يزيد، بل قل أمير المؤمنين».

فانذهل عامر وظن نفسه في حلم ، وكان وهو يخاطبها قد هم بجمع الأمتعة . فلما سمع كلامها ترك ما كان بيده من الثياب ووقف واسند ظهره الى الحائط ، ولبث مبهوتاً لا يبدي حراكاً وهو يعجب لما سمعه من سلمى، وقال في نفسه : « لقد صدق من قال أن النساء ضعيفات العقول ، ان هذه الفتاة نسيت ابن عمها بعد ان كانت تتفانى في حبه ، ورضيت برجل كان السبب في القبض عليه وربما يقتله . . . الله يا عبد الرحمن » ، ثم نظر الى سلمى وتأمل في حالها ، فاذا هي جالسة لا تعبأ بغضبه ، فقال لها : « يا سلمى » . قالت : نعم . قال : « هل أنت بنت حجر بن عدي » ؟ قالت : « لا أدري » . قال : « ألم نكن بالأمس نبكي والدك تحت تلك الجميزة ؟ ألم نتعاهد على الأخذ بثأره ؟ هل نسيت موقف عبد الرحمن والخنجر بيده ؟ أنسيت عبد الرحمن ابن عمك وخطيبك ؟ نسيته لأنه وقع في ضيق ويئست من حياته ، وطمعت في القرب من الخليفة ابن قاتل ابيك ؟ أعوذ بالله ، ما الذي أراه ؟ أفي حلم أنا أم في يقظة » ؟.

فقالت بصوت هادىء لا يكدره اضطراب وهي مطرقه : « لا ، بل أنت في يقظة » .

٣٩
حيرة

فلما سمع هذا الاصرار ، تصاعد الدم الى رأسه وتصور فشله مع ما بدا له من الانقلاب . . فتناثر الدمع من عينيه ، وهو يحاذر ان تلحظ سلمى ذلك فيه فتنسبه الى الضعف . فتحول وخرج من الغرفة وهو لا يدري ماذا يفعل ولا الى اين يذهب . ولم يصل الى الصفصافة حتى لقيه الرئيس . فلم ينتبه حتى خاطبه الرئيس وسأله عما كان من رأي سلمى . فلم يدر بماذا يجيبه لئلا يحس ما انتابه من غم فيستشف شيئاً من سره ، فتحير في أمره وخشي افتضاح سره ، فتجلد وحاول الابتسام غصباً ، وقال : « لا ريب أنها ترتاح الى هذه السعادة » ، قال ذلك وتظاهر بأمر طرأ على ذهنه يدعو الى سرعة الرجوع . فاستأذنه وعاد حتى أتى باب الغرفة وهو لا يلتمسه ، فأراد التحول عنه فوقعت عيناه على سلمى ، فاذا هي تمسك بشيء تريد ان تدسه في جيبها . فلما رأت عامراً بادرت الى الباب ، فأغلقته في وجهه ثم أوصدته .

فلما رأى تسترها منه الى هذا الحد ، داخله ريب في أمرها ، ولبث واقفاً بالباب وهو لا يفهم سر هذه الظواهر الغريبة . ولم تطاوعه نفسه على طرق الباب ، لكنه أحب العزلة برهة لعله اذا خلا بنفسه ينكشف له سبب من الأسباب ، فانقلب راجعاً حتى خرج من باب الدير ، وسار في البستان حتى تجاوزه وهو غارق في بحار الهواجس لا يدري الى اين تدفعه قدماه .

وما شعر إلا وهو بالقرب من الجميزة ، ولما وقع بصره على قبر حجر ، اختلج قلبه إذ تذكر ليلتهم عند ذلك القبر ، فتاقت نفسه الى البكاء فوق ترابه ، لعل هاتفاً ينبئه بحقيقة ما يضطرب حواليه من غريب الأمور ، وفيما هو يفكر في ذلك خطر بباله الشيخ الناسك ، فقال في نفسه : « يا ليتني ألقاه وأستطلعه سر هذا الأمر ، ولا شك في انه يفرج همي » ، ولم يكد يفكر في ذلك حتى رأى شيبوباً خارجاً من وراء الجميزة ، وهو يثب على جذعها كأنه يحاول الصعود ، فأراد عامر ان يناديه ، فسبقه بصره الى اعلا الجميزة فرأى شيخاً متكئاً على بعض أغصانها ، فتفرس فيه فإذا هو شيخنا الناسك فأجفل عامر وعجب لمقام ذلك الرجل هناك ، وتذكر ما ظهر منه من المعجزات السابقة ، ولكنه ارتاح لتلك المصادفة التي جعلته يلتقي به في ذلك المكان وقبل ان يهم بمخاطبته رآه يتحرك ، فانتظر ليرى ما يبدو منه فإذا به ينحدر نازلاً بسهولة ، فظل عامر واقفاً حتى وصل الناسك الى الأرض ، والكلب يحوم حوله ويثب على يديه ورجليه كأنه يرحب به . وكان الناسك ، قبل ان يصل الى الارض ، قد أرسل شعر ناصيته على جبينه وعينيه فغطى ما كان من سحنته خالياً من الشعر الا جانباً من أنفه ، وصاح قائلاً : « لقد قضي الأمر يا عامر ، ولكن لا تجزع ، فانهم لن يقتلوه على عجل » ، فارتعدت فرائص عامر واقشعر بدنه ، وهمّ بيد الشيخ ليقبلها فأمسك الشيخ يده بيده وكلاهما ترتعشان ، وقال : « تجلد يا عامر ، وكن رجلاً » . فأمسك عامر نفسه وزال اضطرابه ، وارتاحت نفسه الى مكاشفته بحال سلمى ، فقال : « اني لا أجزع على عبد الرحمن ، ولكني أخاف على سلمى » .

قال : « وما الذي يخيفك » ؟ قال : « لقد طلبها يزيد لتكون زوجاً له فقبلت بالرغم مني » . فأرخى الشيخ الناسك يده ، فأفلتت يد عامر منها ، ولبث كلاهما صامتاً برهة ، وعامر يتطلع الى ما يبدو من كرامات الشيخ وقلبه يخفق ، فاذا بالشيخ قد جلس وأسند ظهره الى الجميزة وهو يحك رأسه بأطراف أظافره كأنه يفكر في أمر ، ثم قال : « وأي بأس عليها من ذلك القبول » ؟ قال عامر : « ألا ترى بأساً عليها يا سيدي ؟ وهب انه لا بأس عليها فكيف تقبل هي هذا الأمر » ؟! فضحك الشيخ حتى بدت نواجذه ، وقال : « لا بد لها من خير ترجوه بذلك ، فلا تزجرها » . فتعجب عامر ، وقال : « هب أنها ترجو خيراً ، ولكن كيف يطاوعها قلبها على ذلك ؟ كيف تخون خطيبها وابن عمها وترضى بذلك الأموي بدلاً منه » ؟! فقال الشيخ : « تأدب يا عامر ، ان ابنة عدي لا تخون ، وهي لم تأت الى الشام وتتكبد مشاق الأسفار وتتحمل خطر هذا المقام لتخون قلبها وتغدر بابن عمها » . قال عامر : « ولكنها قد فعلت يا مولاي ، وها هي تستعد للذهاب الى يزيد » ! قال : « دعها تذهب ، وأظهر لها رضاك بذهابها ، وأنظر ما يكون منها » !.

٤٠

عود الى سلمى

فانذهل عامر ، ولم يشأ أن يلح في الاستفهام لئلا يغضب الناسك ، ولكنه شعر بصواب الرأي في مسايرتها ليستطلع ما يكنه ضميرها ، وتظاهر برغبته في الانصراف اليها ، فابتدره قائلاً : « اذهب اليها على عجل » . فنهض عامر وتحول ، وهو يتعثر بأذياله لفرط انذهاله من غريب ما مر به في ذلك اليوم ، حتى وصل إلى الغرفة . فرأى الباب لا يزال موصداً ، فطرقه وانتظر ، فلم يجبه أحد ، فعاود قرعه ، ففتحته سلمى وتحولت الى حصير جلست عليه وهي مطرقة ، فدخل عامر وأقفل الباب وراءه ، ونظر في وجه سلمى فرأى الكآبة بادية عليه وكأنها كانت تبكي ، فقال لها : « لعلك لا تزالين على عهدك يا بنية»؟ .

فأشارت برأسها وقالت : « نعم » . فقال : « لقد فكرت في أمرك بعد خروجي من عندك ، فرأيت أنك على صواب لأننا لا نستطيع الفرار الآن ، وعلينا الارصاد والعيون من كل ناحية ، هذا الى ان تقربنا من الخليفة سعادة كبرى ربما عادت علينا بالخير » . فرفعت بصرها اليه وتفرست في وجهه هنيهة ، ثم قالت : « يظهر أنك تريد الذهاب معي » . قال : « وكيف لا » ؟ قالت : « لا ، لا تذهب معي » . قال : « كيف لا أذهب معك ؟ والى أين أذهب»؟ ..

قالت : « لا أدري إلى أين تذهب ، ولكني لا أريد أن يذهب معي أحد » . قال : « كيف يا مولاتي ؟ إذا كنت تعدين زواجك بالخليفة سعادة ، فلماذا تريدين حرماني منها ؟ واذا صرت أنت زوج أمير المؤمنين ، فإني أتمنى أن تساعديني على اطلاق سراح عبد الرحمن ، لأنك ـ ولا ريب ـ ستتسلطين على قلب الخليفة . فإذا طلبت اطلاق سراح ابن عمك فلا أظنه إلا فاعلاً ما تريدين . وربما توسلنا بك الى مناصب رفيعة » ، قال ذلك وهو يرقب ما يبدو منها، وعيناه شاخصتان اليها. أما سلمى فلما سمعت كلامه شخصت ببصرها اليه ، وهي تشك في صدق مراده ، ثم قالت : « أصحيح ما تقوله يا عماه ؟ هل رأيت أن تطاوعني في الذهاب الى الخليفة ؟ أقسم بعبد الرحمن أنك تسمح لي بذلك » ! قال : « نعم يا سلمى . . انه صحيح لا ريب فيه ، وأقسم لك به » . قالت : « فأطعني إذن ، ودعني أذهب وحدي » .

قال : « ولماذا ذلك ؟ اني لأعجب من أمرك ، أكلما جاريناك في غريبة أتيتنا بغريبة أخرى ، ان السر في رفضك ذهابي معك أغرب من السر في قبولك أنت الذهاب ، ما هذا يا

سلمى »؟ قال ذلك والدهشة بادية في عينيه ، ولكنه لم يكد يتم قوله حتى رأى سمات سلمى قد تبدلت من الكآبة الى الغضب ، فتقطب حاجباها وتوقدت عيناها ، وقد زادهما الاحمرار حنقاً ، وتعاظمت هيبتها حتى لم يعد عامر يستطيع النظر اليها وخاف مما وراء ذلك . أما هي فوقفت بغتة وقوف الأسد ، وتحولت حركاتها الى الخفة والشدة كأنها من أقوى الرجال ، وقالت : « أتظنني ذاهبة للزواج بيزيد » ؟ قال : « ولماذا اذن » ؟ فمدت يدها إلى جيبها واستلت خنجراً كانت قد خبأته هناك ، وقالت : « اني ذاهبة لأقتله بهذا الخنجر » . فأجفل عامر وغلبت عليه الدهشة لما ظهر من شجاعة سلمى ، وقال : « كيف تفعلين ذلك يا سلمى ؟ كيف تطلبين مني أن أرضى معك بذلك ، ونحن لا نزال نادمين على التهور الذي ساق عبد الرحمن الى خطر القتل ، فهل تسوقين نفسك الى تهور أبلغ منه » ؟ .

٤١

استعداد للأنتقام

فقالت وقد هاجت عواطفها : « هل تعلم ان عبد الرحمن هناك تحت خطر القتل وتمنعني من الذهاب اليه؟ وتلومني على أن سعيت لألحق به ، فإذا لم ابادر اليه ، فماذا أفعل؟ أيدعوننا يزيد لأن نسير اليه ونملك رقبته بالقرب من سجينه ولا نرضى؟ نعم . ، لقد عددت عمل عبد الرحمن تهوراً لأنه لم يرج الاقتراب من يزيد وحوله الخدم والأعوان . ولكن يزيد يدعوني اليوم لأكون معه في فراشه ، وهي فرصة ينبغي ان لا أضيعها . أم تريد يا عامر أن أخاف على حياتي ، وعبد الرحمن تحت خطر القتل ، في قبضة ذلك الرجل ، إه . . دعني أذهب اليه ، فإما ان أخلص حبيبي ومنتهى أملي وأقتل يزيد وأنقذ الأسلام من شره وانتقم لوالدي ، وإما ان أموت فداء لحبيبي وينجو هو ، أو نموت جميعاً ، فلا تقف في سبيلي ، اني ذاهبة الى يزيد ، رضيت أم لم ترض ، ولولا خوفي من هذا الأعتراف لكاشفتك بغرضي من بادىء الأمر ، فلا تقف في سبيلي » ، قالت ذلك وقد تغيرت هيأتها من شدة الهياج . فلم يزدد عامر إلا استغراباً ودهشة ، وظل برهة صامتاً متحيراً ، ثم قال ، فإذا كنت ترين الموت هيناً عليك في سبيل عبد الرحمن فما الفائدة من بقائي وانما أنا عشت لاوفر لكما الراحة . فارفقي بي ودعيني أسير في خدمتكما ، فإما ان نموت جميعاً واما نحيا جميعاً ، أم تحسبينني جباناً » ؟ .

فلما سمعت قوله ، أمسكت نفسها وتجلدت وحاولت السكينة ، وقالت : « حاشا يا عماه أن أظن بك الجبن ، ولكن لا فائدة من ذهابك » . وكأنها كانت تهم بأن تقول شيئاً ، ثم

أمسكت . فأبتدرها قائلاً : « إذا لم يكن في ذهابي فائدة ، فهل الفائدة في بقائي هنا » ؟ قالت : « نعم يا سيدي أعرني سمعك ، وتبصر في قولي ، اذا ذهبت أنت معي كنا جميعاً تحت خطر الأسر والقتل . فاذا لم أفز أنا بقتل يزيد وحكم علي بالموت يحكم عليك أنت أيضاً بمثله ، فمن يسعى بعد ذلك في إنقاذ عبد الرحمن؟أما إذا كنت أنت خارجاً وقدر علي بالموت ظللت أنت مطلق السراح فتسعى في إنقاذ حبيبي عبد الرحمن؟ وإذا تمكنت من ذلك ولقيته فحيه عني وقل له : ان سلمى فضلت الموت في سبيل حبك على البقاء بعدك ، واذا بقيت انت حياً فان عظامها تتهلل في أعماق القبر » . قالت ذلك وقد خنقتها العبرات وغلب عليها الهيام ، فجلست وقد خارت قواها ووقع الخنجر من يدها فانتبهت لنفسها وعادت الى رشدها ، والتقطت الخنجر من الأرض وقربته من فمها فقبلته ، وهي تقول بصوت مختنق : « ان فيك آمالي وعليك اعتمادي . فاما أن تغمد في أحشاء يزيد أو في أحشائي . ويا حبذا إذا كان فيه نجاة مالك فؤادي » . ثم أغمدت الخنجر وأرجعته الى جيبها ، وجلست وقد تكسرت أهدابها من فرط البكاء وعيناها تتقدان شجاعة وثباتاً .

٤٢
الوصية

فلما أحس منها عامر ذلك ، تضاعف أعجابه بشهامتها . ولكنه إزداد حيرة ، ولم يعد يعلم كيف يمنعها . فأطرق وأعمل فكره ، فلم ير مندوحة عن اجابتها . ولما تصور مقدار ما يهددها من الخطر هناك ، تحقق أنها ملقية بنفسها الى التهلكة . وهو مع ذلك لا يأمل في انقاذ عبد الرحمن ، فقال لها : « وما قولك إذا حكم القضاء بقتلك وقتل عبد الرحمن ، هل من فائدة في بقائي » ؟ قالت : « أوصيك إذا حكم القضاء بذلك ، أن تقضي بقية حياتك فوق قبر والدي تبكيه عني وعن عبد الرحمن ، وإذا ملكت رشدك ، فاذهب الى الإمام الحسين سيد شباب المسلمين ، وجاهد في سبيل نصرة الحق ، لعل الله ان يأتيه بالفرج بعدنا » . فلم ير عامر بداً من السكوت بالرغم منه ، وقال : « لقد غلبتني يا سلمى بشهامتك وسددت علي السبل بحجتك . فها أنا فاعل ما تأمرين ، والله حسبي ونعم الوكيل » . فلما سمعت قوله ، قالت : « ولكن احذر يا عماه أن تبقى في هذا الدير ، لأنهم إذا عرفوا من أنا فإني لا آمن أن يبعث يزيد اليك بجند يقبضون عليك على حين غفلة » . فقال : « لقد أصبت . ولا فائدة من بقائي هنا وأنت في قصر الخليفة ، ولكنني سأتنكر وأدخل دمشق لأتنسم الأخبار . وأوصيك أن تدبري أمرك بالتأني والحيلة ، عسى أن يوفقك الله الى ما فيه الخير » . قالت :

« ليطمئن بالك ، ولا تعبأ بما تراه في الآن من علامات الحدة ، وتذكر كيف رأيتني أعالج موضوع يزيد ، ألم ترَ فيَّ دهاء » ؟.

قال : « اني والله معجب بثبات جأشك يا سلمى ، ولكنني أخاف عليك » ، قال ذلك وشرق بدموعه . قالت : « كن ثابتاً مثلي على الأقل ، وأنا فتاة ، وأنت كهل عركه الدهر ، ولا يخفى عليك اننا نهضنا لعمل كبير ، إذا فزنا به كان خيراً وسعادة لسائر المسلمين ، أفلا يليق بنا ان نعرض أنفسنا لخطر مثل هذا للفوز به » . فجثا عامر على ركبتيه ، ورفع يديه ونظر الى فوق ، وقال : « اني أستودعك اللهم وديعة أودعنيها عبدك حجر بن عدي شهيد الحق ونصير صاحب الحق ، فلا تفجعني فيها ، انك عالم ببواطن القلوب ، وعالم بما وراء حجب الغيب » . ثم نهض ونهضت سلمى ، وقد سكن روعهاهنيهة على أثر الأفضاء بما عزمت عليه ، لكن عامراً عاد الى القلق حالاً أما سلمى فإنها ارتاحت لما تم لها من الموافقة على الذهاب وحدها ، وهي تتعزى بما عولت عليه من الفناء في سبيل الحب الصادق ونصرة الحق القويم .

وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق ، وبدأ الليل يرسل النقاب . وأخذ التعب من سلمى وعامر مأخذاً عظيًما ، لما مر بهما من الأهوال في أثناء ذلك النهار ، فباتا تلك الليلة ولم يناما ، والقلق مسيطر عليهما . واستيقظ عامر قبل الفجر ، وسلمى لا تزال في الفراش ، فظنها نائمة ، فانسل حتى خرج من الغرفة وهو يريد الخلوة ليستخير ربه فيما يرجوه من ذهاب سلمى الى دار الخليفة ، أو يخشاه على عواقب تهوّرها . فصعد الى السطح ببطء وخفة لئلا يشعر به الرئيس ، حتى أطل على الغوطة وقد طارت عنها الطيور وهي بين تغريد وزقزقة ومداعبة لا يشغلها شاغل عن التمتع بما خلقت له . فاتجه فكره الى ما هو فيه ، فقال في نفسه : « هنيئاً لهذه المخلوقات ، إني لا أخالها إلا أسعد حالاً من بني الانسان ، وإذا فاخرنا بما نعتقد في أنفسنا من السلطان عليها ، وما نرجوه من ثواب أو نتوقعه من نعيم ، فالعبرة في الواقع . فهي أسعد منا حالاً ، ولا يبدو من سائر احوالها انها تهتم بحبيب او تخاف من رقيب ، وما أدرانا أنها ترجو ثواباً مثلنا » ، واعترض أوهامه ثغاء الماعز في الزريبة وخوار الثيران ، فقال : « ولا أخال هذه أتعس حالاً من أسيادها بني الأنسان ، ونحن انما نخدمها ـ بما في وسعنا ـ التماساً لسعادتنا ، والسعادة تبعد عنا لما يقف في سبيلها من عقبات الطمع والشره مما لا نعرف له حداً نقف عنده .

٤٣
فشل « شمر »

ولم تطل أحلامه في عالم الخيال لما قام في نفسه من الأهتمام الشديد بسلمى وذهابها الى

يزيد . فلما عاد الى هذه الهواجس ، أقشعر بدنه لما يخافه عليها هناك . ولكنه لا يدري ماذا يفعل وقد نفدت حيلته في استبقائها ، فلم ير غير التسليم الى العناية الالهية ، وعزّى نفسه بما سمعه تحت الجميزة من قول الهاتف : « وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم » ، فارتاح باله ، فتحول ذهنه إلى عبد الرحمن ، وخاف أن يستعجل يزيد قتله ، فيذهب سعيهم هباء منثوراً . واستغرق في هذه التخيلات حيناً ، وما انتبه حتى وقعت أشعة الشمس على عينيه وهو ينظر الى مشرقها ـ على غير انتباه ـ فخاف ان تستيقظ سلمى ولا تراه في الغرفة فتضطرب ، فمشى نحو السلم فإذا بباب علية الرئيس قد فتح ، وخرج الرئيس وقد تزمل بعباءته ، فاستقبله عامر بالتحية فردّ عليه السلام ، وقال : « أراك مبكراً على السطح » . قال : « خرجت أستنشق نسيمات السحر » .

قال : « ظننتك رأيت رسول الخليفة ، ألم تره » ؟ فاختلج قلب عامر عند سماع اسم الخليفة ، وقال : « لا ، لم أره أين هو » ؟ قال : « جاء بالأمس مساء وانتم نيام . فبات عندنا على ان يقابلك في هذا الصباح » . قال : « وأين هو ياسيدي » ؟ فنادى الرئيس احد الرهبان ، وأمره ان يدعو الرسول . ولم تمض برهة حتى رأى الرجل صاعداً ، وحين وقع نظره عليه عرف من برصه أنه شمر بن ذي الجوشن ، فاستعاذ بالله من شره وعلم انه قادم لمخاطبته بشأن سلمى لنفسه . أما شمر ، فاستقبل عامراً باسماً ، وقال له : « هل تأذن لي بخلوة قصيرة » ؟ قال : « تفضل » ، ومشى به الى جانب من جوانب السطح منفرداً ، وقبل أن يصلا الى المكان قال شمر : « أظنك أدركت سبب مجيئي يا عامر » . فرأى عامر أن يفاجئه بخبر الخليفة وخطبته سلمى لكي لا يترك له مجالاً ، فقال : « لعلك قادم من قبل الخليفة لحمل خطبته اليه » ؟ .

فلما سمع شمر ذلك بغت ، واستوقف عامراً بيده ، وقال له : « وأي خطيبة » ؟ قال : « سلمى » . قال : « هل خطبها الخليفة » ؟ قال : « هكذا يقولون ، ونحن ننتظر وفداً من عنده اليوم » . فبهت الرجل وظل صامتاً برهة ، ثم قال : « قد خرجت سلمى من يدي أذن » ؟ ! .

فخشي عامر اذا جافاه أن يشي بسلمى أو ينوي شراً ، وظن أن مجاملته تدفع ذلك الشر عنها ، فقال : « لا أدري إذا كانت خرجت او لم تخرج ، ولكني أعلم ان مولانا أمير المؤمنين بعث يخطبها لنفسه ، ومع ذلك فالمستقبل في علم الله » . قال : « وأي مستقبل ترجو ؟ هل تراوغني يا عامر ؟ ولكن ذلك كله من عناد تلك الفتاة الجاهلة . ألم تخبرك بما قابلتني به من جفاء بالأمس ؟ أظنها كانت تطمع في الخليفة » ؟ قال ذلك وضحك ضحكة مفتعلة ، ثم أستطرد :

« فلتهنأ بالخليفة هي وخطيبها الأول إذا كان لا يزال على قيد الحياة » . فارتعدت فرائص عامر ، وقال : « هل تعرف شيئاً عن عبد الرحمن ؟ وأين هو » . قال : « لا أعلم ما جرى له حتى الآن ، ولكنني أخبرك أن عناد سلمى سيجر الوبال عليها وعليه ، أتظن أن الخليفة إذا عرف علاقتها به يستبقيها أو يستبقيه ؟ فلتهنأ ابنة حجر بما سينالها نتيجة لرفض شمر » ، قال ذلك ثم مضى مسرعاً ، وهو يتعثر في أذياله لشدة سرعته حتى نزل السلم وخرج ، فركب جواده وسار ، وعامر لا يزال واقفاً ، وقد جمد الدم في عروقه ، وهو لا يدري ماذا يفعل .

٤٤

الوداع الأخير

ثم مضى عامر يريد النزول ، فاذا بفارس آقبل على الدير ودخل يطلب الرئيس ، فخاطبه حيناً ثم انطلق الرئيس الى عامر وقال له : « أبشرك بوفد قادم لحمل العروس الى عريسها ، فأخبرها لتتأهب » . فهرول عامر حتى دخل الغرفة وهو لا يدري ماذا يقول لها ، وكانت هي قد نهضت ولبست ثيابها وتأهبت للسفر . فقال لها : « ألا تزالين يا سلمى على عزمك » ؟ ، قالت : « وقد عزمت وتوكلت على الله » . قال لها : « ألا تراجعين نفسك ؟ ألا تذكرين أن في دار الخليفة أناساً يعرفون من أنت وما علاقتك بعبد الرحمن ؟ أتظنين أن الخليفة يبقي عليك إذا انكشفت له حقيقة أمرك » ؟ قالت : « ان الذي يشاهد الموت أمام عينيه ، ويسعى اليه باختباره ، لا يخشى مثل هذه العواقب ، أتظنني أجهل أن شمر اللعين يترقب فرصة للايقاع بي ، وأنه سيطلع الخليفة على سري حين يجدني في داره ، ولكن » . . .

فقطع عامر كلامها قائلاً : « وما قولك إذا كان قد عرف ذلك قبل خروجك من هذا الدير » ؟ .

قالت : « لا أبالي ، عرف أم لم يعرف ، وإذا أتيحت له فرصة فليفعل ما يشاء ، دعني الآن من بواعث التردد ، فقد عزمت وتوكلت والسلام ، فهل سمعت شيئاً عن وفد الخليفة » ؟ .

قال: « علمت الساعة أنهم قادمون، فإذا رأوني هنا ولم أذهب معهم ارتابوا في أمرنا، وأرى أن أخرج بحيلة، فإذا جاءوا فقولي لهم أني ذاهب في حاجة، وسأوافيكم الى دار الخليفة». قال ذلك وبهت، ثم التفت الى سلمى وقال: « ها أنت ذاهبة الى خطر أشد مما خفناه على عبد الرحمن يوم خروجه لقتل يزيد، فكيف أرضى بذهابك. لا، لا، لا أدعك تذهبين وحدك».

قالت : « لقد قضي الأمر يا عماه ، تعال ودّعني على عجل ، واحفظ وصيتي لك ، فاذا لقيت عبد الحمن وكنت انا قد قضيت فداء له فبلغه الوصية » ، قالت ذلك وشرقت بدموعها ، ولكنها ظلت على تجلدها وحاولت ان تكتم نوازعها وهي تتشاغل بإصلاح خمارها .

أما هو فلم يستطع التجلد فانخرط في البكاء لاعتقاده أنه لن يرى سلمى بعد ذلك الفراق ، ولكنه لم يشأ أن يزعجها فقال لها : « سيري في رعاية الله وارفقي بنفسك ، فاذا رأيت سبيلاً للنجاة غير القتل فافعلي » . قالت : « سأرى ما يكون » وأكبّت على يده لتقبّلها ، فضمها الى صدره والدموع تتناثر من عينيه بالرغم منه ، وقال : « سلمّي على عبد الرحمن ، ولا أكلفك أن تبلغيني أخباركما ، فإني سأستطلع كل شيء بنفسي وأقف على مخبآت الأحوال في حينها ، ولكنني أوصيك ان ترفقي بنفسك ما استطعت » . قالت : « لا تخف يا عماه ، وأنت تعلم أني بنت حجر ابن عدي ، وهذا يكفي » ، قالت ذلك وقد استردت قواها وكتمت عواطفها . وبينما هما في ذلك ، إذ سمعا ضجيجاً في باحة الدير،فقال عامر : « ان الوفد قد وصل وسأخرج خلسة ولا ينتبه الّي أحد ، فاعتذري عني كما أوصيتك ، أستودعك الله » ، قال ذلك وتزمّل بعباءته وخرج بخفة ، وانسلّ من مكان سري واختلط بالجمع فلم ينتبه له أحد حتى خرج من الدير وقلبه يقطر دماً . أما الوفد فكان قد وصل الى الدير ، وفي مقدمته عبيد الله بن زياد ، وقد أعدوا هودجاً مجللاً بالأطلس . وتقدم ابن زياد تواً الى الرئيس وطلب مقابلة عامر ، فنزل الرئيس بنفسه الى غرفة سلمى فاستقبلته بجأش ثابت ، واعتذرت لغياب عامر وقالت انه سيوافيهم الى دمشق . فعاد الرئيس بالخبر فلم يعبأ ابن زياد بذلك ، ولكنه طلب ان يقابل سلمى . فأخذه الرئيس اليها فقابلته والنقاب على رأسها وأخبرته بغياب والدها ، فقال : « هل أنت مستعدة للذهاب الى الخليفة » ؟ قالت : « نعم » .

٤٥

الموكب

فخرجوا بها حتى ركبت الهودج ، ومشى الفرسان حولها بالرماح والحراب في موكب حافل حتى وصلوا الى باب المدينة ، وكانت سلمى تنظر الى تلك المدينة من خلال الأستار ، فلما أطلت على بابها أنبهرت بما رأته فيها من زحمة الناس ، وما هنالك من الأبنية الرومانية الهائلة ، وخاصة باب المدينة الكبير وأقواسه الضخمة . فدخل الموكب في القوس الوسطي ، وسار في شارع طويل تحف به الأعمدة الرخامية من الجانبين ، واسترعى انتباه سلمى ـ بنوع

خاص ـ صوت وقع حوافر الخيل على البلاط في ذلك الشارع الطويل ، على ان تلك الضوضاء لم تشغلها عن هواجسها إلا برهة يسيرة ، وبعد قليل وقف الموكب امام باب كبير جانباه من الرخام المنقوش ، وعلى عتبته العليا رسم النسر الروماني ، والباب من خشب الأبنوس مصفح بالنحاس ، وعليه نقوش جميلة ، وكان تسمع عن أمثال هذا الرسم من عمها ، وتعرف ان النسر شارة الروم ، فاستغربت إقامة الخليفة في بيت من بيوت الروم . ولم يكد الهودج يقف بها هناك ، حتى ترجل ابن زياد ودنا من الهودج ، وقال لها من وراء الستار : « أننا بباب الخليفة يا سيدتي » ، فنزلت ودخلت من الباب ، فرأت على جوانبه الحرس من جند الخليفة وفي أيديهم الحراب ، فمشت وابن زياد دليلها في باحة كبيرة مرصوفة بالفسيفساء ، تتخللها مغارس الرياحين ، واحواض الرخام تتدفق من جوانبها المياه ، فسارت في بعض طرق الحديقة وابن زياد يتقدمها وسيفه يجر وراءه ، وهو يخطر معجباً بما ملكوا مما شيد الرومان من آثار مجدهم ، ولسان حاله يقول : « أين ما تعرفينه من بساطة أبنية الكوفة وهذه الأبنية الفخمة المزخرفة » ؟.

وبعد قليل انتهت الى باب آخر أصغر من ذلك ، يصعدون اليه بدرجات قليلة من الرخام المصقول ، تكتنفه عمد من الرخام فوقها قبة مغشاة بالذهب وعليها رسوم طليت بالألوان البديعة . ورأت بينها رسوماً تشبه ما في كنائس النصارى ، فلم تعجب لذلك ، فهي تعلم ان هذا القصر لا يزال على ما كان عليه في عهد ولاة الرومان . فدخل عبيد الله أمامها تحت القبة، فتبعته فأشرفت على باحة واسعة مكشوفة مسورة بأعمدة زخرفت بالنقوش،ا بعضها موشى بالذهب وعلى دوائرها مقاصير، وأرض الباحة مرصوفة كلها بالفسيفساء الدقيقة على أشكال تشبه رسوم الشجر والحيوانات وغيرها . وفي وسط الباحة حوض (فسقية) من الرخام المجزع يتصاعد الماء من أنبوب في وسطه ، طرفه تشبه رأس الأسد ، وفي صدر الباحة باب مرتفع عليه ستار وأمامه الحجاب ، فعلمت أنه مدخل مجلس الخليفة . وتحققت من ذلك مما رأته الى يمين الباب من جماهير الناس ، وفيهم الشعراء والرواة واصحاب الحاجات ممن يقفون بباب الخليفة لقضاء حوائجهم . وكانت الباحة مكشوفة من الوسط فقط ، يكتنفها رواق قائم على أعمدة مزخرفة ، وسقف الرواق بعضه منقوش بالحفر على أشكال من الأزهار والثمار والآدميين ، والبعض مزين برسوم ملونة ومذهبة ، فبهرتها تلك المناظر لأنها لم تكن رأت مثلها من قبل . ولما أطل ابن زياد على تلك الباحة ، وسم بعض الذين كانوا هنا وهناك من الشعراء وذوي الحاجات بالقدوم اليه لمخاطبته في شؤونهم ، فلما رأوا سلمى معه تقاعسوا وانزووا وراء الأعمدة.

وعطف ابن زياد بين الأعمدة نحو اليسار ، تتبعه سلمى ، حتى وصلا الى باب بُديع النقش عليه أستار من الحرير المزركش بالذهب ، رسمت عليه رسوم في جملتها كتابة باليونانية ، فازدادت دهشتها لاستبقاء المسلمين على تلك الآثار الى ذلك الحين مع ما وصل اليه سلطانهم من السعة والسطوة . ولو علمت معنى تلك الكتابة لكان استغرابها أعظم ، لأنها كلمات تتألف منها عبارة الاستهلال في الصلاة عند النصارى ، وترجمتها : « باسم الآب والابن والروح القدس » والسبب في ذلك ان الأستار وأمثالها من مطرزات الملك كانت ـ قبل الاسلام ـ تصنع في مصر واهلها من النصارى وفيهم القبط والروم ، فكانوا يطرزونها بالرومية ، وأكثر ما يرسمون عليها تلك الآية ، وكان الروم في الشام وغيرها يبتاعون تلك الأستار ونحوها من مصر ، فيعلقونها على الابواب والنوافذ للزينة والتبرك . فلما ظهر الإسلام وفتح المسلمون مصر والشام ! ، استعاروا تلك الزينة من الروم ، ولم يلتفتوا الى فحوى ما عليها من الكتابة ، وفي جملتهم الأميون في دمشق ، وما زال ذلك دأبهم الى أيام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ الى ٨٦ هـ) وهو أول من انتبه اليه ، والى ما كان يضرب على النقود ، وما كان يطرز على القراطيس وهي البرد التي تحمل في الأواني والثياب ، وذلك أنه فيما كان ذات يوم في مجلسه ، إذ مر به قرطاس فنظر الى طرازه ، فأمر أن يترجم بالعربية فترجموه له فأنكره وقال : « ما أسوأ هذا ، وكيف أن هذه الأواني تصنع في مصر وتحمل في الآفاق » ، فأمر بالكتابة الى عبد العزيز بن مروان أخيه وعامله على مصر بابطال هذا الطراز ، وأن يأمر صناع القراطيس أن يطرزوها بصورة التوحيد « أشهد الله أنه لا اله الا هو » ففعلوا . وما زال هذا شأن الطراز منذ ذلك الحين ، وكتب الى عمال الآفاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ، ومعاقبة من وجد عنده ـ بعد هذا النهي ـ شيء منه ، بالضرب الموجع والحبس الطويل فاعترضه أمبراطور الروم يومئذ ، ودار بينهما جدال لا محل له هنا . وفعل مثل ذلك ايضاً بالدنانير[1] .

٤٦

سلمى في دار النساء

ودخلت سلمى من ذلك الباب ، بعد أن أزاحوا الستار عنه ، فانتهت الى دهليز مفروش بالبسط من الديباج وعلى جدرانه نقوش كثيرة حتى أقبلت على دار النساء ، وهي غرف

---

(١) الدميري .

تكتنف باحة فيها بركة من الرخام المجزع . فقال لها ابن زياد : « أنك في دار االنساء يا سيدتي » ، قال ذلك وارتد ، فاستقبلتها امرأة عجوز ومعها رجل عليه لباس الحجاب ، فاستغربت سلمى ذلك . فقالت لها العجوز انه « فتح » - وهو خصي مولانا أمير المؤمنين وحاجبه[1] ومشت بها العجوز حتى دخلت غرفة زينوها وفرشوها بالأبسطة والأطلس ، وفيها سرير مذهب لم تر مثله من قبل ، وما وصلت الى هناك حتى تهيبت ، وشعرت بعظم الأمر الذي عرضت نفسها له ، وأحست أنها في قفص من حديد . وتظاهرت بالتعب ، فرحبت العجوز بها وطلبت اليها ان تنزع خمارها وترتاح ، الى ان قالت : « وقد أمرني أمير المؤمنين ان ادخلك الحمام » . فرفعت سلمى الخمار عن رأسها ، فبان وجهها وتجلت محاسنها ، فانبهرت العجوز من جمالها وهيبتها ، وجعلت تمدحها وتطنب فيما شهدته من حسنها التماساً لاستئناسها ، فأجابتها سلمى بلطف ونباهة ، فازدادت إعجاباً بما حازته من اهتمام الخليفة ، وألحت عليها في دخول الحمام .

فقالت : « سأدخله بعد أن أستريح » . قالت : « لقد أعددنا لك الثياب الفاخرة ، ولا ريب عندي أنك إذا لبستها يزداد جمالك وتعلو منزلتك عند مولانا » . فشكرتها ، ولكنها استمهلتها ريثما تستريح ، وهي انما أرادت التخلص من الحمام لتخفي خنجرها في مكان أمين ، لعلمها انها اذا دخلت الحمام فستذهب العجوز معها ، فخشيت أن ترى الخنجر فيفتضح أمرها ، فاعتذرت بانحراف صحتها وانها تخشى ان يضر الحمام بها . فسايرتها العجوز ، ولكنها رجعت الى تنفيذ أمر الخليفة ، فقالت : « واذا طلب الخليفة أن يراك ، فهل تقابلينه بهذه الثياب » ؟ .

قالت : « إذا شئت ان أبدل ثيابي فعلت ، واتركي الحمام الى الغد » . فأطاعتها وأتتها بثوب من الحرير الناعم يجلله جلباب طويل وردي اللون ، فاحتالت في تبديل ثيابها من غير ان تشعر العجوز بخنجرها . واهتمت العجوز بتسريح شعرها وتجميلها فمشطتها وهيأتها ، فأصبحت سلمى بعد ان تزينت أشبه بالملائكة منها بالآدميين ، حتى ان العجوز عشقتها وتعلق قلبها بها .

٤٧

الجامع الأموي

أما سلمى ، فقد كانت في أثناء ذلك غارقة في بحار الهواجس . لا تدري فيما تفكر لكثرة

(١) كان يزيد أول من اتخذ الخصيان في الاسلام.

ما يتجاذبها من المهام ، وأهم تلك المشاغل ما آل اليه أمر حبيبها ، وهي لا تدري ما أصابه هل هو مسجون أم قتل ، أم أطلق . ورأت في تلك الحجرة نافذة بجانبها مقعد مبنى من الرخام كالدكة تعلوه وسادة كبيرة ، فجلست على الوسادة وأطلت من النافذة فأشرفت على خلاء ضيق وراء جدار عظيم يدل على فخامة ذلك البناء ، وسمعت جلبة بما يشبه التكبير ، فعلمت انها بقرب الجامع ، على أنها أرادت مخاطبة العجوز ، لعلها تستشف من الحديث خبراً عن خطيبها ، فقالت لها : « وما هذا البناء يا خالة » ؟ قالت : « هذا هو الجامع يا سيدتي » . قالت : « وهل بناه أمير المؤمنين أم أبوه » ؟ قالت : « كلا يا حبيبتي ، فانه من بناء الروم مثل هذ القصر » . قالت : « وهل كان عند الروم جوامع » ؟ قالت : « كلا ، ولكنه كان كنيسة على اسم سيدنا يحيى يصلي فيها النصارى ، وكان هذا القصر الذي نقيم فيه قصراً لأرباب الحكومة من الروم . فلما فتح المسلمون الشام اتخذوا هذا القصر داراً للامارة ، واقتسموا الكنيسة بينهم وبين النصارى فجعلوا نصفها جامعاً والنصف الآخر كنيسة » .

قالت : « وهل بين هذه الدار وبين الجامع اتصال » ؟ قالت : « نعم . ان بينهما دهليز فيه الخليفة كل صباح للصلاة ويعود منه ، وقد ذهب في هذا الصباح ولم يعد بعد » . وبينما هي تخاطبها سمعت ضوضاء تتزايد في الجامع ، فقالت سلمى : « وما سبب هذه الضوضاء » ؟ قالت : « ان المسلمين يلعنون أبا تراب » . قالت : « ومن هو أبا تراب » . قالت : « هو علي بن أبي طالب . وكلما صلوا ختموا الصلاة بلعنه »[1] . فتذكرت سلمى مصيبتها ، وعلمت ان والدها انما مات في هذا السبيل . ولم تكن سلمى تعبأ بهذه المعلومات ، لو لم تأمل ان يمتد الحديث الى خبر عبد الرحمن ، فقالت : « في الحقيقة ان هذا القصر بديع ، لأظن ان المسلمين بنوا قصراً مثله الى هذا اليوم ، ولكنني رأيت فيه الحراس وقوفاً في الأبواب ومعهم السيوف والحراب مع علمي ان الخلفاء في الحجاز والعراق لم يكونوا يتخذون الحراس » .

قالت : « صدقت يا بنية ، واول من اتخذ الحرس هو معاوية والد أمير المؤمنين بعد حادثة البرك بن عبد الله التميمي الذي كاد يقتله ، لو لم يقع السيف في قفاه وينجو بإذن الله ، فاتخذ معاوية الحراس من ذلك الحين ، وأمر باقامة حراس الليل وقيام رجال الشرطة على رأسه اذا سجد . وهو أول من فعل ذلك من الخلفاء ، وفعل يزيد أمير المؤمنين مثل ما فعل أبوه ، والسبب في كل ذلك يا حبيبتي ان قلوب المسلمين تغيرت عما كانت عليه من قبل ،

---

(١) مروج الذهب، الجزء الثالث.

وداخلها الغل فأصبح الأخ يحقد على أخيه، وغدا قتل الخلفاء سنة عند بعض الناس، حتى أن مولانا الخليفة كان مهدداً بالقتل منذ يومين. إذ كمن له رجل في مكان الصيد، ولو لم ينبهه بعض خاصته الى ذلك، لذهبت حياته ولكن الله نجاه وعادت العائدة على الباغي». فلما سمعت سلمى ذلك اختلج قلبها وارتعدت فرائصها، وخافت ان تستزيدها بياناً فتسمع خبر قتل حبيبها، ولكنها لم تصبر عن معرفة الحقيقة فقالت: «وماذا فعلوا بذلك الرجل»؟.

قالت: «قادوه مغلولاً وحبسوه، وسمعت في هذا الصباح انهم سيوقفونه بين يدي الخليفة ويسألونه عن أصله، وسبب مجيئه، وبعد ذلك يقتلونه، ألا يستحق القتل»؟ فسكتت سلمى وزاد اضطرابها، وخشيت ان تبدو مظاهر هذا الاضطراب على وجهها، فتظاهرت بصداع دهمها، وحنت رأسها على ذراعها فوق النافذة وأخفت وجهها. فقالت لها العجوز: «ما بالك يا سيدتي، لا بأس عليك»؟ قالت: «اني أشعر بصداع أليم في رأسي لا أكاد أحتمله».

فمدت العجوز يدها، واخرجت من جيبها خرزة من الجزع معلقة بخيط، وقالت لها. «خذي هذه التعويذة علقيها بين ضفائرك، فانها تشفيك باذن الله. وقد جربتها بنفسي مراراً، فكان الصداع يذهب مني حالاً». فقالت: «ولكن صداعي شديد يا خالتي». قالت: «لا بأس عليك، خذي هذه التعويذة». قالت ذلك ولم تنتظر جوابها، بل وقفت وربطت الخرزة بضفيرة من ضفائرها وهي تقول: «واذا كان لم يزل بعد، فانه يزول عن قريب بقدوم عريسك، وأظنه متى عاد من الصلاة يسأل عنك. ولا ريب عندي انك ستكونين عنده في المنزلة الأولى بين سائر نسائه». فاقشعر بدنها وتحققت قرب الساعة العظمى، وقالت في نفسها: «لقد آن الآوان فلا بد من الدهاء والحكمة، وإلا ذهب السعي سدى»، فطلبت الى الله ان يلهمها الصبر ويثبت جأشها.

٤٨
المقصورة

وفيما هي تفكر في ذلك، واذا بالغوغاء قد قامت في الدار فبغتت سلمى فقالت لها العجوز: «ان الخليفة قادم، ومن عادته اذا عاد من الصلاة ان يمر بهذا الدار قبل دخوله المجلس، ولا بد من مجيئه اليك لأنه أوصاني بالعناية بك، ولحظت انه ينتظر مجيئك بفارغ الصبر».

فاستعاذت سلمى بالله في نفسها، ولبثت صامتة وقلبها يخفق، فحملت العجوز منها

ذلك محمل الحياء ، فقالت وهي تضحك : « يا للعجب من البنات كيف يظهرن الحياء والتمنع وقلوبهن تطفح سروراً عند سماع صوت العريس . وما كل عريس مثل عريسك يا مليحة ، فانه الخليفة أمير المؤمنين القابض على رقاب المسلمين» . فظلت سلمى صامتة وهي تكظم ما في نفسها وتتجلد ، وبعد هنيهة أقبل « فتح » الخصي ، وقال : « ان الخليفة قادم يا خالة » . وما لبثت أن سمعت وقع أقدامه قرب حجرتها ، ثم سيطر عليها الاضطراب ، فأرسلت النقاب على وجهها . فابتدرتها العجوز ورفعت النقاب عنها ، وقالت : « أتحتجبين عن أمير المؤمنين وهو زوجك » ؟ وما أتمت كلامها حتى دخل يزيد وعليه رداء أزرق وعلى رأسه عمامة خضراء وبيده درة (وهي قدة من جلد سميك تشبه الكرباج) فلما أطل على الغرفة استقبلته العجوز ، فقبلت يده وأمسكت سلمى واستنهضتها لاستقبال الخليفة . فوقفت وتظاهرت بالحياء ، فناداها يزيد قائلاً : « أهلاً بعروسنا » ، ومد يده ورفع الغطاء عن وجهها وقلبه يكاد يطفح سروراً للظفر بها ، لأنه لم يشهد من قبل مثل ما في وجهها من الجمال والهيبة ، وقد زاده ذلك التمنع رغبة فيها وشوقاً اليها .

أما هي ، فتجلدت ونظرت الى يزيد كأنها تزن قواه لترى ما يكون من أمرها معه اذا همت بقتله . . فرأت ان جسمه لا يدل على بطش شديد . وكان طويل القامة ، آدم اللون ، جعد الشعر ، أحور العينين ، بوجهه آثار الجدري[1] له لحية حسناء خفيفة[2] ، فلم يهمها منظره ولكنها أحبت مطاولته ، فبالغت في أظهار التوجع من الصداع ولم تجب . فالتفت يزيد الى العجوز كأنه يستوضحها الأمر فابتدرته قائلة : « ان عروس مولانا تشكو من صداع شديد ، أظنه سيزول قريباً » .

فقال : « لا بأس عليها ، فأرى ان تنتقلي بها الى المقصورة في أعلى هذا القصر ، فتكون على مقربة من مجلسي . . فاذا اردت ان اتفقدها في أثناء النهار لم يكن الطريق بعيداً بيني وبينها ، او لتقم هناك او تنام وترتاح حتى نلتقي في المساء » . قال ذلك ومضى حتى خرج من دار النساء الى مجلسه . . أما سلمى ، فقد سرها ذلك التأجيل ريثما تدبر حيلة تتمم بها الأمر . .

وصعدت العجوز بسلمى على سلم من الرخام بجانب تلك الدار حتى اتت الطبقة العليا ، ومشت في دهليز والعجوز امامها حتى وصلت الى غرفة مفروشة بأحسن الأثاث ، وفيها الطنافس والوسائد والمقاعد ، ولها نافذة تطل على الحديقة . . فتحققت ان يزيد

---

(١) أبو الفداء، الجزء الاول.

(٢) العقد الفريد، الجزء الثاني.

سيزورها هناك ، واذا همت بقتله فانما تقتله في تلك الغرفة ، فكيف تنجو بنفسها بعد ذلك ؟ فأخذت تبحث وتفكر ، فقالت العجوز : « لعل هذه الغرفة منفردة هنا » ؟ قالت : « ليست منفردة ، ولكنها مقصورة خاصة بالخليفة يصعد اليها من باب خاص » .

قالت : « ربما ينام فيها احياناً » .

قالت العجوز : « ربما نام فيها احياناً ، ولكنه يجلس فيها لغرض سري لا أرى مانعاً من ان ابوح لك به . . ولذلك ان والده معاوية كان لفرط دهائه وعلو همته قد اتخذ هذه المقصورة مخبأ له ، يطل منه على المجلس من كوة صغيرة فيرى اهل المجلس تحته وهم لا يرونه . . فعل ذلك حتى لا تخفى عليه خافية » .

٤٩

مجلس الخليفة

فاستبشرت سلمى بتلك الكوة كي تشاهد منها ما سيدور بين الخليفة وبين عبد الرحمن اذا أحضر لاستواجبه ، فقالت : « وهل يجوز لي أن أطل من تلك الكوة لأشاهد مجلس الخليفة ، فاني لم أر مجلساً مماثلاً من قبل » . . ؟.

قالت : « ان الخليفة لا يأذن بذلك لأحد، ولكنني لا أظنه يمنعه عنك . . على أني أدلك على الكوة فتطلين منها على المجلس، وإذا جاء الخليفة لا تقولي له أنك فعلت ذلك» . .

قالت : « بورك فيك يا خالة ، أنك والله لطيفة ومحبة ، ولا غرو اذا ارتفعت منزلتك عند الخليفة » . .

فانشرح صدر العجوز من هذا الاطناب ، وزادت رغبة في خدمتها . .

فقالت لها سلمى : « وأين الباب السري الذي يخرج منه مولانا » . . ؟.

فأمسكتها بيدها وسارت بها عدة خطوات ، ثم دارت من وراء الغرفة . . فاذا هناك باب صغير فتحته ، فرأت من ورائه سلماً ضيقاً وقالت : « هذا هو الباب السري ، فاكتمي ذلك » .

قالت سلمى : « والى أين يؤدي » ؟.

قالت : « انه ينتهي الى دهليز طويل آخره في الحديقة الخارجية ، يفتح من الداخل ولا يفتح من الخارج الا بمفتاح خاص » .

فتفرست سلمى في المكان حتى تصورت المدخل والمخرج ، فعادت الى استطلاع أمر عبد الرحمن ، ولكنها تظاهرت بعدم الاهتمام في بادىء الأمر ، وعادت الى المقصورة وجلست الى

النافذة فأطلت على الحديقة والعجوز الى جانبها تسليها بالأحاديث . ثم تظاهرت سلمى بالملل وقالت : « دعينا نطل من الكوة ونرى مجلس الخليفة » .

فمشت العجوز امامها حتى خرجت من الغرفة . ثم سارت بضع خطوات على الطنافس المفروشة هناك ، فوصلت الى وسادة صغيرة أزاحتها ، فانكشف كوة صغيرة تطل على المجلس ، فاذا بالمجلس قاعة كبيرة مفروشة بالسجاد الملون ، وعلى دائرها مما يلي الجدران وسائد جلس الأمراء عليها ، بعضهم على وسائد مثناة ، وبعضهم على وسائد غير مثناة ، إلا يزيد ، فقد كان جالساً في صدر القاعة على دكة مرتفعة من خشب العرر موشى بالذهب . . وعلى رأسه اثنان بأيديهما الحراب ، والى جانبه ابن زياد على وسادة من الديباج المزركش بالذهب مثناة . وفي يد يزيد قضيب الخلافة وعلى كتفيه برد خاص بالخلفاء ، ورأت على نوافذ القاعة أستاراً من الأطلس المزركش بالكتابة اليونانية . فتأملت في ذلك المجلس ، فلم تجد فيه ما كانت تتوقعه من الهيبة والوقار ، فقد كان الحاضرون يخاطب بعضهم بعضاً بأصوات مرتفعة ، وسمعت بعضهم يقهقه ويزيد لا يعبأ بقهقهتهم ، وكان مولياً وجهه الى ابن زياد يخاطبه سراً وهو يضحك . ثم صاح بغتة قائلاً : « يا غلام » ، فدخل رجل كان بالباب ، ووقف متأدباً . فقال يزيد : « قل لمن ببابنا من الشعراء أننا لن نقابل أحداً منهم اليوم ، وانما نريد ان نرى ذلك الغلام الذي هم بقتلنا ، الي به » .

فخرج الغلام ثم عاد ووراءه عبد الرحمن مكبلاً بالحديد . فلما رأته سلمى أرتعدت مفاصلها لأنها خافت ان يفتك به يزيد .

٥٠

الاستجواب . . .

فلما وقف عبد الرحمن في وسط القاعة ، التفت يمنة ويسرة وتفرس في الناس وهو لا يبالي بما يتهدده من الخطر . فسرت سلمى برباطة جأشه ، ولبثت تنتظر ما يكون منه .

فناداه يزيد قائلا : « ممن أنت يا رجل » ؟ .

فقال عبد الرحمن : « اني من هذه الساحة » .

فابتدره عبيد الله بن زياد قائلا : « أيسألك أمير المؤمنين عن نسبك فتجيبه بهذا الجواب » ؟ .

قال : « هو الذي يسألني . وهذا هو جوابي » .

قال عبيد الله : « يظهر من وقاحتك انك لا تدري من هو الذي يخاطبك » ؟ .

قال : « أدري ذلك ، ان الذي يخاطبني يزيد بن معاوية » .

قال : « قل أمير المؤمنين » .

فقطع يزيد كلام ابن زياد ، وقال : « دعه يا عبيد الله » ، ثم التفت الى عبد الرحمن ، وقال : « وما الذي حملك على هذه الخيانة » ؟ .

قال : « ليست هذه الخيانة، وانما هي جسارة حملني عليها اعتقادي بانني اخدم بها الإسلام والمسلمين » .

فشعر يزيد ان الرجل ينوي التصريح بامور مهينة ، فرأى انه من الدهاء مداورته على عادة والده معاوية في مثل تلك الحال ، وهو القائل : « لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » ، فقيل له : « وكيف ذلك » ؟ قال : « اذا هم شدوا أرخيت ، واذا أرخوا شددت » .

وكثيراً ما كان معاوية يتحمل من أتباع علي كلاماً جارحاً ويصرفهم راضين ، وما ذلك الا من سعة صدره وغزارة حلمه وكثرة دهائه . ولم يكن يزيد مثل والده ، ولكنه اراد ان يتشبه به ، فقال لعبد الرحمن : « ولكن ماذا يمنعك من أن تقول من أنت ، وما الذي جاء بك الى هذه الديار » ؟ .

قال عبد الرحمن : « انك تسألني سؤالاً لا دخل له في عقابك او ثوابك ، وانما يكفيك ان تسمع كلامي وتأخذني باقراري ، وانا اقول انني جئت لأقتلك عمداً».

فضحك يزيد والتفت الى ابن زياد ، وخاطبه خطاباً لم يفهمه أحد ، ثم التفت الى عبد الرحمن ، وقال له : « يظهر انك مغرور ، ونحن لا نرضى الا ان نلتمس لك عذراً لئلا تكون مدفوعاً من احد بطريق الاغراء ، ويكفي للصفح عنك أن تلعن علياً » .

فلما سمع عبد الرحمن ذلك نسي أنه مقيد بين يدي الخليفة، فالتفت اليه وقال: «إنك تطلب أمراً مستحيلاً ، وما عليّ ممن يجوز عليه ذلك » . فقال ابن زياد : « اقبل النصيحة وأطع أمير المؤمنين لئلا يصيبك ما أصاب أمثالك ممن ساقهم عنادهم الى القتل مثل حجر بن عدي و . . . » .

فنظر عبد الرحمن الى ابن زياد ، والشرر يتطاير من عينيه ، وقال : « كأني بك يا ابن سمية تفخر بما فعله أبوك بحجر ، وقد سعى في قتله زوراً ، قتله لأنه لم يلعن ابن عم الرسول ﷺ ، فاذا رأيت ان ترتكب انت ايضاً مثل ذلك فاقتلني ولا تخوفني ، فان علياً أولى بالمدح من سواه » .

فلما قال عبد الرحمن ذلك ، ضجّ المجلس وقامت الغوغاء ، وما من احد إلا اعجب

بجسارة ذلك الأسير المقيد . أما سلمى فكادت تفقد رشدها من عظم التأثر وهي تتقلب بين الاعجاب بشهامة ابن عمها وبين الخوف على حياته . ثم سمعت يزيد يقول له : « قد أمهلناك يوماً آخر، فاذا لم ترجع عن غرورك أذقناك الموت ، خذوه الى السجن». فدخل الحرس ليأخذوه ، فقال : « لا تؤجل عملاً الى الغد ، فاني انا اليوم مثلي بالأمس وبالغد، لن أحيد عن الحق ولو قطعتموني إرباً » . وكانت العجوز جالسة بجانب سلمى تسمع ما دار في المجلس ، فلما أخرجوا عبد الرحن قالت لسلمى : «أرأيت مثل هذه الجسارة ، ولكنها لا تفيده شيئاً وغداً يقتلونه » . فلم تستطع سلمى صبراً على سماع ذلك الكلام ، ولكنها قالت في نفسها : « اذا بقيت يا يزيد حياً الى الغد ، فاقتل عبد الرحمن » . وعادت الى الغرفة وقد ظهر الاضطراب عليها ، ولكنها تظاهرت بالصداع .

٥١

التظاهر بالنوم

فأشفقت العجوز عليها لما ظهر على وجهها من آثار الاضطراب لاعتقادها انه أثر من آثار الصداع ، وقالت لها : « ألم تفدك التعويذة يا حبيبتي ؟ انها لم تخني إلا اليوم » . فلم تجبها سلمى ، ولكنها احتالت بمنديل اخرجته من جيبها وعصبت به رأسها ، وتظاهرت بشدة الألم . فقالت لها العجوز : « اذا كنت تشكين من الصداع الشديد ، فاليك الفراش توسدي وارتاحي » .

فأطاعتها وانثنت الى فراش من الحرير الملون ، عليه غطاء من الأطلس المزركش بالذهب كانت قد أعدته العجوز بأمر يزيد، فتوسدت سلمى الفراش والتحفت الغطاء الى رأسها ، ولبثت لا تبدي حراكا حتى ظنتها العجوز قد نامت ، وهي انما سكنت لانشغال خاطرها فيما هي فيه من القلق وما تخافه على عبد الرحمن وعلى نفسها من الخطر . وفيما هي راقدة سمعت خطوات مفردة على السلم ، فعلمت أن يزيد صاعد ليراها ويسأل عن صحتها ، إذ لا يتجاسر احد على الصعود الى تلك المقصورة سواه ، فاستعاذ بالله ، ولكنها رأت ان تتظاهر بالنوم لأن الليل لم يحن بعد ،وهي انما تريد قتله ليلاً والناس نيام ، لتتمكن من الفرار . وبعد لحظة وصل يزيد الى باب المقصورة ، فأسرعت العجوز اليه واستقبلته لدى الباب وهي تشير على فمها وتقول هامسة : « امش الهوينا ولا تتكلم لأن العروس نائمة » . فخفف الوطء واستفهم عن سبب نومها ، فقالت « ان الصداع اشتد عليها فعصبت رأسها وتوسدت ويظهر انها نامت ، ولكنها ستفيق بعد قليل ولا أثر للألم في رأسها ، والنوم انجع

دواء للصداع » . فمشى رويداً رويدا حتى اقبل على الفراش ، ودنا من رأسها وكان مغطى الى الجبهة فانحنى وأمسك الغطاء بأطراف أنامله ورفعه . فظلت سلمى ساكنة وعيناها مغمضتان ، وقد أشرق محياها وزاده الدفء أشراقاً واحمراراً . فلم يتمالك يزيد عند رؤ يتها من الاعجاب بذلك الجمال الجذاب ، وحدثته نفسه ان يوقظها ويجلس الى جانبها . فأومأت العجوز اليه ان يتركها تنام ، وأمسكته بيده ، فمشى اى جانب النافذة ، وقالت له همساً : « لا تتعجل يا مولاي ، ان العروس عروسك تتمتع بها متى شئت ، دعها تهدأ الآن وتسترح ، فاذا جاء الليل كانت كما تبغي » .

فقال : « ولكنني لا أريد منها إلا قبلة » . قالت :«لم يكن ثمة بأس من ذلك ، لولا خوفنا من ان تستيقظ » . فقال لها : « هل أدخلتها الحمام » ؟ قالت : « نعم يا سيدي ، كن مطمئناً من هذا القبيل ، واذهب الى مجلسك » . فقال لها : « أعدي لنا ما نحتاج اليه من الشراب والطعام لنقضي الليلة في هذه المقصورة » . قالت : « سمعاً وطاعة » ، وسارت في أثره .

فأدركت سلمى انهما ذهبا ففتحت عينيها ونظرت الى جوانب الغرفة فلم تجد احداً ، وكانت في أثناء رقادها تفكر في طريقة لقتل يزيد . فلما علمت بعزم يزيد على المبيت في تلك المقصورة ، وسمعت سؤ اله عن دخولها الحمام ، أخرجت الخنجر من جيبها ودسته تحت الفراش بحيث تصل يدها اليه متى شاءت ، ثم نهضت ورأسها معصوب وقد أشتد قلقها على حبيبها .

٥٢

« شمر »

فخرجت الى الكوة المطلة على مجلس الخليفة ، فرأت المجلس مشوشاً ولم تر يزيد هناك . ثم ما لبث ان دخل ومعه رجل لم يقع نظرها عليه حتى ارتعش جسمها وارتعدت فرائصها . لقد كان شمر بن ذي الجوشن ، فاستعاذت بالله من وشايته ، ولكنها أصبحت لا تخاف شيئاً في سبيل الأنتقام لوالدها وخطيبها . ورأت يزيد يرحب بشمر ويدعوه الى جانبه ، فلم يتجاسر ان يجلس على الوسادة المثناة ، ولكنه تربع على البساط بين يدي يزيد وهو متأدب . فقال له يزيد : « لماذا لم تدن من مجلسنا وانت اول من نبهنا الى الخطر الذي نجانا الله منه بالأمس » ؟ قال : « ان صنيعة مولانا لم يفعل الا الواجب عليه ولا فضل له فيه . وقد بايعنا أمير المؤ منين على الطاعة والاذعان للأمر ، وان دماءنا وارواحنا وأموالنا فداء له » . فضحك يزيد ، ومشط

لحيته بيساره والدرة في يمينه وقال له : « بورك فيك يا شمر ، انك ابيض الوجه وابيض
الخصال . وسوف تنال ما تستحقه » . فقبل شمر الأرض وقال أرجو ان ينال ذلك الخائن
أيضاً ما يستحقه . قال : « انه سينال جزاءه بعد ان نرى ما يعترف به ، فلعل له شركاء اذا
اطلعنا على سرهم منه أمنا شرهم » . قال شمر : «ألم يسأله أمير المؤمنين عن نسبه » ؟ قال :
« سألناه فلم يجب ، فأمهلناه الى الغد » . فوقف شمر والسرور باد على وجهه وقال : « اذا
امرني مولاي أخبرته بنسبه ، ولا أظنه بعد ذلك الا آمراً بقتله في هذه الساعة » . فلما سمعت
سلمى كلام شمر ، اهتزت كل جوارحها ولم تعد تستطيع الوقوف من شدة الاضطراب
ولعنت ذلك الرجل وساعة قدومه ، ولكنها تجلدت لترى ما يكون ، فاذا بيزيد يقول : « ومن
هو ؟ قل » .

قال : « ألا تعرف حجر بن عدي » ؟ قال : « بلى ، سمعت به » . قال : « انه ابن
اخيه ، ويزعم هذا الغادر انه سينتقم لعمه من أمير المؤمنين » . فهب يزيد من مجلسه ،
وصاح قائلاً : « أصحيح ما تقول يا شمر » ؟ قال : « اني لا أقول غير الصدق ، وإذا حضر
الآن جادلته فغلبته » .

فضج المجلس ، وصاح يزيد : « آتوني به » . وما عتم ان جاءوا بعبد الرحمن وعليه
الأغلال والقيود ، فوقف بين يدي يزيد وهو لا يبالي . فنظر يزيد الى شمر ، وأومأ اليه ان
يخاطبه..

فالتفت شمر الى عبد الرحمن ، وقال له : « أيسألك أمير المؤمنين عن نسبك فتخفيه
عنه » ؟.

فنظر عبد الرحمن الى شمر وحملق فيه ، وهو لا يعبأ بما يتهدده من الخطر في ذلك الوقت ،
وقال : « لم أخف نسبي خوفاً على حياتي ، ولا أرى في نسبي الا ما يدعو الى الفخر » .
قال شمر : « قل اذن من أنت » ؟ فرفع عبد الرحمن صوته وقال : « اني من كندة ،
واسمي عبد الرحمن ، وعمي حجر بن عدي ، قتلتموه ظلماً وعدواناً » . فتعجب يزيد من
تلك الجرأة ، وقال : « أتقول ذلك ولا تخاف » ؟ قال : « مم أخاف وقد أقررت بعزمي
جهاراً ، وأزيدكم بياناً اني انما تعمدت قتل يزيد انتقاماً لعمي المقتول ظلماً » . وكان ابن زياد
جالساً بجانب يزيد يسمع ما يدور بينهما ، فلماسمع قوله أراد مطاولته فقال : « انك مصاب
في عقلك فاقلع عما انت فيه ، وان كان حلم أمير المؤمنين لا يضيق عن وقاحتك ، فاذا
استغفرته ورجعت عن غيك أظنه يصفح عن جهالتك » . قال : « لا . . يا ابن زياد ، لا
تتوسل في العفو عني ، ولا تذكروني بعملكم ، فما أنا بملتمس البقاء » . قال يزيد والغضب

ظاهر في عينيه : « قد كنا أجلنا قتلك الى الغد ونحن نحسبك نادماً على وقاحتك ، فاذا انت مستعجل اجلك ، فاعلم انك مقتول قبل ان تطلع شمس الغد . خذوه الى السجن وأروني رأسه في الصباح » .

٥٣

اليأس

فأرادوا ان يتحولوا به الى السجن ، فقال شمر : « فليأذن لي مولاي ان اقتله بيدي » ؟ .

قال : « اقتله وأتني برأسه غداً ، إلا إذا رجع عن غيه واستغفر ولعن أبا تراب »[1] .

فلما سمع عبد الرحمن ذلك نفر ممن كان ممسكاً بيده ، وحول وجهه الى يزيد وقال : « اقتلوني الآن عساي القى علياً وحجراً على عجل . واذا كان لا بد من تأجيل قتلي ، فلا أرضى بالموت قبل أن أؤدي شهادتي على رؤوس الملأ . فاعلموا يابني أمية انكم توليتم هذه الخلافة بغير الحق ، وأخرجتموها من أهل بيت الرسول بالحيلة ، وحاربتم من هو أحق بها من سائر المسلمين ، ولم تفوزوا بها من دونه إلا لرغبتكم في الدنيا ورغبته في الآخرة ، ولسوف تلقون عاقبة ما جنته ايديكم » . فانتهره ابن زياد قائلا : « أتقول ذلك جهاراً ، يا خائن » ؟ .

فالتفت عبد الرحمن اليه وقد صعد الدم الى رأسه وتعاظم غضبه ، وتذكر ما افتراه زياد ووالده على عمه حجر حتى تمكن من قتله ، فقال : « لا تقل يا خائن ، وما الخيانة إلا من شأنك وشأن أبيك من قبلك ، وليس في هذا المجلس احد لا يعرف أباك زياداً وأمه سمية ، وكلهم يعرفون لماذا سموه ابن أبيه . اذكر يا عبد الله شهادة أبي مريم خمار المدينة ، ألم يقل ان جدتك سمية كانت بغياً من بغايا المدينة ؟ هل وصلت انت وابوك الى هذا المجلس الا بفضل بغيها ، وليس في هذا الجمع من يجهل ان معاوية لم يلحق زياداً بنفسه ، ويرضى بأن يكون أخاه من أبيه الا ليستخدمه في مصلحته ،ويستعديه على أهل البيت . فاذا رضيت بهذا ، فانما هو شهادة على قذارة أصلك . وان لم ترضه فاخبرني ما هو نسبك ؟ وتزعم اني خائن وما الخائن الا من عرف الحق وانحرف عنه طمعاً في الدنيا ، كما فعل أبوك وأمثاله ، وكما فعلت انت وأمثالك ، فلا غرو اذا استغربت المجاهرة بانتصاري للحق ، وهي شهادة حتى اموت في سبيلها ، واذا انا مت فان عظامي تنادي بها من اعماق القبر » . فضج الناس واضطرب المجلس ، والكل معجبون بتلك الجرأة ، وتقدم شمر الى يزيد وهو يقول : « الى متى يصبر

(١) ابن الأثير، الجزء الثالث. والمسعودي، الجزء الثاني. والفخري والخميس والعقد الفريد.

أمير المؤمنين على هذه الوقاحة ؟ مرني فأقطع رأسه في هذه الساعة » .

فصاح فيه عبد الرحمن: «أقتل، جرد سيفك،انكم ما قتلتم من قتلتموه من انصار الحق الا بمثل ذلك ، تتكاتفون على الرجل عشرات ومئات ، اقتل ، قتلك الله » ، ثم التفت الى يزيد وقال : « أتظنون ان قتل رجل مثلي يؤيد سلطانكم » ؟ وأشار الى عمامته وقال : « ان دون العمامة الوفاً من الرجال الصناديد سوف يذيقونكم مرارة ما جنته أيديكم ، ان سلطانكم يا ابن معاوية لم يتأيد الا بالحيلة . أطعمتم الناس بالدنيا فنصروكم ، ألحقتم زياداً بنسبكم وأطعمتم عمرو بن العاص بمصر فنصراكم ، ولولا ابن العاص ما بقيتم بعد وقعة صفين يوماً واحداً . ولولا فعلته بالأشعري في مجلس التحكيم لم تقم لكم قائمة ، ولكن دهاء أبيك معاوية غلب دهائه فاستخدمه في مصلحته فأطعمه مصر وأكله هو ومصر والشام، ولكنها لقمة لن تهضمها أمعاؤكم وسوف ترون ونرى».

وقبل ان يتم كلامه ، قال يزيد : « خذوه الى السجن وأتوني برأسه في الغد الباكر » ، قال ذلك وهو يضحك ويظهر الاستخفاف . فساقوه فسار وهو يرسف في قيوده بخطوات ثابتة كأنه ذاهب الى المنافرة . ولا تسل عما أصاب سلمى من الارتعاد ، وما ظهر على وجهها من الاضطراب ، حتى اغرورقت عيناها رغمًا عنها . ولكنها فرحت بما أبداه عبد الرحمن من الأنفة والشجاعة فلما خرج من المجلس ، انخلع قلبها واشتد قلقها ثم عادت الى هدوئها وعللت نفسها بقتل يزيد في ذلك المساء قبل ان يقتل خطيبها . وكانت الى تلك الساعة تتهيب جريمة القتل لغلبة طبيعة النساء عليها ، فلما سمعت ما دار بينهم وبين عبد الرحمن هان عليها كل أمر فظيع ، واشتد بها الهياج حتى لم تعد تستطيع البقاء هناك ، فتحولت الى المقصورة والعجوز لم تأت بعد ، فافتقدت الخنجر واستخرجته ونظرت اليه وخاطبته قائلة : « أرجو ان لا تخونني الليلة ، انك اذا اطعتني أتيت بما لم يقو عليه ألوف من المسلمين ، فتنقذهم من سلطان أناس اختلسوا الخلافة وأهانوها ، وتعيدها الى أولى الناس بها ، تعيدها الى سيد شباب المسلمين ابن بنت الرسول » . ولما تصّورت ذلك اهتزت طرباً وقالت وقد نسيت موقفها : « إذا انا ظفرت بهذه الأمنية لا أبالي ان مت او بقيت حية » . ولم تكد تقول ذلك حتى سمعت وقع أقدام على السلم، فأسرعت الى اخفاء الخنجر تحت الفراش ، وجلست في الفراش وهي ترتجف وتغطت الى ما فوق رأسها .

٥٤

المائدة

وبعد هنيهة دخلت العجوز ووراءها جماعة يحملون آنية الطعام والشراب ، فمدّوا

السماط ووضعوا فوقه أطباقاً من الذهب والفضة ، وفيها الدجاج المشوي وانواع اللحوم والحلوى والفاكهة ، وصفت اقداح الشراب . وتظاهرت سلمى باليقظة وتململت ، ثم رفعت الغطاء عن رأسها فوقع نظرها على ذلك السماط ، وعليه انواع الأشربة والوان الطعام ، ورأت بجانب السماط طنبوراً ، فتذكرت ما كنت تسمعه عن انشغال يزيد بشرب الخمر وضرب الطنابير[1] مما لم يسبق مثله لأحد من الخلفاء . فقالت في نفسها : « أذا لم يكن وراء قتل هذا الرجل الا نزع العار عن الخلافة لكفاني شرفاً بقتله » . أما العجوز فلما رأتها ترفع الغطاء عن رأسها ، تفرست فيها فرأت الاحمرار قد آشتد في وجهها حتى توردت وجنتاها واحمرت عيناها ، وقد ازدادت هيبة وجمالاً ، فأسرعت اليها وقبلتها بين عينيها وقالت : « هنيئاً لأمير المؤمنين متى فاز بمثل هذه القبلة ، وهنيئاً لك على ما تحوزينه من المكانة الرفيعة عنده » .

فظلت سلمى ساكتة ولم تبد حراكاً ، فظنتها لا تزال تشكو من الصداع ، فقالت لها : « كيف تشعرين الآن يا بنية » ؟ قالت سلمى : « أحسبني أحسن قليلاً » . قالت : « وسيزول بقية الألم متى جلس الخليفة الى جانبك الليلة وسمعت ضربه على هذا الطنبور ، فاننا قد اعددنا لك كل شيء بأمره » . ولم تتم كلامها حتى فاحت رائحة البخور ، وسمعت وقع أقدام خفيفة خارج الغرفة فتحركت في فراشها ، فقالت لها العجوز : « لا تجزعي يا حبيبتي ان الخليفة لم يأت بعد ، واما الذي تسمعين وقع أقدامه فهو رجل يحمل البخور سيضع مبخرته هنا ويعود » ، فأرخت سلمى خمارها على رأسها ونظرت من خلاله الى القادم ، فاذا هو رجل عليه قباء من الأطلس الأحمر ، وعلى كتفه كساء مزركش أصفر ، وعلى رأسه شاش ، وعلى كتفه الأخرى مخلاة من الحرير الأخضر ملآنة بعود القاقلي ، وفي يده مبخرة من الذهب الأحمر فيها نار يلقي فيها عود القاقلي ، والدخان يتصاعد من المبخرة حتى ملأ المكان برائحة العود ، فدخل الرجل بخفة ووضع المبخرة بباب المقصورة وكرّ راجعاً ، ولم يبق في الغرفة غير العجوز والمائدة وعليها الأطعمة والأشربة .

ثم آنشغلت العجوز بوضع الوسائد حول تلك المائدة ، وأتت بقوائم من الذهب مغروس في رؤوسها وجوانبها شموع بعضها أبيض والبعض الآخر أحمر والبعض أخضر ، وأوقفتها في وسط السماط ولم تشعلها لأن الليل كان لم يقبل بعد . كل ذلك وسلمى مستكنة في الفراش غارقة في الأفكار والهواجس ، وهي ترجو ان لا يحضر مجلسهم تلك الليلة احد غير يزيد .

---

(١) المسعودي الجزء الثاني، والفخري.

ولما غابت الشمس اخذت العجوز تنير الشموع ، فأضاءت الغرفة ولبثت في انتظار يزيد . وكانت العجوز تتوقع قدومه قبل الغروب ، فلما غابت الشمس ولم يأت استبطأته . فقالت لسلمى : « يظهر ان مولانا الخليفة قد شغل عنا ، وأنا لا أظن ان في الدنيا شيئاً يشغله عن هذا المجلس » ، فأوجست سلمى خيفة من سبب تأخره ، وحسبت لذلك ألف حساب .

٥٥

يزيد

ثم سمعتا وقع أقدامه على السلم، فقالت العجوز :«ها هو آت والحمد لله » ؛ فلما سمعت سلمى ذكره اختلج قلبها في صدرها ، وتحققت دنو الخطر العظيم فتجلدت وجلست في الفراش . فقالت لها العجوز : « انهضي من الفراش الآن واجلسي الى المائدة » ، ولم تكد سلمى تهم بالجواب حتى دخل يزيد ، وقد بدل ثيابه بثياب خفيفة وعلى رأسه عمامة صغيرة ، فلما أقبل على المائدة رأى سلمى لا تزال في الفراش فقال لها وهو يبتسم غصباً : « لعلك لا تزالين تشعرين بالصداع » ؟.

فلما سمعت نغمته تفرست في وجهه ، فاذا هو قد تغير وعلاه الاضطراب فانزعجت وحدثتها نفسها بشيء يضمره . . وخافت ان يكون قد اطلع على سرها لعلمها بما في نفس شمر بن ذي الجوشن عليها . ولم تر بداً من التجلد والتكلف ، وان لم يكن ذلك من فطرتها . ولكنها كانت كبيرة العقل قوية الأرادة ، فتجاهلت ما يبدو على يزيد من القلق وجلست كأنها تتأهب لمبادلته الحديث . .

أما هو فحالما نظر الى وجهها ، أشرق وجهه وزال انقباضه وعاد الى هيامه . وكانت العجوز واقفة بين يديه ، فقال لها على سبيل المزاح : « تعالي يا عجوز النحس ، واملأي هذاالقدح من هذا الشراب واعطي سلمى ، فانه شراب حلو » . فملأت العجوز قدحاً من شراب أحمر ، وقالت لها : « أشربي ، انه مصنوع من عصير التفاح فلا تخافي » . فتحيرت سلمى لأنها لم تذق تلك الأشربة ولا تريد ان تذوقها ولكنها تناولت الكأس ولبثت تنتظر ما يريده يزيد ، فاذا هو قد صب قدحاً آخر من زجاجة اخرى فيها شراب اصفر ، وقال: «وهذا من عصير البلح» وشرب، فتظاهرت هي بالشرب، وصبت الكأس في ثيابها

فلم يستقر الشراب في جوف يزيد حتى غلب عليه السرور ، ودنا من فراش سلمى والطنبور بيده وهو يضرب عليه ويطرب ، والعجوز تقطع اللحم وتناولهما وتصب الأشربة ،

وسلمى تحبب اليه الشرب عساه ان يسكر فيهون عليها الفتك به . وكان شمر حين علم بعزم الخليفة على الزواج بسلمى ، قد نوى على الوشاية بها انتقاماً لما ناله من مجافاتها . فلما رأى موكبها قادماً الى دمشق وتحقق من دخولها القصر ووقوعها من يزيد موقع الاستحسان اخذ في اعداد المكيدة، فاغتنم فرصة رأى فيها يزيد خارجاً وحده من المجلس الى المقصورة ، فاعترضه وهمس في اذنه : « ان عروسك لا يركن الى قلبها ، فاحترس على نفسك منها » . وكان يزيد مسرعاً للقاء سلمى ، وقد أخذ الشوق منه مأخذاً عظيًما ، فأثرت في نفسه كلمات شمر تأثيراً لم يطل مكثه طويلاً . ولم يكد يجلس اليها ويتأمل محياها حتى نسي الوصية ، وخاصة بعد ان اسكرته الخمر ، ولم يعد يرى من الدنيا شيئاً غير ما في مقصورته . أماشمر ، فلما طال مقام يزيد مع سلمى في تلك الخلوة ولم يسمع شيئاً جديداً، تملك الحسد من نفسه وعز عليه ان تكون سلمى قد تسلطت على قلب يزيد وانسته حاله ، فندم على انه لم يصرح له بحقيقة نسبها ، وانها ابنة عم عبد الرحمن وخطيبته ، فيتحقق من خيانتها ويخاف غدرها . واصبح شمر عند ذلك لا يهدأ له بال . وفكر في سبيل يناله به بغيته . وهو يعلم منزلة عبيد الله بن زياد من يزيد ، فسار اليه وكان ابن زياد في غفلة عن علاقة سلمى بعبد الرحمن ، ولكنه بات كاسف البال لفشله في خطبته سلمى ، وقد شق عليه خروجها من يديه ولم يكن اطول من تلك الليلة عنده .

٥٦

الغيرة

فلما انفض المجلس ، وعلم عبيد الله بذهاب يزيد الى المقصورة ، وان سلمى هناك في انتظاره ، ثارت الغيرة في قلبه ، وطار النوم من عينيه ، وكان قد أوى الى غرفته في القصر وتوسد الفراش ، ولكنه لم يجد الى النوم سبيلا . وكلما تذكر سلمى وجمّالها وهيبتها ، وتصور جلوسها الى جانب يزيد ـ وهو يؤمن بضعفه ، ولا يحترمه الا بسبب منصبه في الخلافة ـ فكلما تصور ذلك اقشعر بدنه . قضى ابن زياد في غرفته بضع ساعات ، وهو في قلق شديد يغالب عواطفه ويهون المصيبة عليه ، ولكنه لم يستطع ان يدفع الغيرة عن نفسه . وفيما هو في تلك الهواجس ، دخل عليه خادمه وهو يحسبه نائمًا ، فلما رآه مستيقظاً قال له : « ان شمر بن ذي الجوشن بالباب » .

فقال : « دعه يدخل » ، وجلس في الفراش ، وأمر الخادم فأضاء السراج . فدخل شمر وعلى وجهه علامات البغتة والاهتمام ، وابتدره قائلا : « لقد اتيتك في أمر ذي بال » .

قال : « وما هو » ؟.

قال شمر : « أنت تعلم عزم الخليفة على الزواج بتلك الفتاة الحسناء » . . ؟ فلما سمع ابن زياد الاشارة الى سلمى ، اختلج قلبه في صدره وأصاخ بسمعه ، وقال : « أعلم ذلك . . ثم ماذا » ؟.

قال شمر : « أتعلم من هي هذه الفتاة » ؟.

قال : « لا اعلم سوى انها غريبة . . وأظنها من العراق » .

قال شمر : « نعم انها عراقية . . ولكن من هو أبوها » ؟.

قال : « أليس هو ذلك الكهل الذي كان معها في الدير ؟ وهب انه ليس أباها فلا أظن ان معرفته تهمنا كثيراً » .

قال شمر : « ان معرفة والدها تهمنا جميعاً ، ولو عرف أمير المؤمنين من هو حموه لما اقترب منها . . فانه غير الكهل الذي أشرت اليه » .

فاستغرب عبيد الله ذلك القول ، وقال : « ومن عسى ان يكون والدها ؟ قل يا شمر » .

قال : « انه حجر بن عدي » . ولم يتم كلامه حتى بانت البغتة في عيني عبد الله ، وصمت برهة ثم قال : « وهل انت واثق من صدق ما تقول » ؟.

فابتسم شمر ، وقال : « اني اعرفها واعرف أباها وعمها وكل اهلها » .

فقطع ابن زياد كلامه قائلا : « فيكون عبد الرحمن اذن ابن عمها » . . ؟.

قال : « نعم . . وهو ايضاً خطيبها ، وقد قدما ومعهما الرجل الكهل الذي ذكرته وهو الوصي عليها . فأقاموا في دير خالد يتربصون للفتك بأمير المؤمنين ، وهذا الذي ساعدني على كشف أمر الرجل وايقاعه في الشرك وهو يهم بارتكاب تلك الجريمة » .

فبهت عبيد الله ، وقد بدا له صدق كلام شمر مما لا حظه من القرائن الأخرى ، فقال له : « لماذا لم تطلع الخليفة على هذا السر ؟ انني أخشى ان تكون موافقتها على هذا الزواج مكيدة ، وأخشى أن تكون عازمة على الفتك بأمير المؤمنين خلسة » .

قال : « لقد لمحت له تلميحاً . . ولكنه لفرط شغفه بها ورغبته في سرعة الذهاب اليها ، لم يدع لي مجالاً للكلام أو زيادة التفصيل » . .

قال : « لا أستبعد ان تكون قد اعتزمت قتله ، وخاصة اذا كانت ثابتة على رأيها مثل ثبات ابن عمها ، وقد شاهدنا ما كان من عناده في هذا النهار أو ان تكون عنيدة مثل والدها ، وقد قتل بعناده لأنه لم يلعن علياً كما تعلم . ما العمل الآن ؟ يجب أن نبلغ الخليفة الأمر

بصراحة لئلا نلوم أنفسنا فيما بعد » .

قال : « الرأي رأيك . . ولا بد من المبادرة فيه قبل انقضاء الليل » .

فأطرق عبيد الله برهة ، ثم نهض من فراشه بغتة وقال : « إلّي بـ « فتح » خصي أمير المؤمنين ، لأنفذه اليه الآن » .

فأسرع شمر حتى أتى غرفة « فتح » بباب دار النساء ، فأيقظه ودعاه الى عبيد الله ، فسار حتى دخل على ابن زياد وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، فلما أقبل عليه ناداه ابن زياد . . فدنا منه ، فقال له : « اذهب الى الخليفة الآن على عجل ، وقل له اني اريد ان اخاطبه في أمر ذي بال » . فضحك فتح وقال : « يظهر انك لا تدري اين هو الليلة » ؟ .

قال : « بلى اني عالم بمجلسه . . ولولا ذلك لدخلت انا عليه وكلمته » . .

قال : « وكيف أدخل عليه ، وهو في مجلس طرب وسرور ، وقد أوصى ان لا يزعجه أحد بشيء . . فمن يجسر على الصعود الى المقصورة ؟ . . حتى ولا انا » . .

قال : « أما انت فتدخل ، وهو انما ادخرك لمثل هذه الليلة . . وتلك هي مزية الخصيان ، فامض اليه على عجل لأن الوقت ضيق ، وقل له ان عبيد الله يريد ان يراك الآن » .

فقال : « واذا انتهرتني ولم يسمع كلامي » ؟ .

قال : « خوّفه بما شئت . . قل له ان عبيد الله يطلب مخاطبتك لاطلاعك على امر ذي بال يتعلق بالخلافة . ولكن لا تقل له ذلك على مسمع من احد . وامضِ يا « فتح » عاجلا ، وسترى أهمية هذه الدعوة » .

٥٧

البغتة

فأسرع « فتح » وهو يتعثر في أذياله حتى صعد الى المقصورة ، فرأى الباب مغلقاً ، فأنصت ، فسمع يزيد يضرب بالطنبور ويقهقه . فوقف برهة وقلبه يخفق ، وخاف ان يغضب الخليفة اذا دعاه ، فلبث مدة يتردد حتى كاد يرجع . ثم تذكر الحاح عبيد الله ، فهان عليه كل شيء ، فدنا من الباب وقرعه » . وكان يزيد في ابان سروره ، وقد أتكأ الى جانب سلمى وأسند رأسه على صدرها ، وتمثلت له السعادة في أبهج صورها . . فلما سمع قرع الباب أجفل ، وجلس وصاح : « من بالباب » ؟ فأجابه فتح : « أنا عبدك فتح » .

فصاح يزيد : « اذهب . . فتح الله قبرك ، لقد أزعجتني » .

قال : « إني ذاهب . . ولكني أتيت في مهمة ذات بال لمولاي أمير المؤمنين » .

فضحك يزيد وقال له : « دع المهمات الى الغد وامضِ . . ولو قرع هذا الباب أحد سواك لتقلته» .

قال : « إني أعلم ذلك يا مولاي ، ولكنني ألتمس من أمير المؤمنين أن يرني وجهه لحظة ثم يعود» .

فنهض يزيد والطنبور بيده وقد وقعت العمامة عن رأسه ووقف بالباب ، فهمس فتح في أذنه : « أن عبيد الله بن زياد يريد ان يكلمك في شأن يتعلق بالخلافة » .

فقال يزيد : « قل له ان موعدنا في ذلك الغد » وهم بالرجوع فأمسكه فتح بيده ، وقال له : « لو استطاع تأجيله لما أزعج مولانا في مثل هذه الليلة ، وقد استمهلته ، فألح عليّ ان آتي اليك الساعة . وكنت مستغرقاً في نومي ، فأيقظني لهذا الأمر . ولم آت اليك الا وأنا أتوقع ان تزجرني وان تغضب عليّ ، ولكنني لم أر بداً من المجيء » .

فمشى يزيد والطنبور بيده وقد غضب من عبيد الله وعوّل على توبيخه ، ومشى « فتح » في أثره ، ثم أمر « فتحاً » أن يسبقه ويدعو ابن زياد اليه .

فهرع « فتح » حتى لقي ابن زياد فدعاه ، فجاء واستقبل الخليفة في دهليز منفرد ، وقبل ان يتكلم يزيد ابتدره عبيد الله قائلا : « أنا اعلم اني أزعجت أمير المؤمنين في ساعة الطرب ، ولكنني أطلعت على سر لا يصح السكوت عنه الى الغد والا تعرضت لخطر شديد ، فهل يأذن مولاي الخليفة بخلوة » ؟ .

فبغت يزيد وسار في أثره الى غرفة فيها شمعة مضيئة ، وليس فيها أحد . فلما خلا به قال : « بلغني يا أمير المؤمنين أن عروسك التي حملناها اليك اليوم لا تقل خطراً عن عبد الرحمن الذي تعمد قتلك بالأمس» .

فبغت يزيد وقال : « وكيف يكون ذلك » .

قال : لأنها ابنة حجر بن عدي ، وعبد الرحمن ابن عمها وخطيبها » .

قال يزيد : « ومن أنبأك ذلك » ؟ .

قال : « أنبأني شمر الذي كشف لنا الخديعة الأولى ، فأخشى ان تكون سلمى هذه انما أتت الى منزل الخليفة لمثل الأمر الذي همّ به ابن عمها ، والعياذ بالله » .

فأطرق يزيد ثم قال : « سمعت مثل هذا التلميح من شمر ، ولكن ما المانع ان لا تكون هي مثله ، وخاصة بعد ان اتيح لها ان تكون من نسائي .

قال عبيد الله : « قد يكون ذلك اذا عرفت قيمة السعادة التي خصها بها أمير المؤمنين ،

وقد تكون شريرة عنيدة مثل أبيها وابن عمها ، وترتكب أمراً عظيمًا يسوء المسلمين ويهدد ركن الإسلام » .

قال يزيد : « كيف نعرف الحقيقة يا عبيد الله»؟ .

قال عبيد الله : « نعرفها من البحث بين أثوابها عن سلاح أو سم او نحوه مما قد يستعان به على مثل ذلك المنكر » .

قال يزيد : « لا يمكن ان يكون معها سلاح او نحوه ، ولو كان معها شيء من ذلك لظهر لعجوزنا عندما بدلت ثيابها في الحمام » .

قال عبيد الله : « وهل تحقق مولاي من دخولها الحمام » ؟ .

قال يزيد : « لا ريب من دخولها لأني أوصيتهم ان يدخلوها الحمام ، وقد سألت العجوز فأجابت » ، ثم توقف عن الحديث ، وتذكر انه لما سأل العجوز عن حمامها ، لم تجبه جواباً صريحاً ، فقال : وسأسأل هذه العجوز ثانية اذا كانت قد فعلت ما أمرتها به . . فان كانت لم تدخلها الحمام تزداد الشبهة عندي فنفتشها » ، قال ذلك وهمّ بالخروج . فاستوقفه عبيدالله وقال : « لا يكفي ان نبحث في أثوابها . . بل أبحث في كل مكان بالغرفة ، فاذا وجدت شيئاً فلا تتسرع في الأمر . . بل كن حازماً مثل أبيك ، رحمه الله ، وخذ الأمور بالتؤدة والحلم . وها أنا ذا منتظر حتى يأتيني أمر مولاي » .

٥٨

كشف المخبأ

وكانت سلمى لما سمعت الخصي يخاطب يزيد ويلح عليه بالحضور اليه ، قد أوجست منه . . على أنها لم تتصور انه جاء لمثل هذه الغرض ، وكأن نفسها حدثتها بشرّ يتهددها فاختلج قلبها واصطكت ركبتاها ، ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر عودته . . وقد علمت ان الشراب دار في رأسه ودنا الوقت المنتظر .

وكانت العجوز قد انزوت في احد الجوانب الغرفة وغلب عليها النوم ، فنامت وقد تدلى رأسها وهي جالسة .

فلما عاد يزيد بشّت سلمى في وجهه ، وتوقعت ان يخاطبها او يجلس الى جانبها . فاذا هو يصيح بالعجوز . . فأفاقت مذعورة وأسرعت اليه ، فأخذها بيدها وخرج من الغرفة . فلما خلا بها سألها اذا كانت ادخلت سلمى الحمام . فتلعثمت وأقرّت له بأنها رأتها منحرفة الصحة . . فعنّفها ولكنه أوصاها بالسكوت ، ودخل وجلس الى سلمى ، فظنت لأول وهلة

انه عاد الى ما كان فيه ، وليس هناك ما يوجب الشك . . فاذا به قد مدّ يده الى صدرها وجعل يجس جوانبها فأجفلت وخافت ، ولكنها ظنته يداعبها . أما هو فتظاهر بمداعبتها ، ولم ير معها سلاحاً ، فقال للعجوز : « ألم أقل لك أدخليها الحمام » ؟ .

قالت : « بلى يا مولاي . . ولكنها كانت منحرفة المزاج ، فلم أشأ ان أزعجها » .

قال : « خذيها الآن وسأبقى هنا في انتظاركما » ، وأشار اليها ان تأخذها الى غرفة قريبة في اول الدهليز.

فتحيرت سلمى بماذا تجيب ، ولكنها أطاعته وخرجت مع العجوز ، وهي لا تخاف من الحمام لأن الخنجر ليس معها . أما هو فأخذ يفتش في جوانب المقصورة حتى قلب الفراش ورأى الخنجر تحته ، فلم يبق عنده شك في المكيدة . . فجعل ينتفض من شدة التأثر ، وحدثته نفسه ان يقتلها بذلك الخنجر حالاً . ولكنه تذكر كلام ابن زياد ، فأسرع اليه والخنجر في يده ، وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيًما .

أما يزيد ، فان شغفه بسلمى وإعجابه بجمالها هوّنا عليه التماس العذر لها ، فقال : « ولكنني مع ذلك لا أرى ان احكم عليها بمجرد الظن ، اذ قد يتفق ان يكون هذا الخنجر هناك بالصدفة ، وهب انها كانت متعمدة قتلي . . فهل يستحيل ان تتوب » ؟! .

فأدرك عبيد الله غرض يزيد ، واستصوب رأيه لأنه عدل عن قتلها ، فقال : « لقد أصاب مولانا . . والرأي عندي ان نبعث اليها من يستجوبها ويسألها عن خبر هذا الخنجر وعن سبب وجوده معها . . فاذا أقرت بجريمتها عنفها واطلب منها ان تسعى الى التوبة والتماس العفو منك ، فان فعلت بقيت والا فالرأي لك » .

فقال يزيد : « نعم الرأي هذا . . ولكنني لا آمن ان اعهد بهذه المهمة الى سواك ، لعلمي بحكمتك ودهائك » .

فلما اذن يزيد لعبد الله بذلك ، أسرع الى الغرفة التي كانت سلمى فيها .

وكانت سلمى لما نزلت الى تلك الغرفة والعجوز معها ، ولم تجد هناك شيئاً من معدات الحمام أدركت ان أمرها لم يبق مكتوماً ، وانها انما سيقت الى هناك لأمر يوجب الخوف . . فلم تعد تعبأ بشيء وقد يئست من الحياة ولولا ان قلبها متعلق بعبد الرحمن ، وان املها معقود ببقائه ، لما ترددت لحظة في الأقدام على الموت . وكانت العجوز ايضاً مندهشة ، ولم تفهم معنى هذا التغيير المفاجيء ، ولم يستقر بهما المقام هناك حتى جاء ابن زياد وقرع الباب ، فخرجت له العجوز . . فقال لها : « أين سلمى » ؟ .

قالت : « وماذا تريده منها » ؟ .

قال : « أريد ان ابلغها أمراً من أمير المؤمنين » .

قالت : « هي هنا » ، وأشارت الى داخل الغرفة .

٥٩

سلمى وعبيد الله

فدخل عبيد الله ، وقد خبأ الخنجر تحت أثوابه . . وكانت سلمى حين سمعت صوته ارتعدت فرائصها ، وأرخت النقاب على رأسها . فلما أقبل عليها ورأى جمالها ، قال في نفسه : « حرام ان يمس هذا الجسم بسوء ، فتلطف في الكلام وقال : « لقد جئت من عند أمير المؤمنين أسألك عن أمر أرجو ان تجيبي عليه بالصدق » .

فظلت سلمى ساكتة مطرقة ، ولكن قلبها اشتد خفقانه . فلما لم تجب ، مد عبيد الله يده الى جيبه وأخرج الخنجر ، وقال لها : « هل سبق أن رأيت هذا الخنجر يا سلمى » ؟.

فلما رأت الخنجر ايقنت بفشلها وبأنها وقعت فريسة لجرأتها ، فامتقع لونها وظلت مطرقة لأنها لم تجد جواباً تجيب به .

فتوسم عبيد الله من سكوتها خيراً ، وقال لها : « يظهر انك قد ندمت على تهجمك في مثل هذه الحال ، والعاقل من رأى العبرة في غيره فاعتبر . أما كفاك ما رأيت من فشل عبد الرحمن وطيشه حتى ألقيت بنفسك الى التهلكة . ولا ريب انك انما فعلت ذلك باغراء بعض الجهال ، والا فمن كان عنده ذرة من العقل لا يفعل مثل فعلتك . يطلبك الخليفة لتكوني عروساً له فتعمدي الى قتله وانت تعلمين ان حوله الجند والرجال . فالى أين تمضين ؟ فاذا قلت انك متعلقة بذلك الشاب الجاهل ، فاعلمي انه قتل واصبح في عداد الأموات منذ ساعتين » .

ولم يكن عبد الرحمن قد قتل بعد ، ولكن عبيد الله ظن ان يأسها منه يؤدي الى استسلامها . . ولكنه لم يبلغ الى هذا القول ، حتى شهقت سلمى شهقة اجفل لها عبيد الله ، واطلقت لنفسها عنان البكاء لأنها تصورت فشلها وفشل حبيبها وذهاب آمالها ادراج الرياح . فلما سمعت انه في عداد الأموات لم تستطع ان تمسك نفسها عن البكاء والنحيب .

فلما سمعها عبيد الله تبكي ، ظن أنها ندمت على ما فرط منها . . فجلس بجانبها على وسادة ، وقال بنغمة المشفق : « لا تبك يا سيدتي ولا تخافي . . فإذا كنت نادمة على ما فرط منك ، فأنا أتوسل الى أمير المؤمنين ليعفو عنك وأظنه يفعل» .

فلم تجب ، ولكنها كفت عن البكاء ولبثت صامتة ، وتحركت من مكانها لتبتعد عن عبيد الله ، وقد تحول خوفها إلى غضب ، واصبحت بعد سماعها بموت عبد الرحمن لا تبالي

بالحياة. . بل تتمنى الموت. ولو حدق عبيد الله من خلال النقاب لرأى عليها إمارات الغضب، وليست إمارات الخوف. ولكنه حمل سكوتها محمل القبول، فقال لها: « وأنا أضمن عفو الخليفة عنك إذا اعترفت بذنبك ولعنت أبا تراب».

فلم تعد سلمى تصبر على ما تسمعه ، فرفعت رأسها وقالت : « امضِ يا ابن زياد من أمام وجهي » .

فقال وهو يمازحها: « وهل تريدين أن ابعث امير المؤمنين ليكون العفو على يديه»؟

قالت: « ألا تزال تذكر العفو. . وممن اطلبه؟ أمن يزيد بن معاوية دقاق الطنابير ومعاقر الخمور. ولماذا اطلب العفو؟ ألكي ابقى حية، وأنت تقول انكم قتلتم عبد الرحمن؟. . آه منكم. . آه من ظلمكم. . قتلتم عبد الرحمن وجئتم تلتمسون بقائي. . اقتلوني فما لي رغبة في الحياة بعد الذين ماتوا قبلي. . » قالت ذلك وقد اختنق صوتها وهي تتجلد ولا تريد أن يبدو الضعف عليها وعبيد الله يعجب لجرأتها. وكان يختلس النظر الى وجهها من خلال النقاب، وهي تتكلم، فسحر بجمال عينيها وملامح فمها. . حتى إذا همَّ بمخاطبتها رآها عادت الى الكلام، فقالت: « ثم انتم تجعلون لعن علي شرطاً للعفو وهو أولى الناس بالفضل. . دعوني من عفوكم والحقوني بعبد الرحمن. . الحقوني به. . اقتلوني. . آه يا عبد الرحمن. . قتلوك قتلة الصالحين. . سفاكو دماء الأبرياء. . لا جرم . . أن لك اسوة بأولئك. . » ثم خنقتها العبرات، فسكتت. .

فأجابها عبيد الله وهو يخفف عنها : « يظهر انك لم تفهمي حقيقة حالك . انك متهمة بالشروع في قتل الخليفة متعمدة ، وهو انما بعثني لأقتلك . . فأشفقت على شبابك وأردت لك النجاة ، أهكذا يكون جوابك » ؟.

قالت : « لا جواب عندي غير هذا . . اذا كنت قد جئت لقتلي، فأنا اقول لك اقتلني . وما القتل الا من أسباب الراحة لي فاقتلوني . . اقتلوني » .

فقطع ابن زياد حديثها قائلا : « أتفضلين القتل وخسارة الدنيا والآخرة على ان تلعني علياً ، وتستغفري الخليفة . . وانا واثق بأنك لم تقدمي على هذا الجرم الا باغراء بعض الناس و . . » .

فقطعت كلامه قائلة : « لم يغرني احد ، ولكنني تعمدت قتله انتقاماً لأبي وابن عمي وسعياً في صالح المسلمين . ولم اقدم على هذا الا وانا على علم بما يهددني من خطر القتل . . فلم أوفق لما أريد . . فاقتلني ، فما انا خير ممن قتلتموه قبلي » .

فقال عبيد الله : « اني أنصحك نصيحة لوجه الله ان تقلعي عن هذه الحماقة ، ولا فائدة

من العناد . . فقد أصبحت وحيدة لا نصير لك الا ان تشفقي على شبابك وتطيعيني . إني والله اضن بهذا الوجه المليح ان يعفره هذا التراب » .

قالت : « لا تضن بشيء لا يضن به صاحبه . . اقتلني او اعطني هذا الخنجر فأغمده في أحشائي » ، قالت ذلك ومدت يدها الى الخنجر ، فأخفاه عبيد الله ثم قام وقد اعتقد ان الكلام معها لا يجدي نفعاً ، فتركها وعاد الى يزيد .

٦٠

ان لله جنداً من العسل

وكان يزيد في انتظاره على مثل الجمر ، وهو يود ان ترجع سلمى عن عزمها وتعتذر ، وتبقى عروساً له . فلما عاد عبيد الله قص عليه ما بدا منها من أوله الى آخره ، فعاد يزيد الى غضبه ، وقال : « قبحها الله من خائنة منافقة » .

فلما رآه ابن زياد في تلك الحال ، قال له : « ماذا يرى مولاي ان نفعل بها » ؟ .

قال يزيد : « أرى ان أقتلها حالاً بهذا الخنجر » .

قال عبيد الله : « انها تستحق القتل . . ولكني لا أرى ان تلوث يدك بدمها ، ولا ان تجعل احداً من أهل القصر يعلم بذلك » . قال يزيد : « وكيف اذن ؟ أأعفو عنها » ؟ .

قال عبيد الله : « اذا عفوت عنها كان ذلك من حلمك وسعة صدرك ، وكذلك كان يفعل أبوك رحمه الله . . فقد كان يسمع الإهانة من نساء بني هاشم ورجالهم ، فيسكت عنها وهو قادر على الانتقام . وكثيراً ما كان يقربهم ويمنحهم الهبات[١] وهو دهاء امتدحه العقلاء . . ولولا ذلك ما تيسر له تأييد سلطانه . فإذا رأيت ان تترفع عن الانتقام من هذه الفتاة وتخرجها من قصرك اتقاء شرها ، فعلت ما هو جدير بابن معاوية بن ابي سفيان» .

قال يزيد : « أتطلب مني الافراج عن هذه الخائنة بعد ان تحققت من عزمها على قتلي ؟ لا اظن ان معاوية كان يفعل ذلك في مثل هذه الحال » . قال عبيد الله : « اذا لم يكن السكوت عنها ممكناً ، فافعل ما بدا لك . ولكنني لا اريد ان يعلم اهل القصر ان هذه الفتاة تجرأت على الفتك بالخليفة لئلا يهون الاقدام على ذلك في عيون الأخرين » . قال يزيد : « ما العمل اذن » ؟ .

قال عبيد الله : « قلت لك افعل كما كان يفعل أبوك . . فاذا لم يكن من قبيل العفو

---

(١) المسعودي وابن الأثير والعقد الفريد.

بالحلم الواسع ، فعلى سبيل القتل بالعسل . . الا تذكر طبيبه النصراني ابن آثال » ؟ قال يزيد : « بلى».

قال عبيد الله : « ألم يكن ابوك يستخدمه في قتل اعدائه بالعسل المسموم » ؟ .
قال يزيد : « سمعت ذلك ، ولكنني لم اتحقق منه » . قال عبيد الله : « ألا تذكر لما أراد والدك ـ رحمه الله ـ ان يبايعك الناس ـ في حياته ـ ما كان من أمر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد»؟ قال يزيد : « واي شيء تعني » ؟ قال عبيد الله : « أعني ان اباك لما اراد ان يعهد بالخلافة اليك من بعده ، جمع اعيان اهل الشام اليه ، وقال لهم : « لقد كبرت سني ، ورق جلدي ، ودق عظمي ، واقترب أجلي ، وأريد ان استخلف عليكم . . فمن ترون »؟

فقالوا : « عبد الرحمن بن خالد بن الوليد»، فسكت وأضمرها، ودس ابن آثال الطبيب الذي ذكرته فسقى عبد الرحمن هذا قدحاً من العسل مسموماً، فمات والناس يحسبونه مات بعلة . وفعل ذلك أيضاً بالأشتر ، وكان علي بن ابي طالب قد أنفذه والياً على مصر بعد أن قتل محمد بن أبي بكر، فسير والدك الى دهقان العريش، فقال له : « ان قتلت الأشتر ، فلك خراجك عشرين سنة» . فسقاه السم في العسل فمات الأشتر ، وخلصنا من شره بطريقة سهلة هينة . وهكذا فعل ابوك أيضاً بالحسن بن علي لما رأى ما كان من حاله في أمر الخلافة، فدس الى جعدة بنت الأشعث زوجة الحسن، وقال لها : « ان قتلت الحسن، زوجتك يزيد، فدست له السم ، فلما مات الحسن بعثت جعدة الى ابيك تطالبه بك، فأجابها : « أني أضن بيزيد»، وقد مات في أيام أبيك كثيرون من اكابر الناس بهذه الحيلة .

وكان ابن آثال هو الذي يركب لهم السموم ويمزجها بالعسل[1] فهل كان ابوك عاجزاً عن قتلهم بالسيف ؟ كلا . . ولكنه كان يرى ان السم اهون سبيلاً ، حتى قال : « ان لله جنداً من العسل » ، فاذا كان لا بد من قتل هذه الفتاة ، فماذا يمنعك من ان تفعل انت ايضاً مثل ما فعل أبوك ؟ وما هي الا جرعة تشربهافتموت والناس يحسبونها ماتت بمرض . . وهذا طبيبك ابو الحكم خبير بانواع الأدوية ، وله وصفات مشهورة . . وكثيراً ما كان والدك ايضاً يستطبه ويعتمد عليه في تركيب العقاقير لمثل هذه الغاية » .

---

(١) طبقات الأطباء، الجزء الأول.

٦١
ابو الحكم الطبيب

فلما فرغ عبيد الله من كلامه ، قال يزيد : « اليّ بأبي الحكم في هذه الساعة » . فخرج عبيد الله الى غرفته ، فرأى شمر وكان في انتظاره هناك ، فقال شمر : « ماذا فعل الخليفة » ؟ .

قال: « لقد كشف المكيدة وتحقق من قولنا. أتعرف منزل أبي الحكم الطبيب النصراني» . ؟

قال شمر : « أعرفه . . انه بالقرب من هذا القصر » .

قال : « سر اليه . . وقل له ان أمير المؤمنين يدعوك اليه الساعة » .

فسار شمر ، ورجع ابن زياد الى يزيد ، فرآه جالساً وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً ، فجعل يهوّن عليه ويهنئه بالسلامة ، ومن قوله : « نحمد الله انه لطف بمولانا ، وكشف لنا نيات أعدائنا ، فلا تطلع الشمس الا وقد قتل هذان الخائنان وارتاحت البلاد من شرهما ، وذلك الا لأن الله مؤيد لسلطاننا بالرغم من أهل العناد » .

فانشرح صدر يزيد وقال : « بورك فيك يا عبيد الله ، وبورك في شمر . . انه والله ذو الفضل علينا ، وسنوليه عملاً يتمتع به ان شاء الله » .

وبعد قليل سمعا وقع اقدام بينها خفق نعال رومية ، فعلما ان الطبيب قادم . . ثم دخل شمر وهو يقول : « ان الطبيب بالباب » ، فأمر بدخوله .

وكان ابو الحكم شيخاً تدلت عى صدره لحية بيضاء ، وظهر الهرم على وجهه من تجعد بشرته . . وقد تزمل بردائه على عجل ، ووضع القلنسوة على رأسه بغير نظام من أثر السرعة . . فحيا الخليفة ووقف بين يديه، فابتدره يزيد قائلا : « أجلس يا أبا الحكم » . . فجلس . .

فقال يزيد : « أتدري لماذا دعوناك » ؟ .

قال ابو الحكم : « كلا يا مولاي » . .

قال يزيد : « دعوناك لنستعين بعلمك على مقاصد الخونة ، أهل الغدر » .

قال أبو الحكم : « اني ، وما اعلم ، بين يدي أمير المؤمنين » .

قال يزيد : « هيىء لنا جرعة عسل قاتلة ، واسقها في الفجر لفتاة تراها جالسة مع عجوزنا في المقصورة . . واحذر ان يعلم احد بذلك » .

قال ابو الحكم : « عجباً يا مولاي . . كيف تحذرني من هذا الأمر ، وأنت تعلم اني كنت

أفعل مثله بأمر أبيك ، ولم يعلم به احد » . .

قال يزيد : « فامض الآن وأعد العقاقير ، واستعن بحبيبنا عبيد الله على ذلك » .

فوقف الطبيب وقبل يد الخليفة وخرج . . ومضى الخليفة الى فراشه ، وسار عبيد الله الى غرفته . وقد سرّ شمر ببلوغ مأربه .

٦٢
عامر

فلنترك أبا الحكم يهيىء جرعة العسل . . ولنعد الى عامر وما كان من أمره بعد خروجه من الدير ، فانه خرج بالرغم منه وقلبه متعلق بسلمى خوفاً عليها مما عرضت نفسها له من الخطر العظيم . فاستظل في مكان يشرف على المارة حتى رأى موكب سلمى ماراً الى دمشق ، فانصدع قلبه وندم على ان وافقها على رأيها ، وأيقن انها وقعت في الفخ هي وعبد الرحمن ، وذهبت هباء .

ولبث مستظلا في الغوطة حتى توارى الموكب ، فلم يعد يستطيع صبراً على تتبع الخبر . . فمشى نحو دمشق وهو يفكر في سبيل يدخل به دار الخليفة ليستطلع احوال عبد الرحمن وسلمى ، وما زال سائراً حتى دخل دمشق . . فسار الى المسجد وهو يعلم ان دار الخليفة بجانب المسجد . فلما أقبل على الجامع رأى الصلاة قائمة ويزيد يخطب في الناس . فسجد مع الساجدين ، وأخذ يتفرس في الوجوه لعله يرى أحداً يعرفه ليستعين به او يسترشده . . فوقع نظره على شاب واقف بازاء اسطوانة من أساطين المسجد يسمع الخطبة . . وخيل له لأول وهلة انه يعرفه . فتفرس فيه جيداً فتذكر انه رآه في غير ذلك المكان ، وما لبث ان عرفه وهو الفرزدق الشاعر الشهير . وكان يومئذ في اول العقد الرابع من عمره ، لم يتزوج بعد (نواراً) . . وكان سبب معرفة عامر به ان والد الفرزدق جاء الى الإمام علي بعد وقعة الجمل بالبصرة (سنة ٣٦ هـ) ، ومعه ابنه الفرزدق ـ وكان صبياً ـ وقال لعلي : « ان ابني هذا من شعراء مصر ، فاسمع منه» ، فأجابه علي : « علمه القرآن »[1] . وكان عامر حاضراً في ذلك المجلس ، وأعجب بغيرة الامام على الدين. ثم شاهد الفرزدق بعد ذلك بأعوام في الكوفة ـ وقد صار شاباً ـ فذكره بما قاله الإمام ، فقال الفرزدق : « ان تلك الكلمة ما زالت ترنّ في أذني . . وقد قيدت نفسي عن الشعر ، فآليت ان لا أقول الشعر حتى احفظ القرآن » .

---

(١) الأغاني.

وكان عامر يعلم ان الفرزدق متشيع لأهل البيت سراً ، فرأى ان يستعين به في الأمر . فلما انقضت الصلاة وتفرق الناس ، سار في أثره يعرج نحو القصر . . فاعترضه وأوقفه وحياه ، فعرفه الفرزدق ورحب به ، فطلب الخلوة به . . فسارا الى منزله . فلما خلا كل منهما بالآخر ، شكا له عامر حاله حتى بكى . فاستغرب الفرزدق قصته ، وقال : « ما العمل الآن ؟ وما الذي استطيعه ؟ ان في الامر مشكلة ، ولا يستطيع أحد التظاهر بهذا الامر كما تعلم . ولو شاورني عبد الرحمن لأشرت عليه بالعدول عن عزمه ، لأن الأمر قد استتب لهؤلاء . . ولا حيلة في النجاة من أيديهم ، فلا يفيدنا التمرد شيئاً » .

فتنهد عامر وقال : « انه لم يقدم على ذلك برأيي ، ولكن لا خيرة في الواقع . . وانما اريد منك ان تصحبني معك الى مجلس الخليفة ، فأقف ببابه في جملة الشعراء . . لعلي أسمع شيئاً عما استقر عليه الرأي بصدد عبد الرحمن » . قال الفرزدق : « اني أجعلك روايتي » . وكان الشعراء في الجاهلية وأوائل الاسلام يصطحبون الرواة حيثما رحلوا ، ولكل شاعر راوية خاص يحفظ شعره ويروي أقواله الآخرين ، فاذا دخل الشاعر على الخليفة دخل راويته معه وجلسا متحاذيين . . فاستحسن عامر الرأي . . فتنكر في لباس الراوية وخرج مع الفرزدق حتى دخلا دار الخليفة ووقفا مع الشعراء ، ولم يأذن يزيد للشعراء بالدخول عليه في ذلك اليوم كما تقدم . وأما عامر فكان يستطلع الاحوال ويتنسم الاخبار . . وقد شاهد عبد الرحمن بنفسه عندما ساقوه مغلولاً للمرة الأولى ، ثم جاء أحد الذين كانوا معه وقص ما ظهر من بسالته وهو معجب بذلك . ولما استقدموه للمرة الثانية وجاء الرجل ـ بعد رجوعه ـ قصّ ما كان من أمر يزيد بقتله . فوقع عامر في حيرة وبحث عن الحجرة التي سجن فيها ، فعلم انها حجرة واطئة كانت في عهد الرومانيين حماماً يغتسل فيه والي دمشق . وأصاب عامر الجزع . فلم يستطع صبراً ، فأخذ يفكر في حيلة ينقذ بها عبد الرحمن ثم يفكر في سلمى .

٦٣
السرداب

فيما هو يعمل فكره ، تذكر الشيخ الناسك . فاستأذن الفرزدق وخرج مسرعاً الى الغوطة حتى اطل على الدير ، فالتمس الناسك عند الجوزة حيث لقيه في المرة الأخيرة . فسمع نباح الكلب قبل وصوله اليها ، فاستبشر وأسرع الى الجوزة فرأى الناسك متكئاً فوق حجر ، ولما سمع نباح الكلب جلس ونظر الى عامر . فلما عرفه أرخى شعره على عينيه وصاح به : « أين سلمى » ؟ قال : « انها يا سيدي في قصر يزيد ، لا ادري ما آل اليه حالها . وانما جئتك في أمر ذي بال لا أخال احداً يهديني فيه سواك » .

قال : « قل وتوكل على الله » . فقص عليه حديث عبد الرحمن باختصار حتى أتى الى آخر الكلام ، فقال : « وفي هذه الليلة يقتلونه ، سيقتله شمر اللعين بيده ، فما العمل » ؟ فظل الشيخ الناسك مطرقاً ولم يجب . فسكت عامر ايضاً لعلمه ان النساك وأصحاب الكرامات لهم مزاجات خاصة يستخيرون الله بها . ثم قال الناسك : « ألم تعلم أين سجنوا عبد الرحمن » ؟ .

قال : « انه مسجون يا مولاي في الحمام القديم في قصر يزيد » . فرفع الناسك رأسه وقال « ابشر بالفرج يا عامر ، ولكن يجب ان تكون رجلاً وتتشدد وتكابد الخطر في انقاذ عبد الرحمن » . فقال : « اني مستعد ان أفديه بروحي » . قال الناسك : « أتعرف الكنيسة جيداً » ؟ .

قال : «أية كنيسة يا مولاي»؟قال الناسك : «كنيسة النبي يحي التي جعل المسلمون نصفها جامعاً ، وهي بجوار القصر» . قال : « نعم أعرفها . . وقد كنت في صباي اذا جئت مع أهلي الى دمشق صليت فيها ، ونحن يومئذ على دين النصرانية مثل سائر أهل الكندة» .

قال الناسك : « لا يخفى عليك ان الجامع والكنيسة والقصر متلاصقة ومتجاورة » . قال : « نعم يا سيدي » . قال : « ادخل الجزء الباقي للنصارى الذين يصلون فيه ، ولا حرج عليك في الدخول . ولكن يجب ان تحتال في البقاء بالكنيسة الى الليل . فاذا اغفلت العيون ، سر الى جانب المحراب ، فتجد هناك رخامة مزينة بالفسيفساء على شكل أسد ، فاذا رفعت هذه البلاطة رأيت سلّماً قصيراً يؤدي الى سرداب تحت الارض . فامش في ذلك السرداب وانت تتحسس الجدران بيدك واجعل اعتمادك على اليد اليسرى . فلا تمشي بضع دقائق حتى تقبل على باب صغير يؤدي الى الحمام. فإذا وفقت للوصول اليه وجدت عبد الرحمن حياً، فحل قيوده وعد به في نفس السرداب، واجعل في هذه المرة يدك اليمنى دليلك ليطول بك المسير في اثناء رجوعك. ولا تخف لأنك ستصل بعد طول المشقة الى مكان خارج السور المدينة، فإذا نجوتما فعودا الي».

وكان الناسك يتكلم وعامر يصغي لقوله في اهتمام ، ولكن الشك ساوره فيما سمع ، وخاف ان يعتمد على هذه النصيحة فينقضي بقية اليوم في الانتظار ثم لا يجد سرداباً ولا سبيلاً ، وتكون الفرصة قد فاتت . فأراد ان يتحقق من نجاح مسعاه فقال : « هل يسمح لي مولاي بسؤ ال » ؟ قال : « لا تشك يا عامر فيما اقوله لك ، ولا تظن ان قولي من قبيل الظن او الخيال ، انني اعرف المكان جيداً ، وأمثال هذه السراديب كثيرة في دمشق ، وأكثرها كان أقنية

للماء من عهد الروم ، ثم اعتاضوا عنها بأقنية اخرى جديدة ، فظلت تلك السراديب خالية . ولا اخفي عنك انك قد تلاقي مشقة كبيرة في تخطي هذا السرداب لأنه مهجور من زمن قديم ، فلعله انسد في بعض اجزائه او تهدم في البعض الآخر ، ولذلك قلت لك ان هذا العمل يحتاج الى شجاعة واقدام » .

فاطمأن بال عامر وتحقق من وجود السرداب ، ولم يعبأ بما يحول دون المسير فيه ، ونهض فقبل يد الناسك وهو لا يرى وجهه فقبل الناسك رأسه ودعا له بالتوفيق ، فاستبشر عامر بدعائه لاعتقاده في كرامته ، واسرع الى دمشق وسار تواً الى الكنيسة ، وهو يعرف مدخلها ويسهل عليه التظاهر بالنصرانية لانه ما زال قريب عهد بها .

٦٤

الكنيسة

وصل عامر الى الكنيسة ساعة الغروب ، فاشتم رائحة البخور وسمع اصوات المنشدين وهو لا يزال في صحنها ، فعلم ان الناس في الصلاة . فدخل في جملة الداخلين ولم ينتبه له احد لأن أمثاله كثيرون من نصارى البادية ، وأكثرهم من عرب غسان ، فكانوا اذا نزلوا دمشق دخلوا كنائسها وسمعوا الصلاة فيها . وكان قد أسلم معظم الغساسنة على أثر الفتح ، إما فراراً من الجزية وإما تزلفاً الى المسلمين . ولكن جماعة كبيرة منهم كانوا لا يزالون على النصرانية، وقد أقاموا في البلقاء وحوران كما وأنهم كانوا يأتون الى دمشق للتجارة او نحوها فيدخلون الكنائس يلتمسون البركة بالصلاة، وهم لا يفهمون منها شيئاً، الا من كان يعرف اليونانية منهم. وكانت في دمشق كنائس أخرى غير هذه.

فلما دخل عامر كنيسة ماري يوحنا المشار اليها ، لم يستغرب أحد دخوله والتمس مجلساً منزوياً وجلس فيه والصلاة قائمة والاناشيد تصدح والبخور يتصاعد ، وهو يفكر في حاله وما هو مقدم عليه من الخطر الشديد . وما كان ليبالي بالخطر لو انه يثق بالنجاح . .

ونحو العشاء ، انقضت الصلاة وتفرق الناس . . فتظاهر هو بالنوم والضعف فلما خلت الكنيسة من المصلين وصعد القساوسة الى غرفهم ، دار الخادم (القندلفت) على الشموع وجعل يطفئها . . فلما رآه عامر يفعل ذلك ورأى الظلام يتكاثف تذكر سردابه ، وما قد يكون فيه من الظلام الحالك ، فقال : « لا بد لي من مصباح او شمع أستضيء به في طريقي » ، فعول على سرقة بعض الشموع ، ولكنه ظل خائفاً من الخادم . وفيما هو يفكر في ذلك دنا الخادم منه وكلمه مستفهماً عن غرضه . وكان الخادم من أهل دمشق ، وقد تعلم العربية .

فقال له عامر : « اني رجل مريض . وقد نذرت أن أبيت الليلة تحت صورة القديس يوحنا لعلي أبرأ من علتي . . » .

فأعجب بايمانه ، ولكنه استطال اقامته معه طول الليل ، فقد كان مكلفاً بغلق الكنيسة قبل انصرافه ، فقال له : « ولكنني أريد ان اغلق الكنيسة » .

فقال عامر : « اذا كنت خائفاً مني ، فاغلق الباب وخذ مفتاحه معك ، ودعني انام هنا الى الصباح لأني قد بدأت أشعر بالراحة . . فعسى ان ينفعني ايماني » .

فلم ير الخادم بأساً من بقائه طالما كانت البيعة مغلقة ومفتاحها معه ، فوافقه . وقد بالغ في اكرامه ، فجاءه بزيت من زجاجة مقدسة كانت في حق أمام ايقونة العذراء ، ودهن به رأسه ، وقال له : « ان بركة العذراء تعجّل بشفائك » ، فتظاهر عامر بالنوم ، فدعا له الخادم بالشفاء وتركه ، وأغلق باب الكنيسة وخرج الى غرفته . .

وصبر عامر برهة ، وهو ينظر الى الكنيسة وعلو سقفها وما تدلى من المصابيح والشموع وكلها مطفأة الا مصابيح صغيرة امام الايقونات الكبرى ، وفي بعض الايقونات صور كثيرة في حجم الانسان ظهرت له مجسمة ، وزادها فراغ المكان تجسمًا ورهبة . . فاقشعر بدنه وخيل له ان تلك الصور أشباح حية ترقب حركاته وأبصارها متجهة كلها نحوه . ثم تذكر عبد الرحمن وما هو فيه من الخطر ، فهب من متكئه وأصاخ بسمعه ، فلم يسمع صوتاً ولا حركة ، فتحقق من نوم الناس وقد مضى هزيع من الليل .

٦٥

عبد الرحمن وشمر

وكان قد راقب البلاطة التي وصفها له الناسك ، فسار الى جانب المذبح حتى وقف بقرب البلاطة فتأملها . . فاذا هي كبيرة وليس فيها موضع تمسك به ، ولا شق تسند الانامل اليه . . فاستل خنجره وعالج مكان اتصالها بما يجاورها ، وما زال يعالجها حتى تزحزحت وتوسم قرب اقتلاعها ، فأخذ يجمع الشمع ليحمله معه ويستنير به في ذلك السرداب ، وكله من الشمع الاصفر . فحمل شيئاً منه في جيبه ، واستبقى واحدة أشعلها من مصباح ، ورفع البلاطة بحذر وخفة لئلا يسمع لها صوت . ولم يكد ينقلها حتى احس بنسيم بارد خرج من السرداب وفيه رائحة عفنة ، فاستبشر بسهولة الطريق لأنه كان خائفاً من الاختناق . فنزل على درجات من الحجر والشمعة في يده حتى وصل الى قاع السرداب ، فغاصت قدماه في بقايا مياه وأوحال ، وحام البعوض حول الشمعة . . ولم يخط بضع خطوات حتى جاءته نسمة قوية

أطفأت الشمعة فأظلم السرداب ، فرمى الشمعة ومشى وهو يتحسس ويلتمس ويساره على الحائط وقد أحس برطوبته وقلبه يخفق ولا يسمع غير طنين البعوض ، ولا يرى شيئاً لشدة الظلام ، تارة يغوص في الاوحال وطوراً يعثر بالأحجار ، حتى انتهى الى مكان جاف . . فأسرع فيه وهو يحملق بعينيه ويصيخ بسمعه، لعله يرى بَصيصاً أو يسمع حفيفاً . .

وفيما هو في ذلك ، سمع صوتاً بعيداً لم يفهمه لبعده . . فأسرع في خطواته ويده اليسرى على الحائط والصوت يقرب منه حتى عثرت رجله بحجر ، فوقف وتفرس في المكان وتحسس الارض بأنامله ، فاذا هو عند آخر السرداب وأمامه درجات لا بد له من صعودها . وقبل ان يخطو عليها رأى نوراً ضعيفاً خارجاً من شقوق باب صغير في أعلى السلم ، وسمع قائلاً يقول : « لا تهددني بالقتل . . فاني لا أخاف الموت » .

فعلم عامر انه وصل الى السجن ، وعرف صوت عبد الرحمن ، فصعد الدرجات حتى دنا من الباب . . ووضع عينيه على ثقب فيه وحدق فيها هنالك ، فرأى رجلاً واقفاً كان بيده مصباح فوضعه على حجر بارز من احد الجدران ، ودنا من رجل آخر جالس والاغلال في يديه ورجليه ، وتفرس عامر في الرجل الواقف ، فعرف من بياض برصه انه شمر ، ورأى في يده سيفاً مسلولاً ، وعرف ان الجالس عبد الرحمن . ولم يكد عامر يرٰاهما ، حتى سمع شمر يقول : « يا للعجب من وقاحتك ووقاحة ابنة عمك . . انت تقول اقتلوني ولا أبالي ، وهي كذلك ، وأنتما مقتولان لا محالة . . قتلت سلمى في هذه الساعة وأتيت لأقتلك ولكنني قبل أن أخرج هذه الروح النجسة، أطلب اليك بأمر أمير المؤمنين ان تلعن عليا . . فإذا فعلت علمت أنك نادم على ما فرط منك من تعمد قتل الخليفة . . » .

٦٦
التهديد

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال : « اتخوفني يا شمر بقتل سلمى وهي بعيدة عنكم لا تنالها سيوفكم . . ؟ » .

فضحك شمر وقال : « أقول لك انك جاهل مغرور ولا تصدقني . انني قد سقت سلمى الى هذا القصر في هذا الصباح ليتزوجها الخليفة ، وقد ماتت منذ ساعة . وان شئت ان أخبرك كيف ماتت ، فأقول لك انها تجرعت السم بالعسل . . واما انت فسأميتك بحد السيف » ، قال ذلك وهز السيف بيده ، فاهتزت اعضاء عامر وتحفز لخلع الباب ، ولكنه رأى شمر قد وقف ولم يقترب من عبد الرحمن .

أما عبد الرحمن ، فلما تحقق من موت سلمى صاح صيحة قوية ، وتململ والاغلال تمنعه من الحركة . . فسمع عامر صلصلة أغلاله ، ثم سمعه يقول : « تباً لكم يا أهل الغدر . . أتقتلون سلمى وتلتمسون بقائي ثم تطلبون مني ثمن هذا البقاء ان ألعن خير الناس بعد الرسول ، تطلب مني يا شمر لعن علي . . آه . . ما العمل وقد قيدتم يدي ورجلي والموت أقرب الي من حبل الوريد ، ولكنني لا اخاف منه . عجل بقتلي يا أنذل الناس ، لألاقي حبيبتي في مكان لا غدر فيه ولا خيانة . ولكن . يا ليتهم اختاروا جلاداً غيرك لأني أكره ان اموت بسيف نذل لئيم مثلك » .

فقطع شمر كلامه وهز سيفه، وأجابه بفتور وصوت منخفض وهو يبتسم : « لم يختاروا غيري لهذه المهمة، وسأقتلك بهذا السيف الصقيل . . » .

فصاح عبد الرحمن : « اقتل ، قتلك الله . . ولو أبقيتم على سلمى لكنت آسف على الحياة من أجلها ، ولكنكم ارسلتموها الى النعيم قبلي . . فالحقوني بها . . آه يا سلمى يا ابنة حجر بن عدي . . قتلوك والحقوك بابيك . . قتلوك ، آه، ما أقسى قلوبهم . أقتلني يا شمر ولكن تمهل قليلاً . دعني أندب حبيبتي . أعوذ بالله من شروركم . كيف تقتلون فتاة طاهرة ؟ أما تخافون الله ؟ أما تخافون ذلك الموقف الرهيب ؟ . . هل بكيت يا سلمى على حبيبك قبل موتك ؟ هل تعلمين أني سألحق بك على عجل ؟ . . » .

فابتدره شمر قائلاً : « قد علمت سلمى أنك مت قبلها او أنك ميت بعدها، وقد كنت عازماً على استبقائك برهة لأتلذذ بعذابك، ولكنني أراك تطلب البقاء لتندب حبيبتك . . فما أنا مبق عليك . . وها أنا سأقتلك الساعة، فاختر لك موته»، قال ذلك ووخزه بطرف السيف في كتفه وهو يقهقه، فصاح فيه عبد الرحمن : « أضرب يا شمر . . أقتل اضرب عنقي . . » . قال ذلك وصر أسنانه، ثم قال : « آه لولا خوفي من ان تقول خاف عبد الرحمن من الموت لاستمهلتك لاندب سلمى . . » .

وكان عامر ينظر ويسمع ـ وكانت أول مرة سمع فيها بمقتل سلمى ـ وكان يحسبها في أمان . فلما سمع بقتلها ورأى ما رآه من شمر ، خاف ان يسبقه شمر بالسيف فيقتل عبد الرحمن فتتضاعف المصيبة . . فأسند ظهره الى جانب الباب ، وتجمع بكليته وخنجره مسلول بيده ، ورفس الباب رفسة كسره بها . . ووثب حتى وقف في وسط الحجرة . فاجفل شمر ووقع السيف من يده ، فهم ان يلتقطه . . فابتدره عامر بالخنجر وطعنه في جنبه فوقع يتخبط في دمه ، فظن عامر انه مات وتحول الى عبد الرحمن وحل قيوده وكسرها ، وعبد الرحمن مبهوت وهو يحسب نفسه في حلم ، ولا يدري ماذا يقول ، وعامر لم يزد على قوله : « لا تخف

يا عبد الرحمن . . جاءك الفرج ، وسكت وهو يشتغل بحل القيود ، ولم يبق في الحجرة صوت غير أنين شمر وهو ملقى على الأرض . .

٦٧

خطر آخر

فلما فرغ عامر من حل القيود ، قال له : « اتبعني » ، وعاد الى السرداب ، فمشى عبد الرحمن في أثره . . وقال له عامر : « أمسك بذيل ردائي ، فأمسك بذيله ومشيا وهما يلتمسان الحائط الى اليسار وعبد الرحمن لا يزال يحسب نفسه في حلم . . فقضيا في السرداب زمناً طويلاً ولم يخرجا الى النور. فظن عامر انه أخطأ الطريق ثم احس بانحباس الهواء عنهما وضاق تنفسهما ، فحدثته نفسه ان يعود . . ثم تذكر قول الناسك وما أنذره به مما سيلاقيان من المشقة والخطر ، فعول على الاستمرار في طريقه حتى اشتد بهما الضيق وأوشكا ان يختنقا من نترة العفونة وقلة الهواء . . ولحظ عبد الرحمن اضطرابه ، فقال له : « لا تأسف على حياتنا يا عماه . . لا بأس من موتنا معاً في هذا السرداب لا يعلم بنا احد فاني لا أرى الحياة عزيزة بعد موت سلمى . واما انت . . » .

فابتدره عامر قائلا : « ولا انا أحب البقاء بعدكما . . ولكنني لا احب ان نموت قبل الانتقام من هؤلاء الأشرار . . واأسفاه . . أرانا في خطر الموت اذا لم يدركنا منفذ نتنفس منه الهواء » .

فقال عبد الرحمن : « دعنا نموت يا عماه . . ما أحلى الموت ، فانه يقربنا من حجر وابنته . لا تأسف على الحياة بعدهما . ولكنني احب قبل الممات ان اعلم كيف قتلوها ، وما الذي أوصلها اليهم ، وكيف وقعت في الفخ » ؟.

فقص عليه عامر كل ما وقع مع سلمى بعد سفره ، وعبد الرحمن يعجب بشهامتها ويتنهد ويصر اسنانه حتى انتهى الحديث .

وفيما هما في تلك الحال، سمعا طرقاً على سطح السرداب فوقهما كأنه نبش بالمعاول. فقال عامر: « اني اسمع نبشاً، فعسى ان يكون الله قد فتح علينا »، فأصاخا بسمعيهما وإذا بصوت النبش يتعاظم، وبعد قليل رأيا التراب يتساقط عليهما فتقهقرا الى الوراء، ثم انفتحت كوة في السقف دخل منها نور ضئيل كأنه نور الفجر، وجرى النسيم فانتعشا. فقال عامر: «لقد فتح الله علينا باباً للفرج»، وهما بالمسير فسمعا جلبة، وفيها صوت رجل يقول لرفيقه: «إنهم أبوا الا ان يدفنوها في هذا الفجر، وما ضرهم لو صبروا الى الصباح».

فأجابه الآخر : « يظهر انك لم تفهم السر يا احمق ، ألا تعرف عادة الخليفة في مثل هذه الحال » ؟ قال : « وما هي عادته يا فصيح » ؟ .

قال : « ان هذه المسكينة لم تمت موتاً عادياً ، ولكنهم أماتوها بالسم ، وأظهروا انها ماتت بسبب المرض ، وكم من مرة جئت في مثل هذه المهمة في أيام معاوية ، فقد كان أكثر أرتكاباً لهذا المنكر . . وكلما اراد قتل رجل سقاه قدحاً من العسل وأمر بدفنه ، والناس يحسبونه مات بعلة . ولكننا قلما رأينا ذلك في النساء كما فعل ابنه . . » .

فقال ذاك : « وما عسى ان يكون من أمر هذه الفتاة وهي عروس الخليفة ، ولم تأت قصره الا في صباح الامس » . . . فقطع الآخر كلامه ، وقال : « ما لنا ولكثرة الكلام . . دعه يقتل من يريد ، ونحن نحفر القبور والله يطالب بالذنوب » . . . وكانا يتكلمان ويشتغلان في النبش ، فما أحسا الا والمعول قد وقع في السرداب ، فصاح احدهما : « اني أراني فوق بئر وأخاف ان يصعد الينا منها عفريت او جان » . . .

٦٨

النجاة

ولما سمع عامر الحديث ، ادرك انهما صارا تحت المقبرة خارج المدينة ، وعلم ان الرجلين يحفران قبر سلمى ، وعلم عبد الرحمن ذلك ايضاً فأحب ان يتكلم ، فأمسكه عامر بيده وأشار اليه ان يسكت ريثما يخرجان من السرداب . . فحبس عبد الرحمن نفسه ، ولكن الرطوبة والهواء غلبا عليه ، فعطس عطسة دوى لها السرداب ، فأجفل الرجلان وصاح احدهما : « ألم أقل لك ان المكان مسكون ؟ هيا بنا قبل ان تدركنا العفاريت » ، قال ذلك وفر ، وتبعه رفيقه . . ولم يمض قليل حتى خلا الجو من الاصوات . فمشى عامر وعبد الرحمن حتى خرجا من السرداب ، وتلفتا فاذا هما في مقبرة خارج المدينة وقد لاح الفجر فأسرعا في الخروج من المقبرة وعبد الرحمن يود البقاء ليرى سلمى ولو ميتة ، وعامر يلح عليه بالخروج لئلا يدركهما رجال الشرطة ، ثم أخذ يهون المصيبة عليه . . حتى اذا بعدا عن المدينة وأوغلا في الغوطة ، لجآ الى شجرة في موضع منعزل ، وقال عامر : « ارجع يا بني الى رشدك واصبر ، ان الله مع الصابرين . اننا شريكان في المصيبة يا بني . هيا بنا الى الشيخ الناسك ، فانه في انتظارنا قرب الدير فوق قبر حجر » .

فقال عبد الرحمن : « وسلمى ؟ أأتركها ؟ أتركها وحدها بين هذه القبور ؟ قال ذلك وقد غلب البكاء عليه ، فشاركه عامر في البكاء ، ولكنه تجلد وقال له : « تعقل يا عبد الرحمن

وتدبر الأمر بالحكمة . ان بقاءنا هنا او ذهابنا الى المقبرة او رجوعنا الى الشام لا يفيد شيئاً . فقد كنت والحق يقال في شك من مقتل حبيبتنا سلمى ، وكنت عازماً على البحث عنها . . اما الآن وقد تأكدنا من وقوع المصيبة ، فلم يعد لنا فائدة من البحث . فاذا كنا رجالاً صبرنا صبر الرجال ، وانتقمنا لقتيلنا بما يشفى غليلنا » . فقال عبد الرحمن : « نعم ننتقم ولكن بماذا ؟ انني لا ارضى الانتقام لسلمى إلا لقتل قاتلها الذي يسمى نفسه خليفة . . ان قتله والله عوض قليل عن حبيبة قلبي . . روحي . . ابنة عمي . . سلمى . . آه ، كيف اتركها تدفن وأنا حي ، وهي انما استقبلت الموت من أجلي . ولولاي لم تدخل قصر يزيد ، ولا أصابها ما اصابها حتى انها لم تتركنا وهي ميتة . ألم يكن قبرها ـ والهفي عليها ـ سبباً في نجاتنا من الموت ؟ لو لم يأت هؤلاء لحفر قبرها ، لكنا قُبرنا نحن قبلها ؟ نعم . يا ليتني قبرت ، وكان قبري تحت قبرها . فنكون متجاورين ، وبعد قليل تختلط عظامنا وتمتزج بقايانا كما امتزجت روحانا » .

قال ذلك وخنقته العبرات ، فأطلق له عامر حريته ، ولم يلمه لما يعلمه من خصال سلمى ، وهو يرى انها أهل لأعظم من ذلك . وبعد قليل عاد الى التخفيف عنه فقال : « ان سلمى تستحق اكثر من هذا ، ولو قتلنا انفسنا فداء لها لما وفيناها حقها . ولكن ذلك القتل يسر اعداءنا . وأما اذا تدبرنا الامر بالحكمة وسعينا للانتقام بتعقل ودراية وفزنا بثأرنا ، فان عظام حبيبتنا تنتعش في اعماق القبر » ، قال ذلك وتذكر ما أوصته به لما فارقها في الدير ، فالتفت الى عبد الرحمن وقال : «اعرني سمعك لابلغك وصية سلمى يوم سارت الى يزيد» .

فقال : « قل . . حدثني عن سلمى ماذا قالت » ؟ .

قال : « لما ودعتها في ذلك اليوم قالت لي . اذا انا مت وبقي عبد الرحمن حياً ، فحيّه عني وقل له : ان سلمى فضلت الموت في سبيل حبك على البقاء بعدك ، واذا بقيت انت حياً فان عظامها تتهلل في أعماق القبر » . فصاح عبد الرحمن : « أتموت هي في سبيل حبي ، وأراهم يحفرون قبرها فأهرب » ؟ .

٦٩

الحسين وابن الزبير

فابتدره عامر قائلا : « ولكنها قالت ان بقاءك حياً بعدها يفرح قلبها وهي في القبر . . هيا بنا الى الشيخ الناسك نستشيره ، انه والله ذو فضل علينا . ولولاه لم أوفق إلى انقاذك ، واني لا أشك في ولاية الرجل وكرامته » ، قال ذلك وقام . . فنهض عبد الرحمن ، ومشيا في

ان يدعو الناس الى بيعته ، ويصبر على ذلك . فلما أتى مكة تقاطر اليه الناس ليبايعوه ، ولكن بعض الناس أشاروا عليه ان يقدم الى الكوفة ويستنصر أهلها . وأشار عليه آخرون بالبقاء في مكة يستظل بالحرم ، لان أهل الكوفة لم يفلحوا في نصرة ابيه من قبله . وأظنه بعث ابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة ليرى رأي أهلها في قدومه اليهم. فاذا تمت له بيعتهم وجاء الكوفة فسيبايعه أهل العراق والحجاز فيتم له الأمر ويفشل يزيد ، وفي فشله انتقام كاف لكما. . فاذهبا الى مكة وانصرا الحسين، انه أولى الناس بهذا الأمر . وحثا الناس على نصرته وعلى خلع يزيد والله ينصركم أجمعين».

فلما سمعا قوله استحسناه، ونهضا للحال فودعاه . . فبكي لوداعهما، وقبّل رأسيهما وهما لم يريا وجهه ، فأوصاهما بسرعة الخروج من الشام لئلا يعلم بهما يزيد او أحد رجاله .

٧٠
تشرب السم !

فلنتركهما في طريقهما الى مكة، ولنعد الى دمشق لنرى ما تم لسلمى بعد ان أمر يزيد بتجريعها العسل . . ذلك ان الخليفة لما افترق عن عبيد الله والطبيب، وسار يلتمس فراشه مرّ بالحجرة التي كانت سلمى فيها ، وكانت العجوز واقفة بالباب تنتظر أمره، فأشار اليها ان تنقلها الى المقصورة وتحتفظ بها هنالك.

وكانت سلمى بعد خروج عبيد الله بن زياد من عندها قد أيقنت بفشلها ، وتحققت من وقوعها في الشرك . . ولكنها أصبحت لا تبالي بالحياة بعد ما سمعته عن مقتل عبد الرحمن . على انها كانت تودّ ان تنتقم له قبل موتها . وراجعت ما مرّ بها من الأهوال في تلك الليلة ، فرأت أنها لو استطاعت أن تكتم نوازع نفسها وأطاعت يزيد واستسلمت له فيما التمسه منها من لعن عليّ لتمكنت من الفتك به، ولكنها رأت ان تلك المداهنة فوق طاقتها وعلى غير السجايا التي فطرت عليها . . فلم تندم على كلمة قالتها .

وفيما هي تردد تلك التصورات في ذهنها ، دخلت العجوز واستأذنتها في اصطحابها الى المقصورة . . فأطاعتها وهي لا تبالي بما هنالك من الموت أو الحياة . فمشت في أثرها حتى صعدتا الى المقصورة ، فدخلت سلمى وظلت العجوز بالباب.

وقعدت سلمى على ذلك الفراش، ونظرت الى ما بين يديها من آنية الخمر والشموع

والفاكهة . . وتذكرت جلوس يزيد الى جانبها وما دار بينه وبينها من الحديث ، وكيف انها بعد أن كادت تبلغ غايتها منه، عادت العائدة اليها. ثم تذكرت حبيبها مقتولاً يتخبط في دمه، فاقشعر بدنها. . واستغرقت في التأملات وهي لا تدري ماذا سيصير اليه أمرها .

وفيما هي في ذلك، سمعت وقع أقدام على السلم ، فخفق قلبها ولبثت تتوقع ما يكون. . واذا برجل دخل المقصورة وعليه العباءة والعمامة وفي يده قدح. فلما رأته أطرقت وظلت صامتة. فدنا الحكيم منها ، وقدم لها القدح وهو يقول : «اشربي هذا العسل بأمر أمير المؤمنين فانه قد ينعشك».

فأدركت انه مسموم فتناولته ويدها ترتعش، وقالت : «سأشربه وأنا أعلم أنه سمّ قاتل. . فلا تطمئني، بل قل لي اشربي هذا السم».

قال: « كيف عرفت انه سم. . وأنا أقول لك أنه عسل»؟ قالت : « أنا اعلم انه سم. . وأرجو ان يكون كذلك. لأنه إذا أماتني أراحني من هذه الحياة. . فقل انه سم ليطمئن بالي، واعلم اني لاحقة بحبيبي على عجل». قالت ذلك وخنقتها العبرات.

فتأثر الحكيم لكلامها، ولكنه تعود أن لا يكون حساساً ، فتظاهر بالاستخفاف وقال: «اشربيه مهما يكن من أمره ، اذ لا بد من شربه».

فرفعت يدها وهي ممسكة بالقدح ، وقالت : «اني أشرب هذا السم باسم الله ، وأرجو ان يلحقني بالامام عليّ وان يقربني من أبي وابن عمي». ، ثم نظرت الى القدح ، وقالت : «بورك فيك من دواء قاتل وسم محيي . . اني اشربك باسم الحق والعدل ، واطلب من الله ان ينتقم لي ولأبي ولابن عمي من هذا الرجل الظالم»، وأدنت القدح من فمها ثم ارجعته وقد غلب عليها الضعف ، ونظرت الى ما حولها كأنها تودع الدنيا وما عليها. ثم قالت: «الا تسمحوا لي برؤية عبد الرحمن ولو مقتولاً ؟ بالله اروني اياه قبل موتي لأبكيه وأندبه . . أيموت عبد الرحمن على قيد اذرع مني ولا أراه ؟ اهذا عهدي بك يا عبد الرحمن ؟ أين أنت ؟ وكيف قتلوك ؟ هل قتلوك بالعسل أم بالسيف ؟ بماذا ؟ تعال وانظر الى خطيبتك وهي تتجرع السم بلذة وشوق لأنه سيجمعها بك . هل علمت قبل موتك أنك ستلاقيني عاجلاً ؟ هل انبأوك قبل ان يقتلوك بأنهم سيقتلونني الآن ؟ يا ليتهم أخبروك بذلك فتتأسى بقرب لقائي . والا فانك تموت وانت مشتاق للقائي».

اطراف الغوطة بحيث لا يشعر بهما احد حتى اقتربا من الجميزة . فرأيا الناسك راقداً فوق قبر حجر . وقبل وصولهما نبح الكلب ، فجلس الناسك وتطلع ، فلما رآهما قادمين أرخى شعره على وجهه ، ونادى عبد الرحمن فلباه ، وهو يبكي ويقول : « ما بالك لم تسألنا عن سلمى » ؟ .

فوقف الناسك على قدميه ، وصاح : « ماذا فعلوا بها ؟ لا . . لم يقتلوها » . . فقال عبد الرحمن : « صدقت ، انهم لم يقتلوها بالسيف . . ولكنهم قتلوها بالعسل ، قتلوها يا مولاي » . فأطرق الشيخ الناسك ويده على لحيته وهو ينتفض ويرتعد ، وقال : « ومن اخبركم بذلك » ، فقص عليه عامر ما كان من امرها . فقال الناسك : « ان الله لا ينصر القوم الظالمين » . فقال عبد الرحمن : « أرشدنا يا شيخنا . . اننا لا نرى سبيلاً الى الحياة بغير الانتقام . . الانتقام ، آه ما احلى الانتقام » .

فبهت الشيخ هنيهة ، ثم قعد وهو يقول : « أخرجا من هذه البلاد ، لم يبق لكما فيها مأرب » .

قال عبد الرحمن : « كيف نخرج منها ، وقد دفنوا سلمى فيها » ؟ .

قال : « اخرجا الى شركائكما في الثأر . . اخرجا الى مكة فان ابن بنت الرسول ، وهو المطالب بالخلافة ، وهي حق له وحده . اذهبا اليه على عجل وانصراه ، فاذا فاز بها يتم لكما الانتقام . ان البقاء هنا لا يجديكما نفعاً ، والأمر اعظم مما تظنان » .

فقال عامر : « وكيف ذلك يا مولاي . . ماذا حدث » ؟ .

قال : « لا أزيدكما علمًا بأن يزيد هذا لما مات أبوه ، وقام يدعو الناس الى بيعته ، كان الحسين معه في المدينة ، وغيره من أبناء الصحابة وفي جملتهم عبد الله بن الزبير بن العوام . وكان عامل يزيد على المدينة يومئذ الوليد بن عقبة بن أبي سفيان (ابن عمه) فكتب الى الوليد يخبره بموت معاوية ، ويطلب اليه ان يأخذ البيعة من الحسين وعبد الله بن الزبير . فوصله الكتاب وعنده مروان بن الحكم ، فاستشاره في الامر فقال مروان : « أرى ان تدعوهما الساعة وتأمرهما بالبيعة »فبعث اليهما وكانا في المسجد . . فلما وصل الرسول اليهما وأخبرهما بطلب الوليد قالا : « انصرف الآن وسوف نأتيه».. وقال ابن الزبير للحسين : « ترى لماذا بعث

الينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها»؟ فقال الحسين: « أظن طاغيتهم قد هلك ، فبعث الينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يشيع بين الناس الخبر». فقال ابن الزبير: « وأنا لست أظن غير هذا، فماذا تريد أن تصنع»؟ قال الحسين: « اجمع فتياني الساعة ثم امشي اليه واجلسهم على الباب وادخل عليه».

قال عبد الله : « اني اخاف عليك إذا دخلت». قال الحسين: « لا آتيه الا وأنا قادر على الامتناع.

ثم قام وجمع اليه اصحابه وأهل بيته حتى أقبل على باب الوليد ، وقال لأصحابه : «اني داخل، فاذا دعوتكم او سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ جميعا ، والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم». ثم دخل الحسين على الوليد، فسلم ومروان عنده. فقال الحسين: «الصلة خير من القطيعة، والصلح خير من الفساد ، وقد آن لكما ان تجتمعا . . أصلح الله ذات بينكما». وجلس . . فأقرأه الوليد الكتاب ونعى له معاوية ودعاه الى بيعة يزيد، فاسترجع الحسين وترحّم على معاوية ، وقال : «اما البيعة فان مثلي لا يبايع سراً ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا . فقال له الوليد: (وكان يحب المسالمة) : «انصرف». فقال مروان للوليد : «اذا فارقك الساعة ولم يبايع ما قدرت منه على مثلها ابدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فاما بايع والا ضربت عنقه » . ؟ فوثب عند ذلك الحسين وقال : يا ابن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله». ثم خرج الحسين وتوجه على الفور الى منزله ، فقال مروان للوليد: «عصيتني ، لا والله لا يمكنك من نفسه بمثلها ابداً ، فقال الوليد: «والله يا مروان ما أحب ان يكون لي ما طلعت عنه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وان أقتل حسينا ان قال لا أبايع ، والله اني لا أظن امرءا يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة». قال مروان : «قد أصبت » . ، قال هذا وهو غير حامد له رأيه .

«وأما الزبير، فلما أتاه رسول الوليد قال: « الآن آتيكم». ثم أتى داره فتحصن فيها ، ولما بعث اليه الوليد وجده قد جمع أصحابه واحترز ، فألح عليه الوليد وهو يقول : «امهلوني». فبعث اليه الوليد مواليه فشتموه وقالوا له : «يا ابن الكاهلية لتأتين الأمير أو ليقتلنك». فقال لهم : «والله لقد استربت لكثرة الأرسال ، فلا تتعجلوني حتى أبعث الى الامير من يأتيني برأيه». فبعث اليه أخاه جعفر بن الزبير ، فقال جعفر للوليد : «رحمك الله . . كف عن عبد الله فانك قد أفزعته وذعرته ، وهو يأتيك غداً ان شاء الله تعالى . . فمر رسلك لينصرفوا عنه . فبعث الوليد اليهم فانصرفوا ، وخرج ابن الزبير من ليلته ، فأخذ طريقة الى مكة . . هو وأخوه ليس معهما ثالث . فسرح الوليد الرجال في طلبه فلم يدركوه ، فرجعوا وتشاغلوا عنه بالحسين ليلتهم. فقال لهم الحسين: «أصبحوا ثم ترون ونرى » . فكفوا عنه، فسار من ليلته ، وأخذ معه بنية وأخوته وبني أخيه وجل أهل بيته . وكان ذلك بعد ليلة من خروج ابن الزبير» .

واستطرد الشيخ : «وقبل ان يخرج الحسين من المدينة، أشار عليه اخوه محمد بن الحنفية

ثم وقفت ، وقد هاجت عواطفها وتبدلت حالها وظهر الهياج في عينيها، وقالت : «هل قتلوك حقيقة ؟ لا . . لا . . لم يقتلوك ، أظنهم اشفقوا على شبابك ؟ ولكنهم قوم طغاة لا يعرفون الشفقة، ولولا ذلك ما استهانوا بالنبي وقتلوا نخبة الصالحين من أهل البيت ، فلا غرو اذا هم قتلونا . . نعم قتلوك . . قتلوك . . وأين أنت يا عامر ؟ عماه اين انت ؟ هل تعلم بمصيري وهل ما زلت تحفظ وصيتي ؟ ماذا يكون من أمرك اذا سمعت بمقتلي ومقتل حبيبي ؟ هل انت على وعدك ؟ امضي الى تربة ابي وابكه عني ، واسكب عليه الدموع ، ومزق الضلوع . . بل ابك الاسلام واندب المسلمين لما أصابهم من الحيف بخروج الخلافة إلى هؤلاء الظالمين».

وكانت تتكلم والحكيم واقف لا يبدي حراكاً ، وقد ظل صامتاً وهو يعذر الفتاة، ويعجب بشهامتها وقوة عارضتها .

أما هي ، فأدنت القدح من فمها ثانية ، ونظرت الى ما فيه ثم التفتت الى الحكيم ، وقالت : «أخشى ان يكون السم قليلا لا يكفي لقتلي فأتعذب ، فاذا كان قليلا اضف اليه سمًّا آخر».

فقال الحكيم بهدوء: «اشربي يا بنية ولا تطيلي الكلام ، فقد نفذ الوقت وفات الأجل الذي ضربه الخليفة لي».

قالت وهي تهز رأسها وتصرّ اسنانها: «اتخاف هذا الرجل الظالم ولا تخاف الله ؟ اتركب العقاقير القتالة لقتل الأبرياء ثم تخاف من لوم يزيد اذا تأخرت في قتلهم ؟ ولكنكم تضافرتم على الظلم وتحالفتم على الخيانة ، ويل لكم من مشهد يوم عظيم ، في مكان لا ينفعكم فيه سلطانكم ولا جنودكم . يوم تأتي الساعة وينفخ في الصور وتقفون بين يدي الديان العظيم».

فقطع الحكيم كلامها قائلاً : «لا تكثري من الكلام واشربي القدح عاجلاً».

فقالت: «اني أشربها ولا أخاف منها ، لانها ترياق لمصابي ، ولكن أريد ان أرى عبد الرحمن ، أين هو؟ آه . . قتلتموه ، نعم قتلتموه ، ولكن ماذا فعلتم بذلك الجسد الطاهر ؟ هل مثلتم به؟هل دفنتموه أم بقي مطروحاً؟آه، أني أرى اعضائه تختلج ودمه يجري وكأني اسمع شخيره في أذني، هل ذكرتني يا عبد الرحمن قبل موتك ؟ هل ذكرت سلمى ؟ هل تمنيت ان تراها قبل موتك ؟ يا ليتهم قتلونا معاً ودفنونا في قبر واحد فتمتزج دماؤ نا وتختلط عظامنا ، ويا ليتهم يدفنوننا بجانب حجر بن عدي ، فنشكو له ما لقيناه وما يقاسيه المسلمون وما يتوقعه الاسلام من الفوضى . ولكننا سنلتقي به عما قليل في مكان لا وشاية فيه ولا ظلم ولا رياء. ونبث له الشكوى . لقد أزفت الساعة وآن لي ان ألاقيكما . أستودعك الله أيها العالم الفاني .

أستودعك الله أيتها الحياة الزائلة . انك مملوءة بالشرور ، ولا عدل فيك ولا حق» . ، ثم أدنت القدح من فمها ، وهي تقول : «اشرب هذا الكأس باسم الله» . وشربتها جرعة واحدة ويدها ترتجف ، واستلقت على الفراش وهي تتلو الفاتحة وتردد اسم عبد الرحمن .

٧١
لم تمت ولكنها نائمة

ولم تمضي برهة حتى غابت عن الدنيا وشفتاها تتحركان ، كأنها تخاطب عالم الارواح ، وقد امتقع لونها وبردت أطرافها ، فخرج الحكيم وأغلق الباب ونزل ، وكانت العجوز قد نزلت ساعة دخوله .

أما هو فظل سائراً الى غرفة عبيد الله بن زياد ، وكان في انتظاره على مثل الجمر ، فدخل عليه وأغلق الباب وراءه ، فقال له زياد : «ماذا فعلت أيها الحكيم» . ؟ .

قال : «لقد سقيتها العسل» . قال عبيد الله : «وهل فعلت ما وعدتني به» . ؟

فضحك وقال : «وما الذي وعدتك به» .

قال عبيد الله : «ألم أطلب اليك ان تبدل السم بالنبج ، وجعلت لك مكافأة على هذا الجميل» . ؟ قال وهو يضع يده على كتف عبيد الله : «نعم اني وعدتك بذلك ، وهكذا فعلت . .

فالفتاة لم تمت ولكنها نائمة» ، ومدّ يده الى جيبه وأخرج قارورة وقال : «واليك هذا العقار في هذه القارورة ، فاذا سقيتها إياه أفاقت . ولكن احذر ان تبقيها بعد افاقتها ، فيعلم أمير المؤمنين بها وتدور الدائرة عليّ» .

قال : «لا تخف من ذلك لأني سأخبر الخليفة بموتها ، وأرسل من يحفر قبرها ثم أبعثها الى مكان خارج المدينة وهي نائمة كأنها محمولة الى القبر ، ومتى أفاقت أبقيتها خارج دمشق حتى أسافر فأحملها معي ولا يعلم بها أحد سواي ، وأنا لم أود استبقاءها الا لأملي في ردها عن عزمها ، فاذا فعلت ذلك رضي أمير المؤمنين عني وعنك وشكرنا على هذا الصنيع ، ، لانه قد أعجب بجمالها ، ولولا غضبه الليلة لم يأمر بقتلها ، ولا شك في أنه اذا اصبح ندم على ما فعله أما انت فابق على كتمان ذلك ، ولك مني فوق ما أعطيتك» .

فشكره الحكيم ، وانصرف . . .

وكان عبيد الله بعد ان أمر يزيد بقتل سلمى قد خلا بالحكيم ، واسترضاه بالمال الكثير على أن يضع البنج بدلاً من السم ، حتى اذا احتال في اخراجها من القصر الى القبر ذهب بها الى مكان منفرد يقيم فيه ، واسترضاها لعلها تقبله زوجاً لها . وكان لا يزال متعلقاً بها ، وأمله كبير في استرضائها، فلما أخبره الحكيم بما فعله،سار توا الى يزيد وأنبأه بموتها، فقال له : «ابعث من يدفنها قبل طلوع النهار». فأمر اثنين من رجاله ان يكفناها ، وبعث آخرين حفر القبر. وأوصى الاولين ان يحملاها الى مكان منفرد خارج المدينة حالاً ، وتظاهر بأنه أرسلها الى المقبرة .

وعاد اللذان حفرا القبر قبل الفجر مذعورين لما رأياه من خروج عامر وعبد الرحمن ـ وهما يحسبانهما عفريتين ـ فقصا الخبر على عبيد الله ، فأمرهما ان يقصاه على الخليفة ، لعل ذلك يفيده اذا علم الخليفة ببقائها حية فيما بعد . . ففعلا

٧٢
المسلمون في الكوفة

وفي صباح اليوم التالي ، أبطأ يزيد في الخروج الى المجلس لأنه قضى ليلته الماضية ساهراً فنام في الصباح ولم يستيقظ الا عند الظهر، فجاء الى المجلس، وعبيد الله غائب، ولم يكد يستقر في الجلوس حتى دخل عليه الحاجب وهو يقول: «ان بالباب رسولاً من الكوفة».

قال : «فليدخل».

فدخل رجل عليه مظاهر السفر ، وبيده كتاب ، فسلّم ودفع الكتاب الى يزيد ، فتناوله وفضّه فاذا هو من عبد الله بن مسلم أحد اشياع بني أمية في الكوفة ، فقرأه واذا فيه بعد البسملة :

«الى أمير المؤمنين يزيد بن معاوية من عبد الله بن مسلم ، أما بعد : اعلم يا أمير المؤمنين ان الناس في الكوفة والبصرة قد ضعف أمرهم بضعف أميرهم النعمان بن بشير ، فقد وليته الكوفة وهو رجل ضعيف أو هو يتضاعف حتى كاد الامر أن يفضي الى أعدائنا ، فاذا كان لك حاجة في الكوفة ، فارسل اليها رجلاً قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك . وتفصيل الخبر ان أهل الكوفة لما بلغتهم وفاة معاوية رحمه الله، وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير عن البيعة ، ارجفوا بأمير المؤمنين واجتمعت شيعة علي في منزل احد كبارهم فذكروا مسير الحسين الى مكة وكتبوا اليه كتابا قالوا فيه

«بسم الله الرحمن الرحيم، سلام عليك، فاننا نحمد الله الذي لا إله الا هو أما بعد: فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي أجترأ على هذه الأمة، فابتزها أمرها وغصبها فيأها وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها، وانه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق، والنعمان بن بشير في قصر الامارة لا نجتمع معه في جمعة ولا عيد، ولو بلغنا اقبالك الينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»، وأرسلوا هذا الكتاب الى الحسين في مكة، وبعثوا اليه كتباً أخرى في مثل ذلك. وكان جملة ما ارسل من هذه الكتب نحواً من مائة وخمسين صحيفة وأرسلوا اليه رسلاً عديدين، فجاءهم من الحسين كتاب قال فيه:

«أما بعد، فقد فهمت كل الذي قصصتم، وقد بعثت اليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته ان يكتب الي بحالكم وأمركم ورأيكم، فان كتب الي انه اجتمع رأي ملتكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم أقدم اليكم وشيكاً ان شاء الله. فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام».

«وقد حدث مثل ذلك يا أمير المؤمنين في البصرة أيضا. أما الحسين فانه أرسل الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل، وأمره اذا رأى الناس مجتمعين على بيعته ان يعجل اليه ويخبره بذلك.

وقد جاء مسلم الى الكوفة بعد ان قاسى في طريقه عذاباً عظيماً من العطش ونحوه، ونزل في دار من دور أشياع الحسين، وصارت الناس تختلف اليه وهو يقرأ عليهم كتب الحسين فيبكون ويعدونه بالقتال والنصرة. فلما بلغ ذلك النعمان بن بشير صعد المنبر، وقال:

«أما بعد، فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة، فان فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال، واني لا أقاتل من لم يقاتلني ولا أثب على من لا يثب عليّ ولا أنبه نائمكم ولا اتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمه، ولكنكم ان أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم، فوالله الذي لا اله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمة بيدي، ولا يكن لي منكم ناصر ولا معين، اما اني ارجو ان يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يريد به الباطل».

«فلما رأينا كلامه لا يفيد القطع ولا يدل على الحزم قام اليه واحد منا وقال له: «ان هذا لا يصلح الا الغشم وانه رأي المستضعفين. فلم يكن جوابه الا قوله، لان أكون من المستضعفين في اطاعة الله أحب اليّ من أن أكون من الأعزين في معصيته». فزادنا قوله خوفاً منه، فكتبت هذا ليكون أمير المؤمنين على بصيرة ويعلم ان ابن بشير لا يصلح لهذا الامر فأرسل الينا من يعمل

مثل عملك [1] والسلام».

٧٣

عبيد الله على الكوفة

فلما قرأ يزيد الكتاب ، تغيرت حاله وتشاءم بما ارتكبه بالامس وخيل له انه أذنب، بقتل سلمى وهي فتاة ، وندم على فعله وأراد صرف مجلسه ليخلو ببعض خاصته ، فقال : «على بركة الله». فعلم أعضاء المجلس انه يريد صرفهم، وتلك كانت عادته كلما أراد ذلك [2] ، فانصرفوا . ثم بعث الى سرجون وهو رجل رومي ذو دهاء وحكمة ، كان معاوية يعتمد عليه في شؤونه ويستشيره في أموره حتى جعله كاتبه[3] فلما مات معاوية ظل يزيد على ثقته في سرجون ، فلما أشكل عليه أمر هذا الكتاب استقدمه اليه وخلا به وأطلعه على الكتاب، فأطرق هنيهة ثم قال : «أرأيت اذا بُعث معاوية هل تأخذ رأيه» ؟.

قال : «نعم . .».

فمد سرجون يده الى جيبه وأخرج كتاباً وقال : «خذ هذا ».

فأخذه يزيد وقرأه فاذا هو عهد لعبيد الله ابن زياد يوليه به الكوفة . .

فقال يزيد : «وما هذا» ؟.

قال : «هذا رأي معاوية ، فانه مات وقد امر بهذا الكتاب» .

فاستصوب يزيد الرأي، وعول على ان يولي ابن زياد الكوفة والبصرة، فنادى الحاجب وسأله عن عبيد الله . . فافتقده في القصر فلم يجده، فصبر حتى جاء ودخل وسلم[1] فدفع يزيد كتاب عبد الله بن مسلم اليه، ولم يقل شيئا . .

فتناول ابن زياد الكتاب وقرأه حتى أتى على آخره ، وسكت وهو مطرق . . ثم دفع يزيد اليه كتاب العهد على الكوفة والبصرة ، فلما قرأه قبله ووضعه على رأسه ، وقال : «اني صنيعة أمير المؤمنين ، ويده التي يحارب بها ، وسهمه الذي يرمي به أعداءه . .».

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

(٢) العقد الفريد، الجزء الاول.

(٣) ابن الاثير ، الجزء الاول.

(١) وفي التاريخ ان هذا الخبر لما جاء الى يزيد كان ابن زياد في الكوفة، وكان يزيد متغيراً عليه.

فقال له: «سر الى الكوفة وأصلح آمورها، وامنع أولئك الناس منها؛ وكن لي كما كان أبوك لأبي». فقال: «سمعاً وطاعة». وقد سره ذلك لأنه سيخرج من دمشق سريعاً فيخلو له الجو مع سلمى، ولا رقيب عليهما.. وكان قد بعث سلمى سراً قبل الفجر الى بيت منفرد في اطراف الغوطة، كما تقدم - ثم سار هو في الصباح اليها وسقاها العقار الذي اعطاه إياه الحكيم، وانزوى في بعض اطراف الغوطة. فلما أفاقت ورأت النور، وهي لا تزال في عمرة السكر، ظلت برهة مبهوتة لا تدري ماذا تقول وعبيد الله لا يخاطبها وفي اعتقاده أنها إذا افاقت ورأت نفسها حية اعترفت له بالجميل. فلما أفاقت تبادر الى ذهنها - لأول وهلة - أنها بعثت من الموت وأنها في العالم الآخر، فصاحت: «أين عبد الرحمن؟ أين هو؟ أروني إياه.. هل أنا في النعيم؟ عبد الرحمن.. عبد الرحمن..»، فضحك عبيد الله.. فلما سمعت ضحكته، التفتت اليه وهي تفرك عينيها بأناملها، ولما رأته صاحت: «أنت هنا يا لئيم؟.. إني إذن في الجحيم.. إذهب من امام عيني». فدنا عبيد الله منها، وأمسك بيدها، وقال: «أنت في هذه الدنيا يا حبيبتي، وقد استبقيتك شفقة عليك». فجذبت يدها من يده وصاحت: «اخسأ يا نذل.. إنني لا أريد الحياة إلا إذا كان عبد الرحمن فيها.. اقتلني.. قتلك الله.. أشفق علي واقتلني..» فعذرها، وقال لها: «اني لا اعاملك بما تستحقينه لأنك جاهلة، وسأصبر عليك ريثما تملكين روعك، وأنت اسيرة بين يدي لا ينجيك من غضبي غير الرضا والإذعان.. فامكثي هنا حتى ترجعي الى رشدك أو تموتي»، قال ذلك وتركها وحدها، وأمر الرجلين أن يقوما بحراستها ريثما يعود.. فلما رجع الى دمشق، ووجد أن يزيد قد ولاه الكوفة والبصرة، استبشر بتحقيق امنيته على مهل، وعلل نفسه باسترضائها في أثناء الطريق الى الكوفة.

٧٤

خرائب تدمر

قضى عبيد الله بضعة أيام، وهو يتأهب للمسير، وأعوانه يهيئون الاحمال خارج دمشق... وفي جملتها هودج حمل سلمى فيه على جملين، وأقام عليها خادميه حارسين يقدمان لها الطعام والماء. وكانت في بادىء الامر لا تقبل طعاماً ولا شراباً التماساً للموت جوعاً وعطشاً حتى نحل جسمها وامتقع لونها وضعفت قوتها، ولكن الحياة عزيزة لا يتعمد المرء خسرانها عن روية وصبر... وانما هو اذا أصيب بضنك شديد فضل الموت على الحياة في حال حدته

وغضبه ، فاذا طال اصطباره حن الى البقاء والتمس لحينه عذراً يحبب اليه الحياة فلما مضى على سلمى يومان بغير طعام او شراب ، ورأت الموت لا يتهيأ لها على هذا السبيل الا بعد العذاب الطويل عادت الى الفطرة البشرية، فالتمست البقاء لتسعى الى الانتقام من سبيل آخر لا خطر فيه على حياتها. وقد علمت من قرائن الاحوال انهم سائرون بها الى الكوفة، وان الحسين سائر اليها أيضاً، وان الناس في الكوفة على دعوته. فتوسمت في البقاء خيراً، ورغبت في ان تحيا حتى تنتقم لوالدها وخطيبها. . فجعلت تتناول من الطعام والشراب ما تسد به رمقها. وكان عبيد الله ــ على طول الطريق ــ يتردد على سلمى، تارة يستعطفها، وطوراً يهددها، وآونة يمنيها، وأخرى يخوفها، وهي ترفض رفضاً باتاً. وكثيراً ما كانت تسمعه كلاماً مؤلماً، وهي تعلم ان الجفاء لا يجديها نفعاً، وانها لو عاملته بالحسنى واستخدمت اللين والدهاء لنالت بغيتها. . ولكنها لم تكن تستطيع التغلب على انفتها. وكانت من ناحية أخرى، تخاف ان هي جاملته في الكلام أن تطمعه فيما تخافه وتنفر منه. . .

قضت في مثل ذلك خمسة ايام ، والركب سائر في الصحراء نحو الشرق والشمال في ارض لا عمران فيها ولا ماء الا بعض الآبار . وسلمى تشغل نفسها في اثناء الطريق بالاشراف من الهودج على ما يحيط بها من الصحراء القاحلة . . على انها كثيراً ما كانت تتحاشى شق الاستار فراراً من الرياح الحارة وما تحمله من الرمال . واشرفوا في صباح اليوم الخامس على بقعة منبسطة ، ادهشها منظرها . . حتى انها نسيت ما هي فيه من الامور العظام . ورأت بقعة من الارض مساحتها بضعة اميال قد غطتها ابنية خربة ، وفيها الجدران العالية والأساطين الشامخة والأسوار الغليظة بين متهدم ومتداع ، وقد استولى عليها السكون وتمكن منها الخراب كأنها جثث بالية او عظام نخرة ، على ان حجارتها كانت تنطق بأجلى بيان عما كان هنالك من العظمة وشدة البطش في قديم الزمان . تلك هي خرائب تدمر الذائعةالصيت. . تدمر العظيمةالتيزهت في أوائل النصرانية، وسارت بذكرها الركبان. وقد كانت واسطة عقد التجارة بين العراق والشام حتى اذا تداعت الى الخراب جعلوها موقفاً للقوافل في اثناء الطريق بين هذين البلدين

عمرت تدمر في اوائل القرن الثاني للميلاد على أثر سقوط دولة الأنباط في شمالي جزيرة العرب وغربيها ، فاستولى عليها الرومان سنة ١٣٠ م ، فازدهرت واتسعت تجارتها ، وكانت مع ذلك مستقلة بشرائعها واحكامها يتولى النظر في شئونها مشيخة من اهلها . . ومد الرومان

بينها وبين دمشق طريقاً تسير فيه المركبات ، وعليها اصناف التجارة من الانسجة والآنية والمئونة، وبنى التدمريون في مدينتهم أبنية على طراز يعرف بالطراز التدمري، أقاموها على الاساطين المنحوتة وفوقها تماثيل من الحجر الابيض المائل للحمرة. ويقطع المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي طريق واسع - في اوله قوس نصر بجانب هيكل هائل، يعرف بهيكل الشمس أشبه شيء بهيكل بعلبك - وطول الطريق ألف وثلثمائة متر، تحف به الاعمدة من الجانبين في رواقين عدد اساطينها الف وخمسمائة اسطوانة لونها أبيض مائل الى الحمرة. وفي الاروقة دكك ومصاطب مستطيلة، كانوا يسندون اليها الاحمال الواردة الى تدمر من اقاصي المعمورة، وفيها طرود (بالات) الحرير والديباج الدمشقية وصناديق الانية اليونانية وجلود الماشية المحمولة من جزيرة العرب على جمال يسوقها بدو من اهل الحجاز. واحمال من جرار صنعت بفلسطين . وكانت اسواق تدمر حينذاك تعج بالمارة عجيجاً وهم اخلاط من الامم المتمدنة في ذلك العهد ، وفيهم النخاسون من مصر وآسيا الصغرى والتجار من الفرس والشام والأرمن ، والمرابون والصيارف من اليهود ناهيك بباعة السلع الصغيرة يحملون سلعهم على اكتافهم ينادون عليها في الدروب والحارات ، فتختلط اصواتهم بنداء باعة الملح ، لان الملح كان من اعظم تجارات هذه المدينة .

٧٥

العبرة والموعظة

ولو أتيح للقارىء ان يزور تلك المدينة في ايام مجدها على عهد الملكة زنوبيا في القرن الثالث للميلاد ، لبهره ما كان فيها من دلائل الترف والبذخ ، وعلم من الفرق البعيد بين قصورها واكواخها ان الثروة كانت منحصرة في فئة قليلة من اهلها ، وان تمدنها كان شرقياً لا رومانياً ولا يونانياً . وكأن التدمريين تشبهوا بقدماء المصريين في استبقاء مجدهم بعد موتهم ، فبنوا لانفسهم قبوراً كالقصور شادوها بالأحجار الهائلة في اكتاف المدينة . . فكانت قبورهم مدينة اخرى سكانها من الاموات . ولو بعث التدمريون بعد ذلك ببضعة قرون ، لرأوا قصورهم اشد وحشة من قبورهم .

اشتهرت تدمر في اواسط القرن الثالث للميلاد بالملكة زينوبيا ، فطمع فيها الرومان في الغرب والفرس في الشرق ، وقامت حرب بينهما ظلت سجالاً حتى تغلب الرومان فملكوها ، ولكنها لم تدم لهم ولا لغيرهم . . فلم تمر بها اجيال حتى اصبحت في زوايا الاهمال ،

وتحولت قصورها الى خرائب ، وصارت هياكلها حجوراً للثعالب والثعابين ، وأوكاراً للطير . . ونعق على منابرها البوم ، بعد ان كانت مقصد الخطباء والوعاظ .

ولو عقل ابن زياد يوم اشرف على تلك الخرائب ، وعرف تاريخ تلك الاثار ، لعلم مصير الانسان ، وانه لا يبقى من مجده الا ما كسبت يداه من خير او احسان ، وقال مع الإمام علي : « ان الدنيا دار أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب . . من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن » ، وخجل لما ارتكبه هو وولي امره من ضروب العسف ، ولهان عليه ان يطلق سراح اسيرته شفقة على صباها ورحمة بما في قلبها من لوعة الحزن على حبيبها عبد الرحمن .ولكنه جهل ذلك او تجاهله ، واندفع في تيار الشهوات . . ولم يزدد في تلك الخلوة الا قسوة ، ولم يعد يصبر على نيل بغيته حتى يصل الى الكوفة ، فأمر بحط الرحال . . ونصب الخيام فنصبوها على مرتفع يشرف على تلك الخرائب الناطقة ، وفيها بقايا الاسواق والهياكل والقصور والقبور . وامر ان يقيموا هناك يوماً كاملاً يستريحون فيه ثم يرحلون . واناخ هودج سلمى في مكان بعيد عن معسكره بقرب هيكل الشمس ، وشغل اعوانه بانزال الأحمال ، وسار هو الى سلمى وكانت جالسة كئيبة تتأمل في حالها وتصبر نفسها حتى بلوغ الكوفة ، ولم يخطر ببالها ما نواه ابن زياد . فلما وصل الى خيمتها امر الحراس ان يبتعدوا ففعلوا ، فدخل واذا هي جالسة على بساط ، وقد أثر السفر والتعب والحزن في جسمها ، فهزلت وامتقع لونها ورقت وجنتاها وذبلت عيناها وارتسم العبوس على محياها .

٧٦

الفتك

فلما رأته داخلا بدا لها ان الشر يضطرم على وجهه ، فاستعاذت بالله . . وكأنه ادرك خوفها ، فتلطف في سؤالها عن حالها ، فلم تجب . . فقال لها : « قومي يا سلمى واتركي الخيمة ، وادخلي هذا القصر وتأملي صنعه » . فأدركت انها اذا امتنعت ساقها بالعنف فطاوعته ، ومشت حتى دخلت الهيكل ، فأعجبت بما رأته من سعته وارتفاع جدرانه وكثرة اساطينه ، فان مساحته كانت نحو مائتي متر مربع وجدرانه من حجارة هائلة يبلغ ارتفاعها سبعين قدماً ولا يزال معظمها قائمًا . وفي صحن الهيكل أساطين ضخمة شامخة متراصة في صفوف متداخلة ، ويزيد عدد الأساطين على مائة وخمسين اسطوانة ما عدا المتساقط منها والمتهدم .

فلما رأت نفسها في تلك الخربة الهائلة مع ابن زياد ، وليس معهما ثالث ، ارتعدت

فرائصها وتحققت وقوع الخطر . وكان الضعف قد تمكن منها ، ولم تعد تقوى على الدفاع ، فاصطكت ركبتاها وعجزت عن المسير ، فأسندت نفسها الى اسطوانة بجانبها حجر كبير جلست عليه وهي ترتعش . . فأدرك عبيد الله حالها ، فعمد الى الرفق بها ، فجلس الى جانبها وهو يحاول ان لا يلمسها لئلا تجفل ، وقال لها : أتعلمين يا سلمى انك وحيدة في هذا المكان وان حياتك بيدي . واني سأنال منك ما اريد ولو بلغ صراخك عنان السماء ، اذ ليس هنا من يسمع صوتك غير هذه الاحجار، ولطالما نصحتك وانت تدافعينني وانا اعاملك باللين واللطف حتى طفحت الكأس وآن لك ان ترعوي . . فما ضرك لو اقلعت عن جهالتك وأصغيت لنصيحتي واطعتني ، فتكونين زوجتي . . وانت تعلمين اني يد امير المؤمنين وسيفه الذي يناضل به ، وقد ولاني الكوفة والبصرة ، فاذا ركنت الى العقل وأطعتني كنت سيدة نساء الكوفة ، واذا شق عليك لعن ابي تراب فلا اكلفك لعنه . وانما اطلب اليك ان توافقي على ان تكوني زوجة لي ، فأعطيك ما تريدين ، وتعيشين معي في نعيم تتمناه كثيرات من امثالك » .

فظلت سلمى ساكته . .

فقال لها : «أراك ساكتة ، فهل سكوتك هذه المرة مثل سكوتك بالأمس في دار الخليفة ، ام هو دليل على رجوعك الى الصواب ؟ ويكفيني برهاناً على ذلك ان تعطيني يدك فأقبلها » ، قال ذلك ومدّ يده اليها . فلما سمعت كلامه ورأته يمد يده ، وقفت وتباعدت . . ولكنها شعرت بالضعف ، وتحققت انها اذا جافته فعل بها ما يشاء ولا تقوى على دفعه . على ان نفسها لم تضعف مثلما ضعف جسمها ، فلم تستطع غير ان تجافيه ، فلما دنت يده منها دفعته وصاحت بأعلى صوتها : « أتغتنم ضعفي يا عبيد الله وتستبد بي ، وتزعم اننا في خلوة لا يرانا فيها احد ؟ الا تعلم ان الله يراك وهو قادر على إذلالك كما أذل بناة هذه القصور ، وكانوا ملوكاً فأصبحوا تراباً ؟ خف من الله يا ابن زياد ، واشفق على ضعفي » .

فقال لها : « لقد صبرت كثيراً ، واكثرت من الرفق بك حتى لم يبق مكان للصبر عندي . . فاعلمي انك الآن تقفين بين الحياة والموت . فاذا رجعت وأطعتني حييت سعيدة مكرمة معززة ، وإلا فاني أصلبك الى هذه الاسطوانة ، ثم أطعنك بهذا الخنجر ، واتركك طعاماً لطيور السماء » ، قال ذلك وأشار الى خنجره . فعظم الأمر على سلمى وغلب عليها اليأس ، وأيقنت بدنو أجلها ، فبسطت كفيها الى السماء ، وصاحت بأعلى صوتها : « اني استجير بك يا رب العالمين يا نصير المظلومين . . استجير بك من هذا الباغي الأثيم . فابعث إلى من لدنك من يأخذ بناصري وينقذني. إشفق على فتاه لا ذنب لها إلا الانتصار لنبيك والغيره على أهل بيتك الطاهرين».

كلب الناسك

وكانت سلمى تتكلم ، والصدى يدوي في تلك الخرائب ، وهمّ ابن زياد ان ينتهرها . . فاذا بكلب ينبح بين الاساطين ونباحه يقترب نحوهما . ولم تمضى برهة حتى دنا الكلب واذا هو اسود كبير ، فلما راته سلمى علمت انه شيبوب كلب الناسك . . فاستغربت وجوده في تلك الخرائب ، ولم يكن عبيد الله أقل استغراباً منها . اما الكلب فوثب على عبيد الله وهو ينبح نباحاً شديداً دوى له المكان دوياً عظيماً فاستأنست به وخيل لها انه جاءها بالفرج القريب.

هي

أما عبيد الله فلما رأى الكلب قد وثب عليه استل خنجره وطعنه في ظهره طعنة غاص بها النصل الى نصفه ، فعوى الكلب عواء شديداً من شدة الألم ، وانثنى مسرعاً حتى خرج من الهيكل .

والتفت عبيد الله الى سلمى ، وقال : « كأني بك قد أستأنست بهذا الكلب ، وحسبته فرجاً جاءك من ربك . . فها قد قتلناه ، واذا بقيت على غيك ألحقناك به ومزجنا دمه بدمك » ، قال ذلك والخنجر بيده والدم يقطر منه .

فقالت : « اغمد خنجرك في صدري ، وارحني من رؤ يتك » .

قال : « سأفعل ذلك بعد ان اتركك ساعة وحدك تستخيرين فيها نفسك » ، قال ذلك وحل عمامته وربط بها اكتافها من الوراء وشدها الى الاسطوانة ، وتناول نقابها وقيد به رجليها وتركها مصلوبة مكشوفة الوجه ، وخرج وهو يقول : « استخيري الله في نفسك . . وسأعود اليك بعد ساعة فاذا بقيت على وقاحتك اغمدت خنجري هذا في صدرك وتركتك بين هذه الخرائب طعاماً للغربان . . واذا رجعت عن غيك سرت بك مكرمة الى الكوفة » .

خرج عبيد الله وغادرها مصلوبة تئن من ضغط الوثاق ، فصغرت الدنيا في عينيها ، وعلمت ان العفة لا تصان الا اذا فديت بالروح ، فآثرت الموت . . ولكنها استثقلت ان يطول عذابها على غير طائل ، وودت لو انه اسرع بقتلها لتنجو من ذلك العذاب . ثم تذكرت شيبوباً ، وشق عليها موته في سبيلها على غير فائدة لها ، وعادت الى التفكير في مجيئه الى تلك الديار . . فلم تجد سبباً سوى انه رأى الركب ماراً بالغوطة ، فلحق به التماساً للطعام .

وظلت سلمى مصلوبة على تلك الاسطوانة ، وافكارها تضطرب في عالم الخيال لا يحلو لها غير التفكير في عبد الرحمن . فلما تصورت موته هان عليها كل شيء وتمنت ان تلحق به . . لكنها استبطأت اجلها واستنكفت ان تموت على تلك الصورة ، وهي لم تنتقم له .

٧٨
الفرج القريب

وفيما هي غارقة في لجج الهواجس ، سمعت خربشة وأنيناً ، ثم رأت شيبوباً مسرعاً اليها وقد جمد الدم على جرحه وانسكب على كتفيه الى قوائمه . وقد فتح فاه واندلع لسانه وهو يلهث من التعب فنادته سلمى فدنا منها وذيله لاصق بساقيه ثم ألقى نفسه بين رجليها وقد أخذ منه التعب مأخذاً عظيًا، وأغمض عينيه ومدد رجليه وهو يئن أنين النزع.

ولم تكد سلمى تتأمله وتأسف لحاله حتى رأت الشيخ الناسك بين يديها ، وهو يحل وثاقها بأسرع مما يستطيعه الشاب في عنفوان شبابه . فبغتت لرؤ يته ولم تفه بكلمة ، وكانت حركته واشاراته تشير اليها ان تسكت . فلما حل الوثاق أومأ اليها ان تسرع امامه فأسرعت ، ثم حمل كلبه على ذراعيه وسار حتى سبقها ، فسارت في أثره لا تنبس ببنت شفة . ولكنها استغربت ذلك الاتفاق وحسبته معجزة من المعجزات ، وكان الشيخ يسير ثم ينثر التراب على آثار الدم في الطريق حتى لا يستدل بها احد الى مكانه .

وبعد مسير نصف ساعة بين الاحجار والعمدان ، وصلا الى باب ضيق انحدرا فيه على درجات غير منتظمة ، والكلب على ذراعي الشيخ . وقبل الدخول ، عمد الشيخ الى حجر سد به الباب حتى لا يشك من يراه انه خال مهجور، ثم دخلا حتى اختفيا عن العيون، ووصلا الى مصطبة تحت الارض لا ينفذ اليها النور الا من خلال الباب . فجلس الناسك وأجلسها ، ووضع الكلب بين يديه على المصطبة ، وأخذ في البكاء والنحيب وهو يخاطبه ، وسلمى ساكتة تنظر الى ما يبدو منه ، فاذا هو يقول : « أسفي عليك يا رفيقي وصديقي ، واحسرتاه عليك ايها الخادم الامين . لقد ختمت حياتك بشهامة يعجز البشر عن مثلها . انك حيوان اعجم ولكنك خير من الناطقين ، لأنهم ينطقون بالباطل ويستخدمون تلك الهبة السامية لارتكاب المنكرات واتيان المعاصي ، وانت لا تعرف غير الخير ، صحبتك منذ بضعة عشر عاماً وانت رفيقي وأنيسي . صحبتك بعد ان مللت صحبة الانسان وعرفت شرور بني آدم . ما أبلغ عجمتك وما اقبح نطقهم ! نعم انك حيوان اعجم ، ولكنك أنقذت نفساً ناطقة ، انقذت هذه النفس الطاهرة من منكر اوشك ان يرتكبه معها انسان يزعم انه ارقى منك خلقاً وأسمى عاطفة . وهو لا يفضلك الا بقدرته على بث الدسائس ونصب المكائد . قوتل الانسان ما اكثر شره وأقل خيره ! وهو يفتخر مع ذلك انه سيد المخلوقات . ما صحبتك الا وانا اعرف فضلك وارى خيرك . ولكنني لم اتوقع مصيرك الذي صرت اليه . وما حسبت

يوماً أنك تبلغ الموت قبلي»قال ذلك وهو ينظر الى كلبه، والكلب يتمطى ويختلج ويجيل عينيه ويعاني عذاب النزاع وسلمى تنظر اليهما ولا تستطيع ان تمسك عن البكاء. وكان أكثر بكائها على ما اصابها من فقد حبيبها، وقالت في نفسها: «اذا كان الشيخ يبكي كلبه لأمانته وصدق مودته، فكيف لا ابكي حبيبي وابن عمي وقد ذهب ضحية أمانته في خدمة الحق»؟

٧٩

فلسفة

وكان الشيخ يبكي ودموعه تنحدر على لحيته، ثم تتدحرج حتى تنسكب على الكلب وتختلط بدمائه. ثم رفع الشيخ بصره الى سلمى، وقال لها: «لا تعجبي يا بنية لما ترينه من بكائي على حيوان اعجم، فانه خير عندي من أولئك الآدميين، ألا ترينه ذكر صحبتك ومات في سبيل انقاذك؟ ولكنه لم يمت رخيصاً. انه ذكر صحبة يوم او يومين، فلما اشتم رائحتك بين هذه الخرائب ـ وكان نائماً الى جانبي ـ نهض كالليث الكاسر وأسرع اليك، ثم عاد ودمه يفور من جرحه لشدة الطعنة، وكأنه اشار إليّ ان الحقه فتبعته. وفيما انا بين هذه الاساطين، رأيت ذلك الرجل اللئيم خارجاً من الهيكل ولا عمامة على رأسه، والخنجر بيده وهو يهم باغماده. فلما أتيت اليك ورأيتك مربوطة الى الاسطوانة، ادركت انه ربطك تهديداً فأنقذتك، والفضل لهذا الحيوان الذي ترينه يقاسي غمرات الموت بين ايدينا. فمن يفعل ذلك من الآدميين؟! كم من رجل تربينه في حجرتك وتطعمينه من طعامك ثم يكون وبالاً عليك»؟.

فتصورت سلمى احوال البشر ومظالم بني الانسان ومطامع اهل الشرور، وكيف انهم يضحون بالفضيلة على مذبح الاغراض، فقالت: «صدقت يا مولاي، ان صحبة هذا الكلب خير من صحبة كثيرين، ولكن القضاء نفذ فيه.. ولا عجب فتلك عاقبة اهل الفضل من المخلوقات الناطقة ايضاً».

فتنهد الشيخ وتغيرت سحنته، وكأنه أفاق من غفلته، والتفت الى الفتاة وعيناه تقدحان شرراً، وقال: «ويدلك ذلك على صدق ما وعد به ربك من العقاب والثواب.. والا فان الحياة ضرب من العبث لان العدل في هذه الدنيا غريب تائه لا يعرف مأوى. ولا نرى في أعمال الناس غير المظالم الفادحة. نرى الاشرار في رغد وهناء وسعادة ونرى الابرار يقاسون مر العذاب.. وما كان ربك ليفلت الظالمين. ستأتي ساعة تلقى فيها كل نفس ما كسبت ان خيراً وان شراً.. وويل للذين ظلموا من مشهد يوم عظيم..».

فشعرت سلمى والشيخ يتكلم كأنه ينطق بلسان اهل السماء ، فقالت : « نعم ولا بد من ذلك . كيف لا وقد رأينا خير الصالحين يقتلون بسيوف الظالمين ، وهؤلاء يعيشون في سعة وسلطان . والله عادل . . فلا بد من يوم ينال فيه كل امرىء ما كسبت يداه » .

ثم سكت كلاهما، والشيخ يمسح دموعه، ثم قال :«هلم بنا ندفن هذا الصديق الامين ، فقد بكيناه وسنبكيه كلما لقينا سروراً » ، قال ذلك ونهض فحفر حفرة ، وكان الكلب قد مات، فدفناه فيها وسلمى تتوقع ان تسمع من الشيخ خبراً . . وتذكرت ما شاهدته من كراماته في دير خالد، فقالت لعله ينبئني بشيء ينفعني . . فلما عاد الى المصطبة همت بمخاطبته ، فاذا هو يفرك أنامله وقد أطرق كأنه يفكر في امر هام . . فأمسكت هي عن الكلام هيبة له واجلالا . اما هو فقال لها : « وما الذي جاء بك يا سلمى الى هذه الديار ، وقد كنت سمعت بمقتلك » .

فلما سمعت قوله استغربت اطلاعه على سر قتلها ، ثم تذكرت ما تعلمه من كرامته ، فزال استغرابها وقالت : « قتلوني يا سيدي ثم احيوني . . ويا ليتهم ابقوني ميتة لألقى حبيبي » ، قالت ذلك وخنقتها العبرات . .

ففهم الشيخ انها تحسب عبد الرحمن مقتولاً ، وهو يعلم انه حي . فأراد ان يستشف مبلغ علمها بما جرى ، فقال : « وهل قتلوا عبد الرحمن » ؟ .

قالت : « أتسألني عن قتله وانت اعلم مني بذلك ، وقد أوتيت الكرامة وعلم الغيب . . » ؟ .

٨٠

الكوفة

فصمت الشيخ وأطرق ، وقد ادرك ان سلمى تظن ان عبد الرحمن قد قتل . وحدثته نفسه ان يخبرها ببقائه حياً ، ولكنه رأى ان بقاءها على اعتقادها اقرب لنيل ما يتمناه وما عقد النية عليه من نذر النسك ، فظل صامتاً وهو يتردد بين ان يطلعها على بقاء حبيبها حياً او ان يسكت على ذلك . .

اما هي فمسحت دموعها ، وقالت : « ولكنني لا اعلم ما جرى لعامر . . هل علم يا ترى بما أصاب عبد الرحمن وما اصابني . . واين هو الآن » ؟ .

فتجاهل الشيخ برهة ، ثم قال : « لا شك انه علم بمقتله ، وهو يعتقد انك قتلت ايضاً ولا أدرى اين هو ، فلعله سار الى المدينة او الكوفة ، ولا يبعد ان يكون قد قتل نفسه يأساً

وأسفاً » ـ

فلطمت وجهها ، وقالت : « واأسفاه عليك يا عماه . . واحسرتاه على آمالك ، ويا لخسارة ما قضيته من سني الشقاء في خدمتنا . اني لا الومه اذا قتل نفسه . . » .

فأراد الشيخ ان يشغلها عن البحث في مسألة عبد الرحمن ، فسألها عن كيفية نجاتها ، فقصت عليه الحديث من أوله الى آخره ، ثم قالت : « وها انا قد نجوت من الموت وانا اشتهي ان أموت ، الا اذا كان في بقائي خدمة للمسلمين . فالآن اما ان تقتلني وتدفنني في هذه الخرائب ، او ترشدني الى سبيل للانتقام . . الانتقام . . الانتقام » .

فقال لها : « أتريدين الانتقام . . » ؟ .

قالت : « كيف لا أريده وهو وحده يحبب الي البقاء ، والا فلألحق بحبيبي عاجلاً وهو أشهى لديّ من اي شيء » . .

قال : « اذا كنت تطلبين الانتقام ، فانك تلقينه في الكوفة » .

قالت : « لا أبالي اين هو ولا كيف هو ، وانما اريد الحياة من اجله . . فاذا قتلت يزيد وابن زياد ، او رأيتهما مقتولين ثم مت ، فان ذلك الموت حياة لي » . .

قال : « اعلمي يا بنية ان الحسين ارسل ابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة ليدعو الناس الى بيعته ، فبايعه منهم ثمانية عشر ألفاً[1] فاذا جاء الحسين الى الكوفة تمت البيعة فيفشل ابن زياد ، فيقتلونه ثم يسيرون الى الشام فيحاربون يزيد ويقتلونه ايضاً» . .

ولم يتم الشيخ كلامه حتى اشرق وجه سلمى من الفرح، وقالت :«آه! . . يا حبذا ذلك! . . هل أراه ولو في المنام؟ . . هل أقتل يزيد؟ . . هل أقتل ابن زياد؟ . . اني أريد ان أقتلهما بيدي . . ولكن قل لي يا عماه ، هل عرفت ذلك يقيناً»؟ .

قال : « اني أقول الصحيح الذي لا ريب فيه ، فامكثي معي هنا بضعة ايام ريثما ينصرف هؤلاء القوم الى الكوفة ثم نلحق بهم ، ومتى وصلنا الى الكوفة أنبئك بماسيكون » .

أما ابن زياد ، فانه ترك سلمى مصلوبة وهو لا يشك انها لا تلبث ان تذعن له وتخاف من بطشه . فلما عاد الى الهيكل ورأى بقايا الوثائق ولم يرها غاب رشده ، وأخذ يبحث عنها بين الاساطين في الهيكل وخارجه ، وأرسل رجاله يفتشون عنها في كل مكان فلم يقفوا لها على أثر . وما زال في البحث يومين حتى ملّ ، ورفاقه يلومونه على التأخير والحالة تتطلب السرعة ليتداركوا ما حل بأهل الكوفة من الخوف على البيعة هناك . فحمل أحماله وسار يلتمس الكوفة ، وهو يلتفت وراءه ، ولا يصدق ان سلمى خرجت من يده على هذه الصورة . ولو أطاعه رفاقه لما خرج من تدمر قبل الوقوف على مكان سلمى ، ولو أدى به ذلك الى نقض أحجار تلك الخرائب حجراً حجراً . .

وكان أهل الكوفة قبل وصوله قد لقوا مسلم بن عقيل ، وبايعه منهم جمع غفير وضعف أمر الامويين . ونزل عبيد الله بن زياد اول ما نزل بالبصرة ، فحرض أهلها على الطاعة ، ثم ذهب الى الكوفة وقد تشيّع معظم أهلها الى الحسين ، وأصبحوا ينتظرون قدومه ليبايعوه ويولوه أمرهم . . فلما سمعوا ان يزيد ولى عبيد الله رجوا ان يصل الحسين قبله لتكون الولاية له . أما عبيد الله ، فبالقدر المحتوم ، وصل الى الكوفة قبل الحسين ، فدخلها وحده وعليه لباس الامراء، فكان لا يمر بمجلس او جماعة الا ظنوه الحسين فيقولون: «مرحباً بكَ يا ابن رسول الله » ، وهو لا يكلمهم . وخرج اليه الناس من دورهم ، فساءه ما رآه من ترحابهم بالحسين . حتى وصل الى دار الامارة (القصر) وفيها النعمان بن بشير اميرها السابق ، والنعمان يحسبه الحسين، فأغلق الباب من دونه، وقال :«أنشدك الله ألا تنحيت عني . . فوالله ما أنا بمسلم اليك أماني . وما لي في قتالك حاجة » . فدنا منه وقال له : « افتح لا فتحت » . فلما سمع النعمان صوته عرفه وفتح له . وصعد عبيد الله الى المنبر وخطب في الناس ، فقال : « اما بعد ، فان أمير المؤمنين ولاني ثغركم ومصركم وفيئكم ، وأمرني بانصاف مظلومكم وإعطاء محروكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم . وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده . . فأنا لمحسنكم كالوالد ، ولمطيعكم كالاخ الشفيق . وسيفي وسوطي على من ترك امري وخالف عهدي فليبق على نفسه »[1] ، ثم نزل وجعل يعمل على إرهاب أهل الكوفة وردّهم الى الطاعة بما عرف به من الدهاء . وأهل الكوفة ضعفاء سريعو التقلب[2] .

٨١

كربلاء

أما ما كان من أمر سلمى والشيخ ، فانهما بعد ان تحققا من مسير ابن زياد من تدمر . . خرجا وسارا يلتمسان الكوفة من طريق غير الذي سار هو فيه ، وكان سيرهما بطيئاً لأنهما ماشيان والطريق وعر وفيه خطر .

وبعد ايام أشرفا على الكوفة من تل ، وقد تعبا تعباً عظيمًا . . فاستراحا يوماً وسلمى لا تصبر عن النزول الى الكوفة فلما عزما على ذلك قال الشيخ:

---

(١)ابن الأثير، الجزء الرابع.

(٢) نهج البلاغة.

« اعلمي يا بنية اني عاهدت الله ان لا أقيم في المدن ولا أسكن العمارة ، فانزلي الكوفة وحدك » .

فعجبت سلمى ، وقالت : « وكيف العمل يا مولاي ، وأين أقيم » ؟.

قال : « اما انت فاذهبي الى هذا البيت في طرف الكوفة .. هل ترينه » ؟.

قالت : « نعم » .

قال : « انه بيت كندية مثلك اسمها « طوعة » ، وكانت للأشعث وأعتقها ، ثم تزوجها رجل آخر وولدت منه أولاداً اسم احدهم بلال . هل تعرفينها[1] » ؟.

قالت : « نعم اذكر اني رأيتها في أثناء اقامتي بالكوفة ، وأظنها تعرفني » .

قال : « اذهبي وأقيمي عندها ، وأنا اتردد اليك في منزلها .. ونرى ما سيكون » .

فقالت : « وانت ، أين تقيم » ؟.

قال : « أما أنا ، فاني ذاهب الى سهل صغير في طرف المدينة وراء الكوفة من جانب الفرات اسمه كربلاء[2] ، فاذا احتجت إليّ فانك تجديني هناك » .

قالت : « لا تنسني في دعائك ، وسأدخل الكوفة وقلبي مفعم بالآمال الحسان ، وعسى ان يفتح الله علينا ويفرج كربنا ونرى الحق سائداً » .

قال : « وانا ارجو ذلك » ، ثم ودعها ومضى ، وفي خاطره ان يزيدهااطمئناناًفيطلعها على حقيقة حال عبد الرحمن .. ولكنه أجل ذلك الى فرصة اخرى ، مخافة ان تشتغل به فتسير الى عبد الرحمن بمكة ، وهو يرى الكوفة اوسع مجالاً للانتقام .

فمشت سلمى حتى دخلت الكوفة كأنها فتاة من فتياتها عائدة من الاحتطاب او الاستقاء . ومرت في الأزقة فرأت الناس في هرج ، وسمعت بعضهم ينادون : « يامنصوراً مت » وآخرون يلعنون ابن زياد[3] ، فاستبشرت بنقمة الناس عليه .. ولكنها احبت استطلاع الخبر ، فعولت على الاستفهام من « طوعة » .

وبعد قليل ، وصلت الى دار « طوعة » فرأت المرأة جالسة لدى الباب وحدها ، فحيتها .. فلما عرفتها رحبت بها واستقبلتها . وكانت قد عرفتها قبل سفرها الى دمشق ، فسألتها عن عامر وعبد الرحمن ، فأجابتها جواباً مبهماً ، وكظمت ما في نفسها . وأدخلتها « طوعة » البيت ، وقدمت لها الطعام فأكلت منه شيئاً واستراحت . ولم يبق لها صبر عن

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

(٢) مراصد الاطلاع، الجزء الرابع.

(٣) ابن الاثير، الجزء الرابع.

استطلاع الخبر ، فقالت : « ما بالي أرى أهل الكوفة في هرج ؟ ما الذي أصابهم ؟ وما معنى ما سمعته من اقوالهم : « يا منصوراً مت » .

فأشارت طوعة اليها ان تخفض صوتها ، ثم قالت : « لعلك كنت غائبة عن الكوفة » ؟.

قالت سلمى : « كنت في البصرة ، ولم أعد إلا في هذا النهار » .

قالت طوعة : « وأهل البصرة لا يجهلون ما اصابنا لأنهم شر كاؤ نا في الامر » .

قالت سلمى : « سمعت بانتقاض اهل الكوفة على الخليفة الجديد ومبايعتهم للحسين بن علي ، على يد ابن عمه مسلم بن عقيل . ولكنني سمعت الناس يلعنون ابن زياد لأنه تولى الامارة على ان يقاوم المبايعين ، ولم افهم شيئاً غير ذلك » .

٨٢

هانيء بن عروة

قالت طوعة : اعلمي يا بنية ان مسلم بن عقيل لما جاء الى الكوفة نزل في دار المختار بن ابي عبيد ، وأمير الكوفة يومئذ النعمان بن بشير ، وهو رجل ضعيف . فجعل مسلم يدعو الناس الى بيعة الحسين ، ولو جاء الى الكوفة لم يبق واحد الا بايعه . فلما رأى الامويون ذلك بعثوا الى يزيد في دمشق ، فولى عليهم عبيد الله بن زياد . . وهو داهية مثل أبيه كما لا يخفى عليك » .

فتنهدت سلمى وقالت : « كيف لا اعرفه وهو الذي قتل والدي رحمه الله » ؟.

قالت طوعة : « فلما جاء ابن زياد الى الكوفة دخلها وحده ، فلم يشك الناس في انه الحسين ثم ما لبثوا أن عرفوه، فدخل دار الامارة وخطب في الناس وحرضهم على مقاومة شيعة الحسين . ولكي يتم له ذلك مع قلة أشياعه بعث الى العرفاء (مشايخ الحارات) فجمعهم وأمرهم ان يكتبوا اليه اسماء من في أحيائهم من شيعة الحسين ، وشدّد في ذلك حتى هددهم بالصلب والقتل . فلما سمع مسلم بما نواه ابن زياد ، خرج من دار المختار ونزل في بيت هانيء بن عروة المرادي ، وهو رجل ذو وجاهة » .

فقطعت سلمى كلامها ، وقالت : « اني اعرفه » .

فقالت طوعة : « فلما جاء مسلم الى هانيء ، خاف هذا ان يقبله في داره لما سمعه من تشديد ابن زياد في طلبه . فقال له مسلم : « أتيتك لتجيرني وتضيفني » . . فلم يعد هانيء يستطيع رده فقبله بالرغم منه . فصارت الشيعة تختلف اليه في دار هانيء ، فبلغ ذلك ابن زياد

من بعض الجواسيس ، فأراد ان يحتال في الدخول على هانيء ليتحقق من الأمر . ثم مرض هانيء بن عروة ، فبعث ابن زياد اليه انه قادم لزيارته . فقال بعض الحضور من الشيعة : « هاهو الطاغية قادم اليكم ، فاقتلوه وانقذوا المسلمين من شره » .

فبهتت سلمى عند ذلك ، وصارت تتوقع ان يقتلوه لأنها فرصة ثمينة لو اغتنموها . ولكنهم اضاعوها ، فضاعت بضياعها كل مساعيهم . . وكم من غلطة صغيرة يتوقف عليها خراب كبير ! .

فاستطردت طوعة قائلة : « فلما اقترح ذلك الرجل قتل ابن زياد ، اعترض هانيء بأنه لا يريد ان يقتل أمير الكوفة في داره . فجاء ابن زياد ، فعاده ثم خرج سالماً .

فصاحت سلمى : « يا للخسارة ويا للضعف . . آه ما اضعفهم » .

فقالت طوعة : « انهم ضعفاء يا بنية ، ولكن ذلك أمر الله » . فأصبح همّ ابن زياد ان يقبض على هانيء ويستجوبه . . فبعث اليه ان يأتيه في قصره ، فاعتذر هانيء بالمرض ، فألح عليه وبعث اليه رجلاً استقدمه بالحيلة . فلما وصل هانيء الى دار الامارة احس بالشر . ولكنه دخل ووقف بين يدي ابن زياد ، فقال له هذا : « يا هانيء . . ما هذه الأمور التي تحاك في دارك لأمير المؤمنين ؟ جئت بمسلم بن عقيل ، فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال ، وظننت ان ذلك يخفى علينا » ؟ فأنكر هانيء في بادىء الامر ، وهو لا يظن امره معلوماً عند ابن زياد . فأراه ابن زياد الرجل الذي كان قد جعله جاسوساً عليه . . فتحقق هانيء انه مطلع على جلية الأمر ، فقال : « اسمع مني وصدقني ، فوالله لست أقول كذباً . . والله ما دعوت ابن عقيل ولا علمت بشيء من أمره حتى رأيته جالساً على بابي يسألني النزول عندي ، فاستحييت من رده . . ولزمني من ذلك ذمام ، فأدخلته داري ضيفاً ، وقد كان من أمره الذي بلغك فان شئت اعطيتك الآن موثقاً تطمئن به ورهينة تكون في يدك حتى انطلق اليه واخرج من داري واعود اليك . فلم يقنع ابن زياد باخراج مسلم من دار هانيء بل طلب ان يحضره الى القصر . فقال هانيء : « لا اتيك بضيفي لتقتله ابداً وله عليّ حق الضيافة وهو في ذمامي » ! فتوسط بعض الحضور في اقناع هانيء بأن يأتيه بمسلم ولا خوف عليه ، فلم يقنع حتى قال : «لا ادفع ضيفي وانا صحيح شديد الساعد كثير الاعوان . . والله لو كنت واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتى اموت دونه» .

فصاحت سلمى عند ذلك : «لا فض فوك يا بن عروة ، هذه هي رعاية الذمام» !

فقطعت طوعه كلام سلمى ، وقالت : «اسمعي يا حبيبتي ما كان من عاقبة تلك الرعاية ، فان ابن زياد لما سمع كلام هانيء قال : «ادنوه مني» . فأدنوه . فأعاد التهديد عليه . فلما

لم يطعه تناول عبيد الله عصى كانت في يد أحد رجاله، وأمر واحداً فأمسك هانئاً بضفيرتيه، وأهوى عبيد الله عليه بالقضيب. ولم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده حتى كسر انفه وسالت الدماء على ثيابه وتناثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى انكسر القضيب. وأراد هانيء ان يدافع عن نفسه، فمد يده الى قائم سيف شرطي كان واقفاً بجانبه فمنعه منه. وأمر عبيد الله به، فألقي هانيء في حجرة وأغلق عليه».

فلطمت سلمى كفاً بكف، وقالت: «وماذا فعل رجاله وأهل عشيرته» ؟.

قالت طوعة: «بلغ عشيرته انه قتل، فجاءوا واحاطوا بالقصر وفيه ابن زياد ورجاله، فخاف ابن زياد منهم وسألهم عما يريدونه، فقالوا: «انك قتلت هانئاً» فهان عليه التخلص لأن هانئاً كان لا يزال حياً، فاستشهد «شريحاً» القاضي وكانوا يعتقدون بصدقه، فقال عبيد الله: «ادخل على رجال هانيء واخبرهم انه حي» .. فدخل وعاد فأخبرهم انه حي، فانصرفوا.

فصاحت سلمى: «يا للفشل .. ماذا اصاب الناس» ؟.

فقالت طوعة: «تمهلي يا سلمى انك ستسمعين ما يسرك وفيه الفوز والنجاة ان شاء الله، وذلك انك سألتني عن معنى قولهم: «يا منصوراً مت» فاعلمي يا بنية ان هذه العبارة هي شعار انصار الحسين ينادون بها بعضهم بعض[1] وأما سبب الهرج الذي رأيته، فان مسلماً لما علم بما اصاب هانئاً نهض ونادى رجاله بذلك الشعار حتى اجتمع حوله ثمانية عشر ألفاً من كندة ومذحج وأسدوتميم وهمذان وأهل المدينة،ولكل عشيرة من هؤلاء ربع. فعقد على كل ربع لقائد، وساروافي هذا الصباح واحاطوا بالقصر،وليس مع ابن زياد في القصر إلا ثلاثون رجلاً، وهو الآن في ضنك شديد. .ولا أظن مسلماً إلا فائزاً».

فتهلل وجه سلمى وأبرقت أسرتها، وبان الاهتمام على وجهها، وقالت: «يا رب يا كريم .. انصر قومك»، قالت ذلك ونهضت تريد الخروج، فأمسكتها طوعة وقالت: «الى اين تذهبين» ؟.

قالت: «دعيني امضي وارى ما سيكون من امرهم» ..

قالت: «تمهلي واجلسي، فانك فتاة لا آمن عليك الغوغاء».

---

(١) ابن الاثير، الجزء الرابع.

٨٣

الفشل الجديد

وبينما كانت سلمى تحاول الخروج ، سمعتا وقع اقدام بباب الدار . فتغير وجه المرأة وخفق قلبها وليس في بيتها رجال ، فأشارت الى سلمى ان تمكث . . وخرجت هي الى الباب ، فرأت رجلاً واقفاً وقد بدت الفجأة والكآبة على وجهه فسألته عما يريده .

فقال : « اسقني ماء » .

فقدمت له كوب ماء فشربها وجلس . فقالت له : « يا عبد الله ، ألم تشرب » ؟ .

قال : « بلى » .

قالت : « فاذهب الى أهلك » .

فسكت . .

فقالت له ثلاثاً ان يذهب . . فلم يبرح المكان .

فقالت : « يا سبحان الله . . اني لا أحل لك الجلوس على بابي » .

فقال لها : « اني غريب وليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة ، فهل تسدين إلى جميلاً ، ولعلي أكافئك به بعد هذا اليوم » .

قالت : « وماذا ؟ ومن انت » ؟ .

قال : « أنا مسلم بن عقيل ، كذبني هؤلاء الاقوام وغروني » .

وكانت سلمى واقفة تتسمع ، فلما سمعت قوله اختلج قلبها في صدرها وأسرعت الى الباب . فلما وقع بصرها عليه عرفته ، وكانت قد رأته قبل ذلك الحين في المدينة . فأرادت ان تستعطف طوعة في قبوله ، فاذا هي قد سمحت له من تلقاء نفسها ان يدخل .

فدخل مسلم وسيفه تحت عباءته والبغتة والتعب قد أثرا في سحنته . فعرضت عليه عشاء فلم يأكل .

فوقفت سلمى بين يديه ، وقد أرسلت نقابها على رأسها وترقرقت الدموع في عينيها ، وقالت : « ماذا اصابك يا مولاي » ؟ .

فتنهد مسلم وكادت العبرات تسبق كلامه ، وقال : « دعيني يا أخية ولا تسألي عن قومي ، فقد قلت لكما ان لا قوم لي ولا عشيرة في هذه المدينة » .

فقالت طوعة : « ولكنني سمعت في هذا الصباح انك جمعت ثمانية عشر الفاً وأحطتم بقصر زياد ، وهو ليس عنده الا ثلاثون رجلاً ، فما الذي جرى لقومك » ؟ .

قال وهو يصر أسنانه : « لقد تفرقوا عني » .

قالت سلمى : « وكيف تفرقوا ؟ وما الذي حملهم على هذا التفرق وهم كثيرون » ؟ .
قال : « لا تسألي عن القضاء اذا وقع . ولكن اهل الكوفة قوم لا يركن اليهم ، وقد أخطأنا في الاعتماد عليهم ، بعد ان سمعنا عمي الامام علياً ، كرم الله وجهه ، يخاطب اهل العراق بقوله : « اخلاقكم دقاق وعهدكم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق . المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه[1] » فقد غرني من هؤلاء الأقوام ما رأيت من اقبالهم على بيعة الحسين حتى تكاثر عددهم .

« فلما دعوتهم في هذا الصباح ، اجتمعوا وتجندوا حتى قلت : توليتها يا ابن بنت الرسول ، ولكن ابن مرجانة (ابن زياد) داهية مثل أبيه ، فلما رأى رجالنا محيطين بقصره ، وقد امتلأ المسجد والسوق بالناس ، وسمع جماعة يسبونه ويسبون أباه ، دعا بعض رجاله وفيهم من اشراف القبائل ، وأمرهم ان يخرجوا الى الاسواق ويخذلوا الناس بالتهديد والوعيد او بالوعد والتمني . وأطمعهم بالمال ونحوه ، فخرجوا يخذلون الناس . وأمر آخرين ان يشرفوا من نوافذ قصره علينا ويؤملوا أهل الطاعة ويخوفوا اهل المعصية . فأشرفوا علينا وجعلوا ينادون بالأمان لمن اطاع وبالشر لمن عصا . فما شعرت الا وقد بدأ الناس يتفرقون عني حتى لم يبق معي منهم إلا ثلاثون رجلاً ، فدخلنا المسجد . ثم رأيت في البقاء هناك خطراً على حياتي ، فخرجت أضرب في الارض على غير هدى لا ادري الى اين أسير حتى وصلت الى هذه الدار . وأنا لا أبالي الآن أأموت ام احيا ، ولكنني اخاف على ابن عمي الحسين لأني كتبت اليه بالحضور وأظنه قادماً ، وهو يحسب اهل الكوفة جميعهم على دعوته وهم على ما رأيناهم فيه من الضعف » .

ثم تنهد وقال : « والله ان عبد الله بن مطيع قد نصح لنا ان لا نقرب الكوفة ، وقد قال للحسين لما خرج من المدينة : « جعلت فداءك ، أين تريد » ؟ قال : « اما الأن فمكة ، واما بعد فاني استخير الله » ، قال : « خار الله لك وجعلنا فداءك ، فاذا اتيت مكة فإياك ان تقرب الكوفة ، فانها بلدة مشئومة فيها قتل أبوك وخذل اخوك وأصابته طعنة كادت ان تقضي عليه . الزم الحرم فانك سيد العرب ، لا تعدل بك اهل الحجاز أحداً ويتداعى اليك الناس من كل جانب . لا تفارق الحرم ـ فداك عمي وخالي ـ فوالله لئن هلكت لنتفرقن بعدك » ، فما كان أجدرنا ان نصغي لقوله ، ولكن قد نفذ السهم ولا خيرة في الواقع » .

وفيما هو يتكلم ، دخل شاب في مقتبل العمر لم تعرفه سلمى ولم يعرفه مسلم . أما طوعة

---

(١) نهج البلاغة، الجزء الأول.

فأسرعت الى استقباله وهي تريد ان تخفي أمر مسلم عنه ، وكان ذلك الشاب ابنها بلال . فلم يسكت عنها حتى اخبرته بخبر مسلم ، وطلبت اليه ان يكتم أمره ، وأخذت عليه الأيمان ، فسكت . . ولكنه أضمر السوء. وبات تلك الليلة ومسلم هناك. وأما سلمى فانها باتت منقبضة النفس وقد اسقط في يدها وأيقنت بالفشل . ففكرت فيما ينبغي ان تفعله، فعزمت على ان تسعى أولا في سلامة الحسين بأن تسير لتلقاه في الطريق، وتقص عليه الخبر، وترجعه عن الكوفة حتى يقضي الله بأمره.

٨٤

الدفاع

ولما اصبح الصباح ، افاقت طوعة ولم تجد ابنها ، فظنته خرج لعمله . وأفاق مسلم فجاءته سلمى ، وعرضت عليه ان تسير هي بنفسها لابلاغ الحسين الخبر ، فأعجب بحميتها وقال لها : « والله لو ان في رجالنا عشرة مثلك ما أصابنا ما أصابنا . بورك فيك يا بنية ، اننا اذا احتجنا الى ارسالك أرسلناك . ولكنني لا أرى فائدة من بقائي هنا ، فسأذهب بنفسي » .

فتنهدت سلمى وتذكرت مصائبها وما ألم بحبيبها في سبيل ذلك الامر ، فغلب عليها الحزن . ولكنها تجلدت وعادت الى مسلم تشجعه ، وهو يعجب بشهامتها وغيرتها على الإسلام .

ولم تمض برهة، حتى سمعوا وقع حوافر حول الدار وعلت الضوضاء. فأجفل مسلم وامتقع لونه ، فلما رأت سلمى ذلك فيه خرجت تنظر ما الخبر ، فرأت فرسانا ومشاة يزيد عددهم على السبعين ، وفي مقدمتهم شاب شاك السلاح وعليه الدرع ، فعلمت انه زعيم القوم . فلما استقبلتهم ، صاح الفارس قائلا :«أين مسلم ؟ فليخرج الينا الساعة » .

فقالت : « وماذا تريدون منه » ؟ .

قالوا : « ما لك ولهذا التطفل ؟ أين مسلم بن عقيل » ؟ .

فلما سمع صوت الرجل يناديه جرد حسامه وهجم عليه ، وقال : « ما بالكم ؟ ماذا تريدون » ؟ .

فصاح فيه الفارس : « تعالى معنا الى الامير» .

فقال : « خسئتم انتم وأميركم » ، وهجم عليهم بالسيف حتى اخرجهم من الدار وقتل واحداً منهم ، فتناولت سلمى سيف الرجل المقتول وشدت وسطها وهجمت وهي تفضل الموت بعد ذلك الفشل لكي تلحق بحبيبها ، وكان ابن عقيل ينظر اليها ويعجب بحميتها ،

ويقول لها : « ارجعي يا سلمى ، ما لك ولهذا الخطر » .

أما هي فلم تصغ له، فضربت ضربتين، ثم سمعت ابن عقيل يصيح: «قتلوني، قتلهم الله»، فالتفتت واذا بسيف اصاب فمه، فقطع شفتيه العليا وسقطت ثنيتاه، لكنه لم يقتل. فهجم على الضارب فضربه على رأسه، وثنى بأخرى على العاتق كادت تطلع على جوفه وسلمى تناضل معه. فلما رأى القوم ذلك أشرفوا على سطح البيت، وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونها عليه، فلما رأى مسلم ذلك خرج من الدار بسيفه وهو يقول:

أقسمت لا أقتل الا حرا   وان رأيت الموت شيئاً نكرا
أو يخلط البارد سخنا مرا   رد شعاع الشمس فاستقرا
كل امرىء يوما يلاقي شرا   أخاف أن أكذب أو أغرا[1]

وخرجت سلمى وقاتلاهم في السكة ، فصاح رئيس القوم بابن عقيل : « لا تكذب ولا تخدع ، ان القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك » ، وكان مسلم قد أثخن بالحجارة وعجز عن القتال ، فأسند ظهره الى حائط تلك الدار وقد ضعف ، ولم يعد يستطيع قتالا ، فجاءه سيد القوم وهو محمد بن الاشعث فحمله على بغلة وأمنه على حياته ، فالتفت مسلم الى سلمى ، فاذا هي لا تزال تكافح والنار قد لعبت في نقابها ، فأراد ان يخاطبها ، فحملوه وساروا به وهو يفكر في تلك الفتاة لأنه لم ير مثلها في حياته .

٨٥

مقتل عقيل

وما زالوا سائرين به حتى وصلوا الى القصر واوقفوه عند بابه ، فرأى هناك جرة باردة فقال : «أسقوني من هذا الماء » .

فقال له واحد منهم : « أتراها ؟ ما أبردها ؟ والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار الجحيم » .

فقال له : « ومن أنت » ؟ .

قال : « أنا من عرف الحق اذ تركته ، ونصح الأمة والامام اذ غششته ، وسمع وأطاع اذ

---

(١) ابن الأثير، الجزء الاول.

عصيته ، أنا مسلم بن عمر » .

فقال له مسلم بن عقيل : « لأمك الثكلى ! ما اجفاك وما أفظعك وأقسى قلبك وأغلظك ؟ انت يا ابن باهلة أولى بالجحيم والخلود في نار جهنم مني » .

ثم جاء رجل فصب ماء وأعطى مسلمًا فشرب ، ثم نظر في القدح فاذا هو قد امتلأ بالدم .

وأمر ابن زياد بمسلم فأصعدوه الى اعلى القصر ، فضربت عنقه ثم اخرجوا هانئاً وقتلوه . ولم يبال ابن زياد بعهده الذي اعطاه لهانيء ولمسلم باستبقائهما .

ولا شك في ان عمله هذا يدل على قسوة وغدر ، ولكنه في سبيل الغاية التي يهدف اليها بعد حزماً ودهاء ، لأن الدول في اولى نشأتها لا يتأيد استقلالها وتنجو من الدعاة والمطالبين الا اذا صم اصحابها آذانهم عن نداء الضمير وجعلوا كل همهم في مصالحهم الخاصة . وفي التاريخ حوادث كثيرة تشهد بصحة ذلك .

فلو لم يغدر ابو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين بأبي مسلم الخراساني وبقتله غيلة ، لم تثبت الدولة العباسية ، وابو مسلم هو الذي اقام تلك الدولة وسلمها الى العباسين . ويقال نحو ذلك بنكبة البرامكة ، فان الفتك بهم ينطوي على القسوة والغدر . ولكنه انقذ الدولة العباسية من خطر عظيم . والسلطان سليم الفاتح العثماني لو لم يقتل طومان باي آخر سلاطين المماليك لم يخلص له الملك . وكان قبل ان يقتله قد اكرمه وقربه ، حتى اذا عرف منه كل ما يصبو الى معرفته من شؤ ون البلاد واحوالها وخراجها وادارتها . امر به فشنقوه على باب زويلة . على ان مثل هذه الاعمال لا يستطيعها الا رجال يسمونهم بلغة السياسة (عظماء) وفي الواقع ان الصبر على قتل الابرياء لا يقوى عليه الا ذوو الارادة القوية والمطامع الكبيرة ، وهؤلاء هم مؤسسو الدول في الغالب . .

ولا يزال المؤ رخون يؤ اخذون بونابرت لما إرتكبه في قتل حامية يافا ، وهم اربعة الاف رجل اشداء سلموا انفسهم الى احد قواده على ان يستبقيهم فلم ير بونابرت بداً من التخلص منهم جميعاً . فأمر ان يقتلوا كلهم رمياً بالرصاص مخافة ان يكونوا عقبة في سبيل فتوحه . وعلى هذا المبدأ كان سلاطين آل عثمان يقتلون اخوتهم فراراً من الفتنة . وعندنا ان معاوية ابن ابي سفيان كان من أولئك العظماء ، وكان عنده « جند من عسل » ولم يحبط مسعى الامام علي في امر الخلافة الا التزامه بواجبات التقوى وسلامة الضمير . .

وأخيراً لو تمثل هانيء بن عروة بأولئك الرجال العظام وخرق حرمة الجوار ، واذن بقتل ابن زياد يوم عاده في منزله لتبدل وجه المسألة وتحولت مجاري التاريخ حتى آلت الخلافة الى اهل البيت . ولكن لله حكمة لا تدركها العقول .

أما سلمى ، فانها حينما تحققت ان مسلمًا قد اخفق ورأت الدم في وجهه تذكرت مقتل حبيبها ، فهاجت عواطفها واستماتت وصارت تحارب بسيفها وتناضل نضال الابطال . ولولا النار التي اصابتها ولحقت بشعرها لم تكَف عن الضرب .

فلما انصرفوا اسرعت « طوعة » الى سلمى ، فأطفأت النار المشتعلة في شعرها ونقابها ، وحملتها الى الفراش وهي في غيبوبة ، فرشتها بالماء حتى افاقت وهي لم تصب بسوء .

فلما أفاقت ، صاحت : « أين مسلم ؟ . . أين ابن عم الحسين . . » ؟ .

فقالت طوعة : « قدحملوه الى القصر » .

قالت : « وماذا يفعلون به هناك ؟ أظنهم سيقتلونه لا محالة . . قبحهم الله ، ما أقسى قلوبهم . . » .

فجعلت طوعة تخفف عنها ، ولم يمض النهار حتى سمعت بمقتل مسلم فانصدع قلبها . وفكرت في امرها ، فرأت ان البقاء لا يجديها نفعاً ، وتذكرت الشيخ ، فهمت بالمسير اليه .

٨٦

سلمى والناسك

وفي صباح اليوم التالي ، خرجت سلمى من بيت طوعة . وصارت تلتمس كربلاء فجعلت طريقها من خارج الكوفة لئلا ترى ما تكرهه من فوز الامويين ، فيممت شاطىء الفرات حتى اطلت على سهل مقفر لا شجر فيه ولا عشب ولا ماء ، فعلمت انه سهل كربلاء . وبدأت في احد اطرافه شجرة قد تقادم عهدها وتحتها شبح نائم ، فعلمت أنه الشيخ الناسك . ولم تصل اليه حتى جلس ـ وقد شعر بقدومها عن بعد ـ كأنه اشتم رائحتها . اما هي فقد غلبها البكاء لفرط ما هاج في خاطرها من مصير مسلم وحزبه .

فلما رآها الشيخ ، صاح فيها وناداها اليه قائلا : « اراك باكية ، كأني بهم فتكوا بابن عقيل » ؟ .

فأجابته وقد خنقتها العبرات : « نعم انهم قتلوه يا مولاي شر قتلة . . قتلوه ومثلوا به . . وقد فازوا بالامر من دونه وخابت مساعينا ، كأن الله قد كتب علينا الشقاء » .

فابتدرها قائلا : « قتلوا ابن عم الحسين ؟ وكيف قتلوه ؟ لعلهم لم يخافوا غضب الله وملائكته . اعوذ بالله من ظلم الانسان » .

قالت : « نعم قتلوه يا سيدي ببعد ان ساموه مر العذاب . . وكنت احسب ان الملائكة تدفع عنه الاذى لانه انما جاء للدفاع عن الحق ، أهذا جزاء انصار الحق عند الله » ؟ .

فقطع الشيخ الناسك كلامها ، وقال : « لا تكفري يا سلمى ولا تعترضي على احكام الله ، فاننا لا ندرك مقاصده سبحانه وتعالى ، وما نحن الا تراب صنعنا بيده ، وهو يفعل بنا ما يشاء لحكمة لم ندركها . . فاخبريني كيف قتلوه » ؟ .

فجلست على حجر بالقرب منه ، وقصت الحديث وهي تقطع الكلام وتتأوه ، حتى اذا اتت على آخر كلامها انخرطت في البكاء وجعلت تندب حال المسلمين . وجرها ذلك الى ندب حبيبها عبد الرحمن ، فقالت : « لا اعتراض على حكم الله . . ولكنني لا ادري كيف افسر الحكمة في ذلك . ان الحسين قام يدعو الناس الى الحق ، وارسل ابن عمه لنصرته . أفيقتل هذا ويفشل ابن بنت الرسول ويظلم كل من قام بنصرته ؟ ألم يقتلوا ابن عمي عبد الرحمن لأنه طالب بدم والدي وانتصر لأهل البيت ؟ ألم يقتلوه شر قتلة ؟ آه منهم ، كيف يقتلونه » ؟ قالت ذلك وعادت الى البكاء . ثم قالت وقد خنقتها العبرات : « كيف ينصر الله قوماً يحاربون ابن بنت الرسول ، ويقتلون كل من قام بنصرته ، وخليفتهم ينصرف عن أمور الخلافة بشرب الخمور وضرب الطنابير ومجالسة النساء ؟ انه لأمر غريب . . » ؟ .

فلما سمعها تندب ابن عمها ، وهو يعلم ببقائه حياً ، أشفق على عواطفها ، وقد علم من سياق حديثها انها راغبة في الذهاب الى الحسين لاطلاعه على جلية الخبر لعلها ترجعه عن عزمه . والشيخ يرجح ان عبد الرحمن وعامراً مع الحسين ، فأراد ان يطمئنها . . فاعتزم ان يطلعها على الواقع ، فمسح لحيته بيده ثم مسح عينيه بأنامله من آثار دموع كادت تبللها في اثناء سماعه قصة مقتل ابن عقل ، ثم قال : « وماذا اعتزمت عليه يا سلمى » ؟ .

قالت وقد رجع اليها رشدها وبان الاهتمام في وجهها : « أتسألني عما عزمت عليه وانت لا تجهله ؟ أتجهل يا سيدي اني فقدت كل شيء في سبيل نصرة بيت الرسول ، ولم يبق لي ما ابذله الا نفسي وما هي بالامر العظيم عندي ، فأنا باذلة روحي في هذا السبيل . أريد ان اذهب لألقى الحسين قبل وصوله الى الكوفة ، واخبره بما وقع ، وأنصح له ان يظل حيث هو ريثما يتم له التأهب للمطالبة بحقه ، وامكث في خدمته حتى يتأتى له ذلك . . فأحارب معه حتى أموت بين قدميه ، فأذهب حيث ألاقي عبد الرحمن ووالدي وأرجو ان يكون ذلك في النعيم . . لأني اعتقد صدق الدعوة التي ندعو اليها ، واذا قدر الله لنا النصر وفزنا على أولئك الطغاة وقتلناهم ، فأعيش سعيدة لأني انتقمت لابي ولابن عمي وللامام علي » .

٨٧

مفاجأة

فضحك الشيخ حتى اغرب في الضحك ، وسلمى تنظر اليه وتعجب من ضحكه ، بعد

أن قصت عليه خبر الفشل الذي أصابها. فلبثت صامتة وهي تسمع قهقهته وترى اهتزاز لحيته حتى خيّل لها انه اصيب بجنون. . ولكن اعتقادها بكرامته غلب عليها، فحملت ضحكه على شيء يضمره، فيه خير لها. فلما فرغ من الضحك، تفرست في وجهه فإذا هو قد عاد الى الانقباض بغتة، ولمعت عيناه بما غشاهما من الدمع. ورأت سلمى ذلك من خلال حاجبيه المسترسلين على عينيه، فقالت له: « أيأذن لي مولاي بسؤال».

قال وقد عاد الى الابتسام: « إنك ستسألينني عن سبب ضحكي، وأنا أقول لك السبب وأرجو ان يضحكك ايضاً».

فقطعت كلامه، وقالت: « لا أظن ان شيئاً في العالم يضحكني. وما انا ضاحكة إلا ضحكة الظفر او ضحكة الموت».

قال: « وما قولك إذا أضحكتك الساعة»؟

قالت وهي تستخف بقوله: « قل ما شئت واضحك ما شئت وسترى اني لا ابتسم لشيء قط. . كيف اضحك او ابتسم وأنا اليتيمة، وقد قتل ابي وابن عمي ظلمًا ولم اقتل معهما. . »!

قال: « وإذا اخبرتك خبراً ساراً . . »؟

فقالت: « إذا كان خبرك من قبيل الاطلاع على الغيب، فللأولياء كرامات. وقد تتنبأ بخبر نرجوه في المستقبل. ولكنني رأيت من الفشل في الأيام الأخيرة ما أحال كل خبر في عيني الى سواد. فلا اضحك الا لخير اراه او لخير اتوقعه. . وأي خيير ارجو بعد هذه المصائب».

قال: « وإذا اطلعتك على خبر عبد الرحمن»؟

فلما سمعت اسم حبيبها اختلج قلبها واصطكت ركبتاها وبغتت وقالت: « وما هو خبره يا مولاي . . لعلي لم اسمعه بعد . . دعني . . ».

واختنق صوتها وبكت. .

قال: « وماذا سمعت عنه»؟

قالت: « الم اندبه بين يديك مراراً . . ؟ آه يا مولاي من هذه الذكرى ولا تهيج أشجاني. . دعني اشتغل عن الحزن بالانتقام . . ودعني امضي في سبيلي فألقى الحسين وأهل بيته، وأنبئهم بالخطر الذي ينتظرهم هنا».

قال: « سيري يا بنية ـ في حفظ الله ـ ولكنني ارجو ان تلاقي عبد الرحمن هناك. . ».

فصاحت : « ألاقي عبد الرحمن! وكيف ألاقيه وأنا حية؟ الا إذا بعث في هذه الحياة الدنيا. ولم نسمع بالبعث إلا في الآخرة. لا أراك يا مولاي إلا ضاحكاً مني هازئاً بعواطفي، او انك تتنبأ بقرب اجلي لألقى حبيبي في الآخرة. . فإذا كان ذلك فمرحباً بالموت، إنه حلو

شهي». قالت ذلك وهي لا يخطر في بالها ان يكون عبد الرحمن حياً . . ولكن قلب المحب سريع الاطمئنان قريب التصديق، فحدثها حبها ان الله قادر على إحيائه بعد موته، وأن الشيخ الناسك لا يقول عبثاً. على ان عقلها ما زال يقول باستحالة ذلك. . فلبثت تتردد بين الأمرين، وهي تتوقع ان تتبين الحقيقة في وجه الشيخ.

أما هو، فلما شاهد اضطرابها نظر اليها بعين تتجلى فيها الحدة، وقال: «اني لا القي القول جزافاً يا سلمي. . ان عبد الرحمن حي باقٍ لم ينله سيف أولئك الاشرار. .».

فوثبت سلمى من مجلسها بغتة على غير انتباه، وأحست كأن شعر رأسها انتصب، واقشعر بدنها، وكاد الدم يجمد في عروقها. وصاحت في الشيخ وقد أمسكته بيده، وهي تقول: «بالله أصدقني الخبر يا مولاي ولا تهزأ بي. . فإني أكاد اقتل نفسي. . قل لي: هل عبد الرحمن حي؟ عبد الرحمن! هل هو حي؟ حي مثلي ومثلك»؟ قالت ذلك والدمع ملء عينيها لا تدري أتضحك ام تبكي. .

فخاف الشيخ ان تضر عواطفها بها، فتظاهر بالسكينة، وقال بصوت خافت: «نعم يا سلمى هو حي بإذن الله».

قالت: «قل لي. . كيف يكون حياً وقد ثبت لي مقتله من قبل؟ يا ربي، ماذا اسمع. . هل انا في حلم؟ هل عبد الرحمن حي يمشي ويتكلم؟ هل اكلمه فيسمعني وألقاه فيراني. . عبد الرحمن؟ حبيبي. انت حي وأنا اناديك، ولكن لا اظنني الا في حلم»، ثم التفتت الى ما يحدق بها من السهل القاحل كأنها تتحقق انها ليست في حلم، ثم ترامت على يدي الشيخ وجعلت تقبلهما والدمع يتساقط عليهما، وهي تشهق من شدة البكاء وتقول: «بالله يا سيدي، قل لي الصدق. . هل عبد الرحمن حي حقيقة؟ وهل اراه بعد؟ واين هو؟ قل لي واشفق على حياتي. عبد الرحمن حبيبي. . اين هو»؟

فأمسكها الشيخ ويده ترتعش، وأوقفها وهو يتأمل حركاتها ويقرأ عواطفها، فدمعت عيناه وقال: «احمدي الله يا سلمى ان عبد الرحمن وعامراً على قيد الحياة وهما مع الحسين، وأظنهما آتيين معه في طريقه هذه».

فبهتت سلمى واستجمعت رشدها، ولبثت مطرقة تنظر الى الأرض وهي تراجع في ذاكرتها ما سمعته عن مقتله في دمشق، فلم تجد دليلاً على قتله غير ما سمعته من ابن زياد والحكيم فأخذ قلبها يطمئن الى قول الشيخ وتصدق حديثه، فأحست للحال ان غمامة انقشعت عن عينيها، وأن الطمأنينة قد أفعمت قلبها فانبسط وجهها وابتسمت. فابتدرها الشيخ قائلاً: «أراك تضحكين، وأنت تقولين انه لا شيء يضحكك»؟

قالت: «لم يخطر في خلدي ان اسمع هذا الخبر. . أيكون عبد الرحمن حياً ولا

أضحك»؟ ثم انقبضت نفسها بغتة، وقالت: «ولكن ما الفائدة . . اين هو . . ؟ ما الذي يجمعني به؟ فقد اصبحت بعد ما صادفه من الفشل المتواصل لا اصدق شيئاً حتى يقع . . وقد يقع ولا اصدقه».

قال الناسك: «لا تيأسي من نعم الله، فإن معسكر الحسين يجمعك بعبد الرحمن، فقد سار اليه وأنت في دمشق مع عامر وهو يحسبك ميتة كما كنت تحسبينه ميتاً»، وقص عليها الخبر من اوله الى آخره، فاطمأن بالها وسكن روعها واستوثقت من بقائه على قيد الحياة.

٨٨

الحسين وابن الزبير

اما الحسين، فكان قد انتقل من المدينة الى مكة، وارسل ابن عمه مسلماً الى الكوفة كما تقدم. وجاءته كتبه ان معظم اهل الكوفة على بيعته. فعزم على الخروج الى الكوفة، وهو يحسب انه إذا جاءها استتب له الأمر. وكان يستشير اصحابه، فمنهم من كان يخوفه من الذهاب، ومنهم من يحثه عليه. وكان في جملة المحبذين، عبد الله بن الزبير بن العوام، وكان يطمع في الخلافة لنفسه لأنه من كبار ابناء الصحابة، وكان ابوه الزبير بن العوام قد طمع فيها من قبل على عهد الإمام علي (والد الحسين) وقد حاربه عليها في وقعة الجمل بجوار البصرة. ولكنه قتل هناك هو وطلحة وفاز علي بالأمر، فلما قتل علي. وتولى الخلافة معاوية بن ابي سفيان، لم يجسر ابن الزبير على مناجزته. فلما مات معاوية كان ابن الزبير والحسين في الكوفة، فطلبوا منهما البيعة ليزيد ـ كما تقدم ـ فأبيا، ثم خرجا الى مكة، وفي نفس كل منهما ان يطلب البيعة لنفسه. فرأى ابن الزبير انه لا يستطيع ذلك والحسين معه في مكة لأن الناس يفضلون الحسين عليه. فحبّب اليه طلب بيعة اهل الكوفة والمسير اليها، وكان الحسين خالص الطوية صادق اللهجة مثل أبيه. وكان سليم النية سريع التصديق، وما ضاعت الخلافة منه إلا لطيب عنصره وحلمه ورغبته عن الدهاء والمكر.

وكان ابن الزبير لا يظهر للحسين عزمه، وربما اظهر رغبته في بقائه بمكة وهو يريد خروجه منها، وفي جملة ما دار بينهما من الحديث في هذا الشأن، ان ابن الزبير قال له مرة: «ما ادري ماذا ترك لنا هؤلاء وقد كففنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم، خبرني ماذا تريد أن تصنع»؟

فقال الحسين: «لقد حدثت نفسي بالسفر الى الكوفة، ولقد كتبت الى شيعتي فيها واشراف الناس، واستخرت الله».

فقال ابن الزبير: «اما والله لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها»، ثم خشى ان

يتهمه، فقال له: « اما انك لو اقمت في الحجاز وأردت هذاالأمر ههنا لما خالفنا عليك، بل ساعدناك وبايعناك ونصحنا لك، فأقم ان شئت وتوليني الأمر فتطاع ولا تعصي».

فلما خرج ابن الزبير، قال الحسين لمن عنده: « ان هذا الرجل ليس شيء في الدنيا احب اليه من ان اخرج من الحجاز. وقد علم ان الناس لا يعدلونه بي، فود لو أني خرجت حتى يخلو له الجو»، ويظهر من ذلك ان الحسين لم يكن يجهل طمع ابن الزبير، ولكنه ظل راغباً في الخروج، ولعله خشي مناوأته إذا بقي هناك.

وممن نصح للحسين الا يخرج من مكة ابن عم أبيه عبد الله بن عباس. وكان قد أدرك غرض ابن الزبير، فنصح للحسين مراراً ان يبقى فلم يطعه. فجاء في مساء اليوم الذي خاطب الحسين فيه ابن الزبير، وقال له: « اني أتصبر ولا اصبر، إني اتخوف عليك من الذهاب الى اهل العراق، فلو أنهم قتلوا اميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ثم دعوك فسر اليهم. وان دعوك وأميرهم عليهم يسيطر على أمورهم وعماله تجبي له الضرائب، فإنما دعوك الى الحرب. فاكتب لهم فلينفوا عاملهم ثم اقدم عليهم، أما إذا ابيت الا ان تخرج من مكة، فسر الى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً، وهي ارض عريضة طويلة ولأبيك شيعة وأنت عن الناس في عزلة. . فتكتب الى الناس وتبث دعاتك حتى يقوى شأنك وتنظر ما يكون».

فقال الحسين: « اني والله لأعلم انك ناصح مشفق. . ولكنني قد أزمعت على المسير الى الكوفة».

فقال ابن عباس: « فإن كنت منطلقاً الى هناك، فلا تخرج بنسائك وصبيانك فأني لأخاف ان تقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وأولاده ينظرون اليه» ثم قال: « لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك. . والله الذي لا إله إلا هو، لو اعلم اني إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس وأنك تطيعني وتقيم لفعلت»، ثم خرج[1].

٨٩

الخروج الى الكوفة

فخرج الحسين من مكة ومعه نساؤه وأولاده وأبناء عمه. وما زال ينتقل من مكان الى آخر، والناس ينضمون اليه، حتى أتى مكاناً اسمه الثعلبية، كان قرية ثم خرب[2] وهناك جاءه الخبر بمقتل مسلم بن عقيل، وبما حل لشيعته، وخوّفوه من المسير الى الكوفة. . وكأنه

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

٢ ـ مراصد الاطلاع (الجزء الاول)

خشي الذهاب اليها، فقام بنو عقيل أخوة مسلم، فحرضوه على المسير، وقالوا: « والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم».

فتحمس الحسين، وقال: « صدقتم. . لا خير في العيش مع هؤلاء».

وما زال في طريقه حتى أشرف على ضواحي الكوفة، والناس يأتونه في الطريق ويخوفونه، فأصر على المسير، ولكنه أطلق الحرية للذين معه، فقال لهم: « قد خذلتنا شيعتنا، فمن احب ان ينصرف فلينصرف، ليس عليه منا ذمام».

فتفرقوا عنه يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من مكة[1]، وفي جملتهم عبد الرحمن وعامر. وكانا من جملة من حرضه على المسير التماساً للانتقام. وكان عبد الرحمن لا يستصعب شيئاً في ذلك السبيل، بعدما اعتقد في مقتل سلمى.

أما سلمى، فإنها كانت قد صممت على النهوض لتلقى الحسين، لكي تطلعه على جلية الخبر وهي تحسبه لم يعلمه. وباتت ليلتها تحت تلك الشجرة على ان تصبح في الغد وتسير. ولما أصبحت، ودعت الشيخ وخرجت. ولم تمش قليلاً حتى رأت الغبار يتصاعد من جهة الكوفة، ثم ظهر من تحته خيول فعلمت أن ابن زياد ارسلهم لملاقاة الحسين. فتظاهرت بالاستسقاء من بعضهم، وسألت عنهم. فعلمت ان قائدهم عمر بن سعد، وقد بعثه ابن زياد في بضعة آلاف لملاقاة الحسين وجنده. فنزل هذا الجند في القادسية ونظم الخيول بين القادسية الى ضفان، ومن القادسية الى القطقطانة والى جبل لعلع. فخفق قلب سلمى خوفاً على الحسين ورجاله ولكنها ظلت سائرة وقلبها طائر أمامها التماساً للقيا حبيبها. حتى وصلت جبلاً اسمه ذو جشم، فوقفت لتطل منه على الطريق وإذا بغبار يتعالى عن نحو ثلاثين فارساً وأربعين راجلاً[2] ما عدا النساء والأطفال فعلمت ان القادمين هم الحسين ورجاله، ولكنها استقلت عددهم وعجبت لمجيئهم بهذه القلة بعد أن رأت جند الكوفة وكثرتهم. ثم تبادر الى ذهنها انها ترى طليعة الجيش وأن البقية آتية. فوقفت جانباً وقلبها يخفق وعيناها شائعتان في الرجال تتفرس في وجوههم لعلها ترى عامراً او عبد الرحمن، فلم تر احداً. فترجح عندها ان الذين تراهم ليسوا كل الجند فسألت عبداً كان منفرداً عن الركب. فقال لها: « انهم الحسين ورجاله جميعاً». فاستغربت ذلك وانقبضت نفسها لما علمته من كثرة جند الأمويين في القادسية. واشتغل خاطرها على عبد الرحمن وعامر ثم رأت جماعة أسرعوا فنصبوا فسطاطاً كبيراً في سفح الجبل. وبعد قليل اقبل فارس حسن اللباس والقيافة جليل القدر يحيط به الرجالة وعليه جبة من خز، وعلى رأسه

---

(١) ابن الاثير، الجزء الثاني.

(٢) أبو الفداء، الجزء الثاني.

عمامةأوقد اختضب بالرسمة[1]، وهي ورق النيل او نبات يخضب بورقه[2] وهو في نحو السابعة والخمسين من عمره ولا يزال الجمال ظاهراً في وجهه مع ما فيه من آثار الانقباض. فعلمت انه الحسين، فقضت لحظة في التطلع اليه، فإذا هو قد ترجل ودخل الفسطاط وهو صامت كأنه يفكر في أمر ذي بال. ثم أشار الى رجاله ان يرشفوا الخيل ترشيفاً، وسلمى بالباب في جملة الواقفين وعيناها تنتقل بين الناس، ثم تحولت الى سائر العسكر وتفحصت الرجال ببصرها فلم تجد عامراً ولا عبد الرحمن. . فاضطرب قلبها وارتابت في كلام الناسك. ثم عادت الى الخيمة لعلها تجد احداً منهما فيها فرأت فارساً قادماً من جهة الصحراء وعليه لباس الامراء، ففتح له الناس طريقاً حتى أقبل على الخيمة وترجلّ ودخل على الحسين، فلم تعرفه سلمى ولكنها سمعت بعض الناس يتحدثون عنه ويتذمرون من قدومه ثم علمت انه الحر بن يزيد التميمي، قدم من القادسية في ألف فارس لرد الحسين عن الكوفة. فالتفتت سلمى الى الناحية الثانية من الجبل فرأت الخيل قد ملأت السهل.

ثم دخل الحر على الحسين وقال له: « ما الذي جاء بك الى هذه البلاد»؟

فقال الحسين: « اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ان اقدم اليكم».

فقال الحر: « اننا والله لا ندري ما هذه الكتب»؟

فقال الحسين: « أتكتبون ثم تنكرون»؟

قال الحر: « اننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك وإنما أمرنا إذا لقيناك ألا نفارقك حتى نأتي بك الى الكوفة على عبيد الله ابن زياد».

فقال الحسين: « ان الموت ادنى اليكم من ذلك»، ثم صاح في أصحابه: « قوموا فاركبوا وانصرفوا».

فاعترضه الحر قائلاً: « انهم لا ينصرفون».

فصاح الحسين فيه: « ثكلتك امك. . ماذا تريد»؟

قال له الحر: « لو أن غيرك من العرب قالها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها، ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان. ولكن والله مالي الى ذكر امك من سبيل الا بأحسن ما نقدر عليه».

فقال الحسين: « فماذا تريد»؟

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

(٢) القاموس.

قال: « اريد ان انطلق بك الى الأمير عبيد الله».
قال: « إذن والله لا أتبعك».
فنظر الحر اليه وعيناه تعتذران من جسارته وقال: « لم أتلق أمراً بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى آتي بك الى الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك الكوفة ولا ينزلك المدينة ريثما اكتب الى عبيد الله فأستشيره في أمرك».

٩٠
زينب بنت علي

فرضي الحسين بذلك وأمر الناس بالركوب. فلما سمعت سلمى ما دار بينهما ثبت لديها عجز الحسين عن قتال هؤلاء، واستعانت بالله من عاقبة ما تراه. ثم عادت الى شأنها وآن لها ان تبحث عن عبد الرحمن وعامر بحثاً دقيقاً. فلم تر خيراً من ان تدخل خباء النساء، وكانت تعرف اكثرهن وهن يعرفنها معرفة سطحية لأنها لم تقم بينهن طويلاً. فيممت شطر فسطاط آخر دخلته فرأت امرأة لم يقع نظرها عليها حتى عرفت انها زينب أخت الحسين، وكانت شديدة الشبه به لأنهما من أم واحدة(فاطمة بنت الرسول) ولكنها رأتها في انهماك وبغتة وقد علت جبينها دلائل الاهتمام وعيناها تتوقدان ذكاء وتعقلاً، وكانت زينب منصرفة الى طفل بين ذراعيها لا يزيد عمره على سنة وبعض السنة تهدهده وتشدو له وعيناه ذابلتان يسيطر عليهما النعاس وقد أشرق وجهه كأنه يتدفق نوراً وحياة. والطفل في غفلة عما حاق بأهله من الأمر العظيم. فعلمت سلمى انه علي الأصغر ابن الحسين وهو أصغر اولاده، وكان للحسين ثلاثة أبناء اسم كل واحد منهم علي. وإنما يميزون بعضهم من بعض بلقب السن فالأكبر اسمه علي الأكبر والثاني علي الأوسط(زين العابدين) والثالث علي الأصغر.
أما زينب فحين وقع نظرها على سلمى عرفتها واستغربت حضورها ـ على حين فجأة ـ في تلك اللحظة. ولكنها لشدة ما عانته من الاهوال لم تعد تستبعد شيئاً. فابتسمت ابتسامة الترحاب بالرغم من شواغلها واستأنست بها وأجلت الاستفهام عن حالها الى فرصة أخرى. فأسرعت سلمى اليها وهي تشاركها بعواطفها وتعرض عليها مساعدتها. فأشارت اليها زينب قائلة: « خذي هذا الغلام على ذراعك ريثما ينام»، فتناولته وحنت عليه حنو الوالدة على ولدها. فلما خلت يدا زينب، تحولت الى فراش في احد جوانب الخباء عليه غلام مضطجع، فتبعتها سلمى ببصرها وتفرست في الراقد فإذا هو علي الأوسط، وقد توردت وجنتاه، وتصبب العرق من جبينه، وذبلت عيناه وهما مفتوحتان حمراوان كالدم وعلامات الحمى بادية

عليهما. ورأت صبية جميلة الخلقة نجلاء العينين جاثية بجانب المريض، عليها مظاهر الاضطراب، والدموع في عينيها مع ما يتجلى في وجهها من البشاشة الغريزية. فعلمت سلمى انها سكينة بنت الحسين أخت ذلك الراقد. وكانت سكينة من أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً مع خفة في الروح.

فوقفت سلمى، وهي تهدهد الطفل، وتنظر الى زينب.. فإذا هي قد دنت من فراش المريض وجست يده ومسحت العرق عن وجهه. ثم التفتت الى سكينة وقالت: «لا بأس عليه يا حبيبتي بإذن الله، لن تلبث الحمى ان تفارقه عما قليل بما ينسكب عنه من العرق».

فلم تجبها سكينة إلا بالبكاء ثم رفعت صوتها وقالت: «صبراً على حكم الله.. أما كفانا ما احدق بنا من الأخطار حتى أصيب أخي هذا بالمرض.. فماذا عسى ان تكون عاقبة هذه النوازل»، قالت ذلك وشرقت بدموعها.

فقالت زينب وهي تتجلد: «لا تقولي ذلك على مسمع من المريض لئلا يشتد مرضه»، ثم أمسكت بيدها وأنهضتها وقالت: «قومي يا بنت أخي.. هلمي بنا نتأهب للرحيل، فإن والدك قد أمر بالركوب».

فنهضت الفتاة وأخذت تهيىء نفسها، فوقع نظرها على سلمى فعرفتها واستأنست بها وهشت لها وابتسمت لأنها لم تكن تطيق الانقباض لانطباعها على السرور وحب المزاح البريء[1].

٩١

حديث الهودج

وكان الطفل قد نام على ذراعي سلمى وهي تضمه الى صدرها وتتيمن بقربه لأنه ابن الحسين وفيه دم الرسول. فلما ارادت زينب ان تأخذه منها قالت لها: «دعيه نائماً على ذراعي فإن ذلك افضل له من الانتقال».

قالت: «بورك فيك، يا بنية. ولكني ارى ان أضجعه في الهودج ونحن على أهبة الرحيل».

قالت: «اني ذاهبة في خدمته الى حيث يسير. دعي امر العناية به الي وأعدي شئونك».

فأثنت عليها وانصرفت الى فراش علي فأنهضته، وأمرت من معها من النساء والجواري ان يهتممن بشد الرحال.

---

(١) الأغاني.

وكان الرجال قد اخذوا في تقويض الخيام وتحميل الأحمال. وركب كل منهم في مركبة، وركبت سلمى في هودج مع زينب والطفل وهي تتوق الى الاستفهام عن عبد الرحمن، ولكنها استحيت أن تسألها وهي في تلك الحال.

أقلع الركب وساروا في طريق وسط بحيث تكون الكوفة الى يمينهم. والحر ورجاله سائرون بالقرب منهم ليمنعوهم من الرجوع إذا أرادوا.

وكانت زينب وهي في الهودج تشرف من خلال الاستار على أخيها ومن معه هنيهة بعد هنيهة وتعود الى مقعدها وهي تتأوه. فعلمت سلمى انها إنما تفعل ذلك لشدة قلقها واضطرابها. فأرادت ان تسليها وتخفف عنها وهي تتوقع ان يتطرق الحديث الى حبيبها فقالت: «ما لي أراك في هذا الاضطراب يا مولاتي»؟

فتنهدت زينب ونظرت الى سلمى نظر التأمل وقالت: «تسأليني عن سبب اضطرابي وانت ترين ما نحن فيه؟.. ألا تعلمين اننا ذاهبون الى القتل»؟

قالت: «ولماذا تقولين ذلك؟ ان الله ينصر نصراءه ويرفع كلمتهم»..

قالت: «صدقت يا بنية ولكنك لو عرفت ما ينتظرنا في الكوفة وفي ضواحيها من الأهوال، وما هنالك من الأعداء وفيهم الفرسان والمشاة لعجبت لمسيرنا.. ومعنا الأطفال والغلمان والنساء وفيهم المرضى والضعفاء والرضع. وليس معنا من الرجال الا اخوتي لأبي وهم ستة: العباس، وجعفر، وعبد الله، وعثمان، وعبيد الله، وأبو بكر. وما من اولاد اخي الحسين من يستطيع القتال الا علي الأكبر. وهذا علي الأوسط غلام وهو مريض. ومعنا من ابناء اخي الحسن - رحمه الله - اثنان صغيران: ابو بكر والقاسم، وبضعة آخرون من ابناء عمي عقيل الذين قتل اخوهم مسلم في الكوفة[1]..»، ثم تنهدت وقالت: «آه لو تعلمين كيف قتلوه..»؟

فتذكرت سلمى مقتل مسلم وحان لها ان تظهر نفسها وتنفذ الى حديث حبيبها. فقالت: «اني أعلم بقتل ذلك الشهيد يا مولاتي».

فانتبهت زينب لنفسها وادركت انها كان يجب ان تسألها عن حالها فقالت: «اظنك من اهل الكوفة .. فهل جئت منها قريباً».

فقالت: «نعم كنت في الكوفة ورأيت مسلمًا يناضل بسيفه في بيت طوعة الكندية، ثم رأيتهم يسوقونه والدم يسيل من شفتيه. وعلمت انهم لما بلغوا به الى دار ابن زياد قتلوه قتلة لم نسمع بمثلها من قبل.. اصعدوه الى أعلى القصر فضربوا عنقه وقذفوا بجثته الى اسفل»..

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

فصاحت زينب: « قتلهم الله ما أقسى قلوبهم . . اني كلما تصورت ذلك اقشعر بدني».
فقالت سلمى: « من أنبأكم بمقتل مسلم»؟.
قالت: « لم نسمع به إلا بالأمس وكان أخي قد أرسل نفراً من اصحابه للبحث عن حقيقة الحال، وفيهم اثنان كنديان لم أر اشد غيرة منهما على الاسلام، جاءا الينا منذ امد غير بعيد وقد قص اخي علي من اخبار غيرتهما ما ينشرح له قلب كل مسلم».
فلما سمعت سلمى ذكر الكنديين خفق قلبها عساهما ان يكونا عامراً وعبد الرحمن، ولكنها تجلدت وسألتها: « ومن هما ذانك الرجلان يا سيدتي . . »؟
قالت: « لم ارهما يا بنية، ولكنني سمعت اخي يذكر ان احدهما ابن أخ حجر بن عدي صاحب الغيرة المشهورة في نصرة الحق وهو الذي قتله معاوية بن ابي سفيان ظلمًا . . ».
ولم تكد زينب تتم قولها حتى ارتعدت سلمى، وكان الطفل لا يزال على حجرها فأجفل من اجفالها، وصعد الدم الى وجهها بغتة واخذت الدموع تتألق في عينيها.

٩٢

كشف السر

فعجبت زينب من ذلك وكانت تعرفها معرفة بسيطة ولا تدري علاقتها بعبد الرحمن فقال: « ما الذي غيرك يا بنية». ؟
فلم تتماسك سلمى عن أن ترسل الدمع وهي تقول: « وهل سمعتم شيئاً عن ذلك الوفد يا مولاتي»؟
فتنهدت زينب وقالت: « والهفي عليهم، لقد بلغني ان ابن زياد اللعين قبض عليهم وفعل بهم مثلما فعل بابن عمي مسلم».
فصاحت سلمى: « قتلوهم يا سيدتي؟ . قتلوهم جميعاً . . » قالت ذلك وهمت باضجاع الطفل في الهودج الى جانبها لئلا يعوقها عن الحركة او إذا تحركت توقظه.
فأدركت زينب ان في الأمر سراً فقالت: « لا . . لا . . لم يقتلوهم جميعاً . . لا أدري سوى انهم قتلوا بعضهم».

فقالت: « هل قتلوا عبد الرحمن أواه . . قتلوه . . »؟ قالت ذلك وهي تلطم وجهها.
فأمسكتها زينب وقد نسيت مصيبتها وانشغلت بما رأته من لهفة الفتاة وبكائها، وقالت لها: « ومن هو عبد الرحمن يا بنية؟ وهل من قرابة بينك و بينه»؟
قالت: « انه ابن عمي . . و . . هل قتلوه وألحقوه بأبي»؟

فلما سمعت قولها تفرست في وجهها فرأت فيها شبهاً بحجر بن عدي فقالت: « لعلك ابنة حجر بن عدي»؟

فقالت: « نعم يا مولاتي اني ابنة ذلك المقتول ظلمًا، أنا ابنة حجر الذي ذهب شهيد الحق. ذهب في سبيل نصرة ابيك صهر النبي وابن عمه ووصيه وحبيبه. بالله خبريني وفرجي كربتي. خبريني هل قتلوا عبد الرحمن»؟

فصمتت زينب لحظة وقد نكأت جروحها وتذكرت مقتل ابيها وما يقاسونه من العذاب والبلاء بسبب ذلك. ولكن خاطرها انشغل بسلمى لما رأته من غريب امرها إذ تذكرت أحاديث سمعتها عن عبد الرحمن وخطبته وموت خطيبته فقالت: « لعلك خطيبة عبد الرحمن»؟

قالت وهي مطرقة: « نعم يا سيدتي، انا هي تلك التعسة. . انا سلمى الشقية. . كتب علي ان احيا بعد موت والدي وابن عمي. . آه يا رباه ما هذه المصائب. ولكن. . هل مات ابن عمي حقاً»؟

فأرادت زينب أن تخفف عنها فقالت: « تجلدي يا سلمى، تجلدي يا ابنتي. اني أرى في الأمر سراً عظيمًا وأمراً غريباً لأني سمعت ان عبد الرحمن فقد خطيبته في دار يزيد بن معاوية في دمشق. وأنه جاء للانتقام لها ولوالدها ووالدي، رحمهما الله، وهو إنما اراد الذهاب الى الكوفة سعياً في هذا السبيل. كيف يقولون انك قتلت وأنت على قيد الحياة»؟

فقالت سلمى: « انهم قتلوني ثم أحيوني، كما قتلوا عبد الرحمن وأحياه الله. قد خرجنا من دمشق وأنا احسبه مات، وهو يحسبني مت ولكنني عرفت ببقائه حياً بالأمس، وقيل انه معكم فجئت لألاقيه وألاقي عامراً وصينا، فإذا انا اسمع ما سمعته منك. اشفقي علي يا بنت الرسول وارثي لحالي وابكي معي. بل ابكي علي، اعذريني على ما فرط من عواطفي بالرغم مني. وما انتم في حال تساعدكم على الاهتمام بمثلي».

فاستغربت زينب كل كلمة تسمعها ولم تفهم السر في موتها وحياتها. .

فقالت: « لا تيأسي من رحمة الله. نعم ان عبد الرحمن وعامراً خرجا الى الكوفة مع الوفد ولكننا لم نسمع بمقتل واحداً منهما، سمعنا بمقتل سواهما ولا اظن هذين إلا على قيد الحياة، فأخبريني عما كان من موتك وموته في دار ابن معاوية»؟

فأخذت سلمى تقص حديثها وزينب تنظر اليها وتشاركها بكل حركة وقد انصرف ذهنها عن مصيبتها برهة.

٩٣

جعجع بالحسين

فلما فرغت من حديثها كانت زينب قد آنست فيما سمعت من سلمى عبرة وموعظة وأعجبت بغيرتها على الإسلام، وخصوصاً على بيت ابيها الإمام علي، فقالت لها: « ان حديثك اثر في خاطري تأثيراً كبيراً وهوّن علي ما كنت اتخوفه من الموت. وما الموت بالأمر الذي يجب ان نخافه طالما كنا نعتقد ان الحق في جانبنا، فاتخذي حالنا موعظة لك»، ثم فتحت ستار الهودج وقالت: « انظري الى هؤلاء وهم ـ خيرة بيت الرسول ـ انهم ملقون بأنفسهم الى القتل لأنهم يعتقدون ان الحق في جانبهم ويرون ان من الشرف لهم ان يموتوا على الحق خيراً من ان يعيشوا على الضلال».

فشعرت سلمى أنها بالغت في شكواها وبيان مصيبتها بالنظر لما تراه من المصيبة التي يتوقعونها عما قليل، وهي ضربة شديدة على الإسلام والمسلمين. فابتدرتها قائلة: « اني لا اجهل ما نحن فيه يا مولاتي. ومن هو عبد الرحمن ومن أنا أوكل المسلمين بالنسبة الى ابناء بنت الرسول وأولادهم؟ ولكن يسوءني ان يغلب الباطل الحق، وان ارى الطغاة ينتصرون والكرام يغلبون. ويفعل الله ما يريد».

وبينما هما في هذا الحديث، اذ شعرتا بالهودج قد وقف وسمعتا لغطاً. . فأطلت سلمى من خلال الاستار فرأت الركب قد وقف ووقف الحر ورجاله بإزاء الحسين ورجاله. وإذا برجل على ناقة قادم من جهة الكوفة وقد نكس قوسه وترجل، وتقدم الى الحر ودفع اليه كتاباً . .

فقالت زينب: « ماذا عسى ان يكون خبر هذا الساعي وما في كتابه»؟ قالت ذلك وترجلت، فترجلت سلمى، واسرعتا الى الحسين ووقفتا تنتظران ما يكون من أمر ذلك القادم. فإذا بالحر قد تناول الكتاب وقرأه ثم تحول الى الحسين وهو يقول: « هذا كتاب من الأمير عبيد الله بن زياد. . هل أتلوه عليك»؟

قال الحسين: « إقرأ».

فقرأه فإذا فيه: « اما بعد: فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي. ولا تنزله إلا بالعراء في غير خضرة وفي غير ماء. وقد أمرت رسولي ان يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك امري والسلام».

فلما فرغ الحر من تلاوة الكتاب نظر الى الحسين كأنه يعتذر له عن ذلك الأمر وقال: « لا أقدر على أن أنزلك الا في هذا المكان»، وأشار الى سهل كربلاء على مقربة منهم والفرات من

ورائه والجند يحول بينه وبين الماء . .

فطلب الحسين ان ينزله في مكان آخر فيه ماء . . فأبى وساقهم الى كربلاء .

وأما سلمى فنسيت قلقها على عبد الرحمن وعامر، وانشغلت بأمر الحسين وأهله ولازمت زينب والطفل . أما زينب فإنها عهدت بالطفل الى سلمى واخذت في رعاية من بقي ، وخاصة الغلام المريض فإن الحمى كانت قد عاودته .

وأشرفوا في الصباح على كربلاء وسلمى في الهودج ، فرأت جند الكوفة قد ملأوا السهل وحالوا بينهم وبين الماء . فتطاولت بعنقها لعلها ترى الشيخ الناسك قادماً لكي تستطلع منه حال عبد الرحمن بعد ما سمعته من سيره الى الكوفة او تعلم منه شيئاً يهم الحسين في تلك الحال فلم تر احداً .

أما الحسين وأهله ، فلما وصلوا الى كربلاء ضربوا خيامهم وجعلوا أخبية النساء الى الوراء وخيام الرجال الى الأمام .

ولم تشأ زينب ان تترك اخاها وحده ، فسارت الى فسطاطه وتبعتها سلمى وهي لا تقل قلقاً عنها . فإذا بالحسين جاث بباب خيمته يصلي فصبرتا حتى فرغ من صلاته ، فرأتا رجلاً من حند الكوفة قادماً عليه ، فلما وصل الى الحسين حيّاه . فقال له الحسين : « من الرجل »؟ .

قال : « جئت برسالة من رئيس هذا الجند عمر بن سعد » .

قال : « وما هي رسالتك »؟

قال : « هو يسأل ما الذي جاء بك وماذا تريد »؟

فقال له الحسين : « قل له ان اهل مصركم هذا كتبوا الي ان اقدم فقدمت . فأما إذا اكرهتموني فأنا انصرف عنكم . او آتي يزيد بن معاوية فأضع يدي في يده » .

فلما سمعت سلمى قوله تناثر الدمع من عينيها لما توسمته في جوابه من دلائل الخوف والضعف .

٩٤

علي الأصغر

ولما عاد الرسول بالجواب التفت الحسين الى اخته زينب وقال لها : « وما الذي جاء بك يا أخية »؟

قالت : « أتسألني عما جاء بي؟ ومن لي في هذه الأرض بعدك »؟

فدمعت عينا الحسين وهو يتجلد ويتظاهر بالصبر . وأدركت سلمى ذلك فتحولت حياء

منه الى خباء زينب. وكانت قد تركت الطفل مضطجعاً فيه.

وما ان دخلت الخباء حتى رأت الطفل يدرج اليها وخلاخيله ترن في رجليه وهو يضحك وذؤ ابتاه مرسلتان على عنقه، وقميصه مشقوق من أعلى الصدر، وحول العنق عقد من الجزع الثمين، وفي يده عود يلعب به وإمارات البشر بادية على وجهه. فما استطاعت سلمى عند ذلك ان تمنع نفسها من البكاء وقالت في نفسها: «هينئاً لهذاالطفل لأنه في غفلة عما يهدد والده من الخطر العظيم. هنيئاً له من نفس زكية طاهرة ساذجة لا تعرف متاعب الحياة. له قلب لا يعرف الانتقام ولا الحقد. وهو إذا لقي الرجل لا يبالي أكان صديقاً او عدواً، وإذا سقي السم تجرعه وهو يحسبه ماء زلالاً.. يلقي بنفسه على كل من يهش له ويحب كل من يلاعبه».

ثم دنت منه وبسطت له ذراعيها فهرع اليها وأخذ يلاعبها!ـ يعبث تارة بشعرها وطوراً يجذب نقابها ـ وهي تضحك له وقلبها يكاد يقطر دماً لما تتوقعه من الأمر الكبير.وما عتمت انضمت حتى سمعته يذكر أباه بلغة الأطفال.

فقالت له: «ان اباك لا يلبث ان يأتيك على عجل»، فصمم إلا ان يراه. ولما ألحت في منعه عمد الى البكاء. فانفطر قلبها عليه وحملته حتى أتت به الى والده وهو لا يزال جالساً بباب خيمته وحده. فلما وقع نظر الحسين على ابنه ابتسم له برغمه وبسط له ذراعيه، فألقى الغلام بنفسه عليه واطمأن في حجر والده، فجعل الحسين يقبله ويبكي والغلام يضحك ويقهقه.. وسلمى ترى ذلك وتكظم ما في نفسها. والحسين لم يعرف سلمى إلا أنها من بعض توابع نسائه. فجعل الحسين يلاعب الطفل تارة وطوراً يحن اليه ويشفع الحنين بالبكاء. وآونة يربته والطفل يضحك ويلعب ويضع يده على لحية ابيه او عارضيه او عنقه، والحسين يتنهد وزفيره يكاد يذيب الحديد.. حتى لم يبق له صبر على ذلك. فأشار الى سلمى فمدت يدها وتناولت الغلام وعادت به وهو يود البقاء في حجر والده.

٩٥

الحسين والشيخ الناسك

وفي اثناء رجوعها لأحت منها التفاتة الى احد جوانب المكان فرأت شبحاً مسرعاً من ناحية الكوفة. ولم يقع نظرها عليه حتى عرفت انه الشيخ الناسك فخفق قلبها وهرولت الى الخباء، فدفعت الطفل الى اخته سكينة وخرجت لتلقى الشيخ الناسك. ولما دنت منه سمعته يدمدم ويتمتم فأقبلت عليه حتى التقيا بقرب فسطاط الحسين، فأرسل الناسك شعره على

وجهه وأشار اليها أنه يريد ان يكلم الحسين فاستبشرت بإشارته . ومشت معه الى باب الخيمة، فلما رآه الحسين استغرب منظره ولكنه رحب به وتوسم فيه الخير فقال: « أهلاً بالشيخ الجليل».

فقال الشيخ: « ارجع يا حسين. . ارجع الى المدينة انها خير لك وأبقى. ان الناس هنا يريدون بك شراً ولن تقوى على قتالهم».

فقال الحسين: « اني أراك ذا كرامة، فقل ما يبدو لك».

قال: « انظر يا مولاي الى هذا الجند انهم اربعة آلاف رجل بقيادة عمر بن سعد، وقد أمروا ان يقاتلوكم وانتم فئة قليلة لا تقوون عليهم، قال ذلك وانحدرت عبراته على لحيته.

فتأثر الحسين من منظره ولكنه تجاهل ما يراه وقال: « اني أرى رأيك، فهل من رجوع، ؟

قال: « اطلب الرجوع فإن قبلوا كان به وإلا فإنك. . » وبكى بصوت عال فبكت سلمى. وأما الحسين فقال: « لقد علمت مصيري لأني رأيت جدي ﷺ الليلة يدعوني اليه وما عنده خير مما في هذه الدنيا الفانية».

فكفكف الشيخ دمعه وقال: « أما وقد رأيت رغبتك في الآخرة فاعلم ان ابن زياد لم يجب طلبك، وكان قد أوشك ان يجيبه لولا ذلك الخائن».

قال: « ومن هو»؟

قال: « لما عرضت رسالتك على ابن زياد قبلها ولكن رجل السوء كان حاضراً وهو شمر بن ذي الجوشن، فقام اليه وقال له: « اتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك الى جنبك والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن اجدر بالقوة ولتكونن اجدر بالضعف والعجز. فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن. ولكن لينزل على حكمك هو واصحابه فإن عاقبته فأنت أولى بالعقوبة، وان عفوت كان ذلك لك»، فاستصوب ابن زياد الرأي وبعثه مع كتاب الى عمر بن سعد رئيس هذا الجند يأمره فيه ان يعرض عليكم النزول على أمره، فإن فعلتم بعث بكم اليه، وإن ابيتم قاتلك.

وقال ابن زياد لشمر: « فإن فعل عمر بن سعد فاسمع له وأطع، وأن أبى ان يقاتلهم فأنت امير الجيش واضرب عنقه وابعث الي برأسه»، وهاك فحوى كتاب ابن زياد الى عمرو بن سعد: « اني لم ابعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتكونن له عندي شافعاً. انظر فإن نزل الحسين واصحابه على حكمي واستسلموا ا فابعث بهم الّي سلمًا، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، وإن قتل الحسين فاوطيء الخيل صدره وظهره. فإن انت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع، وان ابيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن والعسكر، فانا قد أمرناه بأمرنا

والسلام». وقد جاء يا مولاي شمر اللعين بذلك الكتاب الى عمر. فعنفه عمر وقال له: «اني لا اظنك الا نهيته عن ان يقبل بما كتبت به وافسدت علينا امراً كنا قد رجونا ان يصلح. والله ان الحسين لنفس ابيه بين جنبيه»، فلم يصغ شمر لقوله، وخشي عمر ان يخالفه فيقتل. فاتفقا ان يعملا معاً وتولى شمر امارة الرجالة واظنه قادماً اليك في الغد».

٩٦

التردد

فلم يتم الشيخ كلامه حتى بللت سلمى شعرها بالدمع وقد زاد شجنها اسم شمرِ بن ذي الجوشن، وقد كانت تحسبه قتل في دمشق على ما قصه عليها الناسك من حديث عامر عند انقاذه عبد الرحمن من السجن. وأما الحسين، فلما سمع كلام الناسك أثر في نفسه، على أنه لم يكن بالأمر الجديد عليه، ولكنه تجلد وقال: «اننا صابرون لحكم الله، والله مع الصابرين».

ثم تحول الناسك فتبعته سلمى وهي ترجو ان تستفهم منه عن عبد الرحمن فإذا هو قد توغل في الصحراء ولم يلتفت اليها فوقفت حائرة وقد استغربت اطوار ذلك الرجل، ثم حدثتها نفسها ان تلحق به، وهي اذا فعلت ذلك تنجو من خطر القتل. ولكنها قالت في نفسها: «وهل انا خير من كل هؤلاء؟ فإذا قتلوهم فما الفائدة من بقائي؟ وأما عبد الرحمن فإذا كان لا يزال حياً الآن وقتل الحسين فإنهم يقتلونه. ولكن.. اذهب لعلي أراه ثم أعود الى هذا الركب لا.. لا.. من أين اعود وكيف اعود؟ يا ويلاه.. ماذا اعمل؟ أأتراك عبد الرحمن وأنا لا اعرف مقره ولا ابحث عنه؟ ولكن كيف اخرج من هنا ومن ينبئني بمكانه، لا.. بل ابقى هنا اناضل مع الحسين واحارب معه فإذا انتصرنا كان الحظ كاملاً وكانت السعادة في الدارين. وإذا قتلنا فلا أسف على الحياة، وليس اشرف من موتة اموتها مع الحسين واهل بيته. هل أنا خير من زينب، ام سكينة، ام الحسين؟ ام.. ام.. ولكن هب انني اردت الخروج، إلا يحمل الحسين خروجي على محمل الخوف»؟ وبعد التردد مدة عولت على أن تبقى مع الحسين فاما ان تموت معه او تحيا معه. فعادت وقد صغرت نفسها وأيقنت بالهلاك الا ان يأتيهم الله بفرج من عنده.

ويممت الى خباء زينب وانصرف فكرها الى الطفل، فقالت في نفسها: «إذا قدر الله فشل الحسين او قتله فماذا يكون من امر هذا الطفل»؟ وشعرت بميل اليه فأقبلت الى الخباء فإذا بالطفل يبكي فأسرعت اليه وضمته وقبلته وسألته عما يريد، فإذا هو يشكو الظمأ وما في المعسكر قطرة ماء فبحثت عن زينب حتى رأتها بجانب فراش ابن اخيها المريض وقد تعاظمت

الحمى عليه وهو يهذي ويخلط في كلامه. فلم تتجاسر على أن تخاطبها، ولا هي قادرة على إسكات الطفل. فلما سمعت زينب صراخ الطفل نهضت اليه وتناولته وجعلت تقبله والدموع تتساقط على خديه وهي تقول: « اشرب من هذا الدمع لعله يرويك. اشرب انهم منعوا الماء عنا والكلاب تشربه».

فقالت سلمى: « أو ليس عندنا جرعة ماء؟ اني أرى الفرات امامي»!

فصاحت زينب: « انهم منعوا عنا الماء، الا تسمعي اصوات هؤلاء الظالمين الساعة يقولون لأخي: « يا حسين الا تنظر الى الماء كأنه كبد السماء والله لا تذوقون منه قطرة واحدة حتى تموتون عطشاً[1]»!

فقالت سلمى: « قبحهم الله ما أقسى قلوبهم وما اغلظ طباعهم! ايمنعون الماء عن المرضى والأطفال»؟ وأخذت تعلل الطفل بخرقة وضعتها على فمه وما زال يمضغها ويمصها وهو إنما يمص ريقه حتى غلب عليه النوم فنام.

وفي عصر ذلك اليوم(الخميس ٩ محرم سنة ٦١ هـ) كانت سلمى وزينب وسكينة جالسات في الخباء وهن يتحدثن فيما يخفنه على الحسين ورجاله فسمعن قرقعة اللجم وصهيل الخيل واصوات الرجال، فخرجت زينب ثم عادت وهي تقول: « لقد أتوا، قتلهم الله».

فلما سمعت سلمى ذلك تحمست وثارت الحمية في رأسها وقالت في نفسها: « لقد حان وقت الاستشهاد في سبيل الحق، وهل أرى سبيلاً الى الجنة خيراً من هذا»؟ وتلثمت بخمارها واسرعت الى قوس معلقة في دعامة الخباء فتناولتها وجعلت تبحث عن السيف. وفيما هي في ذلك رأتها زينب فقالت لها: « وماذا تفعلين يا سلمى»؟

قالت: « لا افعل شيئاً وإنما اطلب وجه ربي اليوم».

قالت: « لعلك تريدين النزول الى ساحة الحرب»؟

قالت: « نعم».

قالت: « وأنى لك ذلك.. يا حبذا لو اننا ننزل جميعاً فنتقاتل حتى نقتل مع هؤلاء. ولكن اخي منعنا واستحلفنا ان نأوي الى الخباء. ألم تري اني خرجت الآن اليه فرأيته جالساً بباب خيمته ومعه سيفه وكأنه لم يسمع صهيلاً ولا صليلاً.. فدنوت منه فرأيته نائماً ورأسه الى ركبته فناديته فأفاق فقلت: « أما تسمع الأصوات قد اقتربت»؟ فرفع رأسه وقال: « رأيت رسول الله ﷺ وعلى آله الساعة في المنام فقال لي: « انك تروح الينا »، فلما سمعت قول اخي لطمت وجهي وناديت بالويل، فقال لي: « ليس لك الويل يا أخيّة اسكتي رحمك الله».

---

(١) كتاب الأرشاد.

واستحلفني الا ارفع صوتي وكلامه لا يرد فهل تريدين غضبه؟ اسكتي معنا يا سلمى ويكفيك من التعب ان تلاحظي هذا الغلام وأنا اعالج المريض حتى يقضي الله بما يشاء».

فشق ذلك على سلمى وأسقط في يدها، وقد كانت تود ان تقاتل حتى تقتل، ولو انها لقيت شمر لطعنته بالحربة او لرمته بالسهم. لأنها تصورت كل هذا البلاء منه فضلاً عما لاقته بسببه في دمشق. وكانت تحسبه مات، فلما تحققت بقاءه حياً تضاعف بلاؤ ها. ولكنها لم تكن لتعصي إشارة الحسين فوقفت مبهوتة لا تدري ماذا تعمل. على أنها تظاهرت بالقبول ثم خرجت ملثمة حتى وقفت بإزاء خيمة الحسين، فرأت أخاه العباس قادماً على راحلته من معسكر العدو، فعلمت انه سار اليهم في مهمة، فاستقبله الحسين وسأله عما كان من أمر هؤلاء.

فقال العباس: «قد استمهلتهم الى الغد فامهلونا على أن نستسلم فيسرحونا الى اميرهم عبيد الله بن زياد، وإلا فليس عندهم غير الحرب».

٩٧

شهامة الرجال

فلما سمع الحسين ذلك قال: «خسئوا»، ووقف وصاح في أهله فاجتمع حوله كل اخوته وأبناء عمه وكل من معه من الرجال ووقفوا ينتظرون ما يقوله وكلهم طوع إشارته. فلما تكامل جمعهم وقف فيهم موقف الخطيب وقال: «اثني على الله احسن الثناء واحمده على السراء والضراء. اللهم اني احمدك على أن اكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا اسماعاً وابصاراً وأفئدة، فاجعلنا من الشاكرين. اما بعد فإني لا اعلم اصحاباً اوفى ولاخيراً من اصحابي ولا اهل بيت ابر من اهل بيتي. فجزاكم الله عني خيراً. الا واني قد اذنت لكم فانطلقوا جميعاً فإنكم في حل ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جميلاً».

فصاحوا جميعاً بصوت واحد: «لم نفعل ذلك لنبقى بعدك لا ارانا الله ذلك ابداً»، فلما سمعت سلمى كلامهم قالت مثل قولهم والدمع ملء عينيها. فانتبه لها بعض الوقوف فالتفتوا اليها فاستحيت وبالغت في إخفاء وجهها.

اما الحسين فعاد الى الكلام وخاطب ابناء عمه فقال: «يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم فاذهبوا انتم فقد أذنت لكم».

فأجابوه: «سبحان الله ماذا يقول الناس؟ يقولون انا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الاعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندري ما صنعوا؟ لا والله لا نفعل. ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح

الله العيش بعدك».
فأرادت سلمى ان تقول قولاً فإذا برجل رفع صوته بين الناس وقال: « نحن نتخلى عنك؟ وبماذا نعتذر الى الله في أداء حقك؟ اما والله لن ابرح حتى اطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي. ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة. والله لا نخليك حتى يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسوله فيك. اما والله لو علمت اني أقتل، ثم أحيا، ثم أذرى.. وأن ذلك سيحدث لي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك. وكيف لا أفعل ذلك. وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها ابداً»؟
فسألت سلمى عن القائل، فقيل لها: « انه مسلم بن عوسجة. ثم سمعت غيره قال مثل قوله فانتعشت آمالها واعجبها ما رأته من الاتحاد والتضحية في سبيل الحق.
فأثنى الحسين عليهم وتحول الى خبائه وتحول الباقون وسارت سلمى الى خباء زينب لتفتقد الطفل، وكان الليل قد أقبل فإذا هو لا يزال نائمًا فسرت بنومه. ورأت زينب بجانب فراش المريض تمرضه فجلست الى جانبها وقد انتعشت بما سمعته في ذلك المساء وذهب كل الى فراشه، وزينب وسلمى ساهرتان تمرضان علياً وتتحدثان عما يتوقعونه..
وفيما هما تتكلمان همساً والليل هادىء، وعلي قد نام وهو يئن من شدة المرض سمعتا قائلاً يقول:

« يا دهر أف لك من خليل   كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل   والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر الى الجليل   وكل حي سالك سبيلي»

وكان الصوت يرتفع من فسطاط الحسين فعلمت زينب انه صوته فوثبت على حين فجأة تجر ثوبها وهي حاسرة الرأس فتبعتها سلمى حتى انتهتا الى الحسين، فرأتاه جالساً والى جانبه خادمه يعالج سيفه ويصلحه فصاحت زينب: « واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة اليوم. ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن. يا خليفة الماضي وثمال الباقي..».

فنظر الحسين اليها وقال: « يا أخية لا يذهبن حلمك الشيطان»، ثم ترقرقت الدموع في عينيه وقال: « لو ترك القطا لنام».

فقالت زينب: « يا ويلتاه أفتغتصب نفسك اغتصاباً، فذاك اقرح لقلبي وأشد على نفسي». ثم ساءها الحزن وبرح بها الأسى فخرت مغشياً عليها. فهمت سلمى بها وأجلستها وقام الحسين لها وقال: « يا أختاه اتقي الله وتعزي بعزاء الله واعلمي ان اهل الأرض يموتون

وأهل السماء يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله: «جدي خير مني، ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة»، ثم قال لها: «يا أخية اني أقسمت عليك فأبري قسمي، ولا تشقي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت».

٩٨

صباح القتال

فأطاعته، وخرجت سلمى تتبعها وهي صامتة وقد أحبت الموت مع الحسين، أما الحسين فقضى ليله يصلي ويستغفر ويدعو ويتضرع وأصحابه كذلك، وقضت سلمى ليلتها مثلهم وقد أخذ العطش منهم مأخذاً عظيمًا.

وأصبحوا في اليوم التالي وهو العاشر من المحرم، فانصرف الحسين الى تنظيم رجاله، فأمرهم ان يدخلوا أطناب الأخبية بعضها في بعض حتى تصير كأنها خباء واحد. وأن يستقبلوا القوم من وجه واحد والبيوت من ورائهم. ولم يكادوا يفعلون ذلك حتى رأوا الخيل اقبلت عليهم وفي مقدمتهم شمر بن ذي الجوشن، وكانت سلمى واقفة في باب الخباء، فلما رأت شمر ارتعشت اعضاؤها ورفعت نظرها الى السماء وطلبت الى الله ان ينتقم منه.

ثم حدثتها نفسها أن ترميه بسهم، ولكنها تذكرت ان الحسين لا يريد ذلك فصبرت واكتفت بالدعاء وملاطفة الطفل.

أما الحسين فركب راحلته وعليه جبته وقلنسوته وتقدم وهو ينادي بأعلى صوته: «يا أهل العراق». فسمعه أكثرهم وأصغوا لما سيقوله فقال: «ايها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى اعظكم بما يحق علي وحتى أعذر اليكم، فإن اعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد وان لم تعطوني النصف من انفسكم فاجمعوا رأيكم(ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون ان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) أما بعد فانسبوني وانظروا من أنا، ثم ارجعوا الى أنفسكم وعاتبوها. فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين المصدق لرسول الله ﷺ، وعلى آله بما جاء من عنده ربه. او ليس حمزة سيد الشهداء عمي؟ او ليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي؟ وألم يبلغكم ما قال رسول الله ﷺ، وعلى آله، لي ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة»، فإن صدقتموني فما أقول هو الحق. والله ما تعودت كذباً منذ علمت ان الله يمقت عليه أهله. وان كذبتموني، فإن فيكم من إذا سألتموه عن ذلك أخبركم»، ثم قال: «فإن كنتم في شك من هذا فتشكون اني ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا

في غيركم. ويحكم ! أتطالبونني بقتيل منكم قتلته؟ او مال لكم استهلكته او بقصاص جراحة»؟

فأجابوه: « اننا لا نفهم ما تقول»[1] وحملوا وحمل رجاله.

فلما علت الضوضاء صحا الطفل من نومه فأسرعت سلمى اليه وقلبها يتقطع حزناً عليه، واشتغلت في إسكاته وهو يصيح من شدة العطش، وكأنه ذعر لأصوات الناس فازداد بكاء وعويلاً، وزينب مشغولة بنفسها لا تدري ماذا تعمل، وقد اشتد المرض على ابن أخيها وظهرت فيه أعراض الذرب فشغلها الاعتناء به عن كل شاغل.

وبينما هم في ذلك إذ رأت سلمى فارساً مقبلاً من معسكر أهل الكوفة يستحث فرسه نحو الحسين. وكان الحسين واقفاً ينتظر ما يحدث وهو لا يصدق انهم يحاربونه، فلما رأى الفارس مقبلاً بدا عليه الاهتمام بوصوله. ولم يكد يقترب حتى عرف انه الحر بن يزيد الذي كان قد لقيهم قبل وصولهم الى كربلاء، ورأته سلمى ايضاً من خلال الخيام فعرفته وتعجبت لقدومه، فلما وصل الى الحسين رمى قوسه بين يديه وهو يقول: « جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله، أنا صاحبك حبستك عن الرجوع ورافقتك في الطريق، جعجعت بك في هذا المكان. وما ظننت ان القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ولا يبلغون بك هذه المنزلة. والله لو علمت انهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت. . فإني تائب الى الله مما صنعت، فهل لي من ذلك توبة»[2].

فقال له الحسين: « نعم. . يتوب الله عليك فانزل».

قال: « فأنا لك فارساً خير مني راجلاً. . أقاتلهم على فرسي ساعة، والى النزول آخر ما يصير أمري».

فقال له الحسين: « فاصنع ما بدا لك».

فلما سمعت سلمى كلام الحر دمعت عيناها وقالت في نفسها: « هل يشعر مثل هذا الشعور ابن زياد أو يزيد»؟ ثم رأت الحر يسوق فرسه أمام الحسين نحو أهل الكوفة فتبعته ببصرها وأذنيها لترى مايكون منه، فإذا هو ينادي اهل الكوفة قائلاً: « يا أهل الكوفة، لأمكم الهبل والعبر، دعوتم هذا السيد الصالح حتى إذا جاءكم استلمتموه وزعمتم انكم قاتلو أنفسكم دونه؟ ثم عدوتم عليه لتقتلوه وأمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كل جانب لتمنعوه التوجه في بلاد الله العريضة، فصار كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا

---

(١) كتاب الأرشاد.

(٢) حكاية عاشوراء.

ضراً ومنعتموه ونساءه وصبيته وأهله من ماء الفرات الجاري، يشربه اليهود والنصارى والمجوس وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه؟ فها هم قد صرعهم العطش.. بئس ما خلفتم محمداً في ذريته، لا سقاكم الله يوم الظمأ»[1].

٩٩
صلاة الخوف

ولم يتم الحر كلامه حتى حمل أهل الكوفة، وفي مقدمتهم عمر بن سعد، وكان عمر هذا أول من رمى سهمًا في الوقعة. وتصاول الفريقان وتراموا بالسهام حتى وقع بعضها في الخيام.

وكان النهار قد أضحى، وسلمى تشاغل الطفل وتسكته، وقلبها يميل الى النزال لعلها تلقى أجراً في الدفاع عن الحق. وشاعت عيناها وهي تنظر الى القوم عن بعد، لعلها ترى ابن ذي الجوشن فلم تره بين الرجال. فصعدت على مرتفع والطفل بين ذراعيها تقيه بكفيها وزنديها وقلبها يختلج فأرسلت بصرها في ذلك السهل، فرأته مملوءاً بالمشاة والفرسان من أهل الكوفة بما يزيد عددهم على أربعة آلاف، وليس مع الحسين إلا ٣٣ فارساً وبعض المشاة. ولكنها رأت رجال الحسين لا يحملون على جانب من جوانب العدو إلا كشفوه، ثم ما لبثت ان رأت الحر بن يزيد قد وقع قتيلاً ووقع غيره. فحولت بصرها الى الحسين فرأته لم يحمل بعد، فما زالت ترجو ان يستبقوه إذا ضعف أمره او قتل رجاله.

ولم تستطع سلمى البقاء هناك خوفاً على الطفل من نبل يصيبه، فعادت الى الفسطاط فرأت زينب وسكينة وفاطمة آل الحسين يبكين بجانب فراش المريض، وهو يخفف عنهن ويهون عليهن كأنه شيخ محنك ليس به مرض. فلما رأى سلمى مقبلة وأخوه بين ذراعيها يبكي، قال لعمته وأخته: «قمن فاستسقين له، واتركنني فلا بأس علي»، فصاحت زينب: «ومن أين نستسقي له ومن يسقينا؟ يا ليته يشرب الدمع فنرويه من آماقنا»، قالت ذلك ونهضت الى الطفل فتناولته وجعلت تقبله، وهي تبكي وتضمه الى صدرها، فبكت سلمى مثل بكائها. ولكنها رأت من الحكمة ان تتجلد وتصبرها. فأعادت الطفل الى حجرها، وقالت: «تصبري يا سيدتي وهدئي من روعك، لعل الله يأتينا بفرج من عنده».

وكانت الشمس قد مالت عن خط الهاجرة، فسمعت سلمى في المعسكر أصواتاً متداخلة، فأسرعت وخرجت من الفسطاط، وخرجت زينب في أثرها. فرأتا الحسين يصيح

---

(١) كتاب الأرشاد.

في رجاله يدعوهم الى صلاة الخوف. فتجمع الرجال ووقفوا والنبال تتساقط عليهم، وصلى فيهم الحسين صلاة حارة يخشع لها قلب الجماد. فلما فرغوا من الصلاة، تجددت آمالهم واطمأنت قلوبهم ـ والصلاة خير ما يعزي الإنسان في ضيقه ـ فتقدم احد رجال الحسين حتى أقبل على أهل الكوفة، وفيهم حملة النبال وحملة السيوف بين فارس وراجل، وقال لهم: « يا قوم اني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. يا قوم اني اخاف عليكم يوم التناد. يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحقكم الله بعذاب وقد خاب من افترى». قال ذلك وهجم وهو يقاتل حتى قتل، وهجم غيره في أثره . . وما زال رجال الحسين حتى لم يبق منهم إلا أهل بيته خاصة[1].

١٠٠

الاستسقاء للطفل

كل ذلك وسلمى لا تدري ماذا تفعل، والطفل بين يديها وقد انشغل بالها بالغلام المريض، فلما رأت رجال الحسين يقتلون طار خوفها ونسيت مصيبتها وغلب عليها اليأس، وأحبت ان تخالف الحسين وتقاتل معه، ولكنها لم تجد سبيلاً الى ذلك والطفل يتوجع، وقد تقطع قلبها لبكائه. وبينماهي في تلك الحيرة بباب الخباء، رأت علياً الأكبر ابن الحسين، وهو شاب صبوح جميل الصورة في التاسعة عشرة من عمره تنبعث الهيبة من عينيه ـ رآته هاجماً بسيفه مشرعاً بيده وهو ينشد قولاً حماسياً ـ فخيل اليها انه فرج مرسل من السماء. ولكنها ما لبثت ان رأته أصيب بطعنة في صدره، فخر صريعاً يتخبط في دمه. وكان أبوه الحسين بالقرب منه فصاح: « قتل الله قوماً قتلوك يا بني، ما أجرمهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول». قال ذلك، وانهمرت الدموع من عينيه . . فاندفعت سلمى تصيح: « قتلوه . . قتلهم الله».

وما أتمت كلامها حتى رأت زينب تسرع وهي تنادي: « يا أخياه وابن أخياه» وجاءت حتى أكبت عليه فأخذ الحسين برأسها، فردها الى الفسطاط. ونادى فتيانه، فقال: « احملوا أخاكم»، فحملوه حتى وضعوه في الفسطاط. ثم تكاثرت النبال المتساقطة هناك فأصيب غيره، وكلما أصيب واحد حملوه الى ذلك المكان .

وخافت سلمى على الطفل، فأرادت ان تلجأ به الى الخباء . . فرآها الحسين والطفل بين يديها فأشار اليها ان تأتي. فأتت اليه والطفل يبكي من شدة العطش، وقد بح صوته وتعب صدره وهي تحنو عليه لتقيه من النبال. فتناوله الحسين من بين ذراعيها وأسرع نحو المعركة،

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

فأسرعت اليه وشخصت ببصرها اليه وقلبها يختلج خوفاً عليه، ولم تفهم معنى ذلك ولم تعرف ماذا تعمل. . فإذا بالحسين يخاطب اهل الكوفة والطفل مرفوع بين يديه، كأنه يشير اليهم ويقول: « يا اهل الكوفة خافوا من الله وأسقوا هذا الطفل الصغير؟ يا قوم خافوا من الله واذكروا عذاب يوم أليم»[1].

فتأثرت سلمى من ذلك الكلام وظنته يثمر، فيحن أولئك القوم على الطفل فيسقونه. . ولكنها لم تكد تفكر في ذلك حتى رأت رجلاً من نبالة الكوفة اوتر قوسه ورمى الطفل، وهو يقول: « خذ اسقه»، فأصاب السهم احشاءه فصاح الطفل صيحة الألم، ثم تحول صياحه إلى أنين، فأحست سلمى ان السهم اصاب قلبها، وركضت الى الحسين والطفل يختلج بين يديه وقد تدلى رأسه على صدره والدم يقطر من جبينه. . فصاحت: « ويلاه ما اظلمهم، ويلاه ما أقسى قلوبهم، قتلوا الطفل»، ثم همت بتناوله فمنعها الحسين من ذلك، وقال لها: «لا تبكي يا بنية ان له أسوة بجده وعمه وأهله الصالحين، ثم رفع يديه والغلام بينهما، وشخص ببصره الى السماء وقال: «ان تكن خبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير منه، وانتقم لنا من القوم الظالمين»، ثم حمله حتى وضعه مع قتلى أهل بيته، وفيهم أخوة الحسين وأولاده وأبناء عمه وأبناء أخيه، ثم التفت الى سلمى، وقال لها: «ارجعي يا فتاة الى الخباء»، فتراجعت وقلبها يقطر دماً وعيناها تسكبان الدمع، ولم تجد سبيلاً الى مخالفة الحسين.

خاطف

وبينما هي في طريقها، وكفاها على عينيها تمسح الدمع وتندب القتلى، أحست بيد قبضت على يدها وجرتها بعنف شديد. فأرادت ان تجذب يدها، فنظرت وإذا بالشيخ الناسك وهو كالأسد الكاسر قد طوّق خصرها وحملها بين ذراعيه، كأنه من مردة الجان، وخرج بها من بين الخيام حتى أتى مضيقاً فوق الخندق مر فوقه، وهي تظن نفسها في حلم. حتى إذا وصل بها إلى كهف وراء الخيام، ألقاها الى الأرض وهو يلهث من شدة التعب، فصاحت فيه: « الى أين تذهب بي يا عماه؟ دعني أمت مع الحسين، فانها أحسن موته يرجوها المؤمن في دنياه». فلم يستطع الشيخ أن يجيبها لتسارع أنفاسه من التعب، ولكنه أشار اليها أن تصبر، فحاولت الافلات منه

---

(١)حكاية عاشوراء.

والرجوع الى المعركة، فأمسكها وأقعدها وهو يقول بصوت متقطع: «وما الموت مما يسرع اليه؟ كيف تموتين وتتركين عبد الرحمن»؟ فلما سمعت اسم عبد الرحمن تجددت احزانها وزادت شجونها، فبكت بصوت عال وقالت: أين هو عبد الرحمن، الم يسبقني الى العالم الآخر؟ دعني أموت وألحق به».

قال: «ومن أنبأك بموته»؟
قالت: «نعم إنه مات وسبقني. دعني ألحق به.. دعني أموت مع الحسين وأهل بيته».

قال: «ان عبد الرحمن لم يمت يا بنية.. هدئي من روعك، واعلمي ان الحسين ميت ولا فائدة من الدفاع عنه».

قالت: «أتعلم انه ميت وتطلب بقائي؟ وما الفائدة من بقائي وبقاء عبد الرحمن، إذا مات سيد شباب المسلمين؟ دعني أمت معه»، قالت ذلك ونهضت، وهي تقول: «لا.. لا، لا يموت. من يجسر على قتله، ومن يمد يده اليه ولا تيبس؟ وأي ارض تتلقى دمه ولا تجف؟ لا. لا يجرؤون على قتله؟ وهو ابن بنت الرسول وسيد شباب المسلمين».

فأمسكها الشيخ بيدها، وقال: «ألا تصدقين انه ميت»؟
قالت: «لا»
قال: «قومي وانظري موتته»..

فقامت وهي تهرول في مشيتها حتى وقفت على أكمة تشرف على الموقعة، فرأت الحسين يمشي نحو فسطاطه والدم يقطر من فمه بسبب سهم كان قد أصابه ولم يقتله.. ولم يصل الى الفسطاط حتى أحاط به جماعة من رجال الكوفة فيهم رجل أبرص، حالما رأته سلمى اقشعر بدنها وارتعدت فرائصها لأنه شمر بن ذي الجوشن، فأرادت ان تصيح، فأمسكها الشيخ وقال لها: «اسكتي واذكري اني الشيخ الناسك».

فوقفت كأنها على الجمر، وعيناها على الموقعة، فرأت رجلاً هم فضرب الحسين على رأسه بالسيف، فقطع السيف القلنسوة واصاب بأسه وامتلأت القلنسوة دماً. فرفع الحسين القلنسوة، وطلب خرقة شد بها رأسه، وطلب قلنسوة اخرى فلبسها واعتم، بينما رجع عنه شمر ومن كان معه.

هجوم اليأس

فلما رأتهم سلمى يتراجعون ظنتهم عدلوا عن قتله، ثم رأت الحسين يعود اليهم ومعه ابن اخيه عبد الله وهو غلام لم يراهق. وكان عند النساء، فلما رأى عمه في ذلك الضيق لم يحجم عن ان يتبعه وزينب في أثره. فسمعته يقول لها: « احبسيه يا أختي»، فأرادت ان ترجعه فأبى، وامتنع عليها امتناعاً شديداً، وقال: « والله لا أفارق عمي»، ولم يتم كلامه حتى رأى رجلاً يهوي بالسيف على الحسين.. فصاح الغلام فيه: « ويلك يا ابن الخبيثة، أتقتل عمي»؟!

فضربه الرجل بالسيف، فاتقى الغلام ضربته بيده، فانقطعت يده الى الجلد حتى تدلت وهي معلقة بقطعة من جلد وأصيب رأسه.. فنادى الغلام: « يا أماه»، فهم به الحسين وضمه اليه، وهو يقول: « اصبر يا ابن اخي على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين»[١].

ومات الغلام لساعته، والحقت جثته بجثث اهله، وسلمى تنظر.. فطار صوابها ولم تعد تستطيع صبراً، فإذا بالحسين قد دعا بسروايل يمانية يلمع فيها البصر قطعها ولبسها، فلما رأته يقطعها استغربت ذلك منه، فقال لها الشيخ: « اتعلمين لماذا فعل ذلك»؟

قالت: « لماذا»؟

قال: « قطع السروايل لكيلا يسلبوها بعد موته».

قالت: « اهو ميت كما تقول؟ لا أظنهم يقتلونه».

ولم تتم كلامها حتى رأت شمر بن ذي الجوشن هاجماً عليه، وليس مع الحسين إلا ثلاثة رجال قتلوا بين يديه ولم يبق سواه. فهجم الحسين عليهم عليه القلنسوة والجبة وتلك السروايل المقطعة، وهي هجمة اليأس. وكأنهم ذعروا لهجومه، ففروا من بين يديه فرار الشاة من الذئب. فاستبشرت سلمى بذلك، وقالت للشيخ: « ألم أقل لك انهم لن يقتلوه؟ ألا تراهم كيف يفرون أمامه»؟

ولم تقل ذلك حتى رأت السهام تتساقط عليه كالمطر وقد صار كالقنفذ، فأحجم الحسين والرجال واقفون بإزائه.. لم يجرؤ احدهم ان يبدأ بقتله، وعند ذلك خرجت أخته زينب الى باب الفسطاط، وصاحت وجند الكوفة يسمعها: « يا عمر بن سعد، ايقتل ابو عبد الله وأنت

---

(٢) كتاب الأرشاد.

تنظر اليه»؟ فلم يجبها. فنادت: «ويحكم.. أما فيكم مسلم»؟ فلم يجبها أحد.

١٠٣

مقتل الحسين

فثارت الحمية في رأس سلمى، وأفلتت من يد الناسك واندفعت نحو الخيام، فاعترضها الخندق والنار لا تزال تتقد فيه، ولم تجد المضيق الذي حملها الناسك عليه.. فوقفت وهي تتلفت لعلها تجد لها مسلكاً تمر عليه الى المعركة، فسمعت ابن ذي الجوشن يقول لرجاله: «ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل، ثكلتكم أمهاتكم»! فالتفتت سلمى، فرأتهم حملوا عليه.. فضربه احدهم على كتفه اليسري فقطعها، وضربه آخر على عاتقه فكبا الحسين على وجهه الى الأرض، فصاحت سلمى وهي لا تدري ماذا تقول: «ويلكم قتلتم الحسين.. شلت أيديكم».

وهرولت ونفسها تحدثها ان تثب من فوق الخندق، ولو وقعت في النار. وكان الشيخ قد دركها وأمسك بذيل ثوبها وهي لا تبالي به وعيناها تحدقان في الحسين، وهو طريح بجانب جثة ولاده واخوته وقد اختلطت دماؤهم، ولكنه لم يمت. فرأت شمر يثب عليه وسيفه بيده، وضع السيف في عنق الحسين وحزه حتى انفصل، فسمعت سلمى بعد الحز شخيراً. ثم رأت ـمر يرفع الرأس بيده، وقد سقطت القلنسوة عنه وبان شعره وقد تخضب بالدماء، وأغمضت لعينان، وناوله الى رجل بجواره، وقال له: «احمله الى الأمير عمر بن سعد».

فجنت سلمى وغاب رشدها، ولم تعد تعرف ماذا تعمل، وكانت قد انتقلت من ـوضعها بغير ان تنتبه، فرأت على عرض الخندق خشبة، فأفلتت من الشيخ بالرغم منه ـوثبت عليها وأسرعت نحو المعركة وهي تصيح: «ويلك يا شمر يا ظالم يا لعين.. كيف تلقى ـوجه ربك يوم الدين»؟

وما وصلت الى فسطاط زينب حتى رأتها راجعة من المعركة ومعها نساء أخريات، وفي أثرهن بعض رجال الكوفة يقبض الواحد منهم على ثوب المرأة فتنازعه وهي تفر من أمامه حتى ينزع ثوبها عنها. فأرادت سلمى ان تدافع فأمسكتها زينب بيدها وأدخلتها معها الفسطاط حيث الغلام المريض.

فدخل الخباء، ودخل في أثرهن رجال والسيوف مشرعة في أيديهم، وهموا بفراش الغلام يريدون قتله، فصاحت سلمى فيهم: «ويلكم.. اتقتلون الصبيان»؟ وخنقتها العبرات، وصاحت النساء مثل صيحتها.

وفي تلك اللحظة، وصل عمر بن سعد فقال لأصحابه: «لا تقتلوا احداً من النساء،

ولا تأخذوا منهن شيئاً وكفوا عن المريض»، وأمرهم ان يحيطوا بالفسطاط لئلا يدخله احد، وأوصاهم ان يحرسوا الأخبية لئلا يخرج منها احد.

اما سلمى ، فانقطعت للبكاء وهي وزينب وسائر النساء حتى علت الضوضاء وارتفعت اصوات العويل مما يتفتت له الصخر.

ثم سمعت سلمى وقع حوافر وضجة ، فأطلت من خلال الخباء فرأت عشرة فرسان جاءوا بخيولهم الى حيث جثة الحسين، ومعهم اميرهم عمر بن سعد. . وقد أمرهم ان يطأوا ظهر الحسين بخيولهم.

فرأتهم يطأون جثته بحوافر الخيل، وهي تتألم لذلك، كأنهم يطأون حدقة عينها، فقالت في نفسها: « وما عاقبة ذلك يا رباه»؟ ولكنها لم تخبر زينب خوفاً عليها.

ثم رأتهم يقطعون رؤ وس القتلى، فبلغ عدد الرؤ وس المقطوعة اثنين وسبعين رأساً، وحملوها الى ابن زياد في الكوفة مع رأس الحسين.

١٠٤

الندب والرثاء

أرسل الكوفيون رؤ وس القتلى الى ابن زياد ، وباتوا تلك الليلة في معسكرهم بقرب كربلاء ، وقد أقاموا حراساً يحرسون خيام الحسين وفيها نساؤه وجواريه وليس فيهم من الذكور الا ابنه علي الاوسط الملقب بزين العابدين وهو مريض.

وأسدل الليل نقابه وانقضت الموقعة ، وقد قتل الحسين وأهله واصبحوا جثثا هامدة لا حراك بها ، واستكنت عناصر الطبيعة ، وأشرق القمر وهو في ليلته الحادية عشرة ، فتكبد السماء قبيل العشاء ، وارسل أشعته على كربلاء ، وقد كانت في صباح الامس قاحلة ظامئة ، فأمست وقد ارتوت من دماء الابرياء . ولو أدرك ذلك التراب فظاعة ما جرى فوقه في ذلك السبت المهول ، لفضل الظمأ على الارتواء . . أو لو علم القمر بموقع أشعته تلك الليلة ، لحسبها ليستر ذلك الجرم الذي لم يرتكب مثله في تاريخ العمران .

اما سلمى ، فلما أقبل الليل وهدأت الطبيعة استولى عليها الجمود ، ولبثت صامتة وطنين السهام لا يزال في أذنيها بما يتخلله من اصوات الناس ، وخاصة صوت الحسين وهو يزجر الناس ويعظهم ويستعين بالله . فتسلط الخيال على سلمى ، فتمثل لها ما رأته في آخر الموقعة من مقتل الحسين وحزّ رأسه ووطء الخيل على ظهره . فلما تذكرت ذلك ، اقشعر بدنها وشعرت بانقباض شديد وضاق صدرها وتاقت نفسها للبكاء ، ولا يحلو البكاء الا بجانب

الميت . . فأحبت الخروج الى مكان الموقعة لتشاهد تلك الجثة الساكنة وتبكيها لتفرج كربتها . فنهضت وهي تتظاهر بحاجة في نفسها حتى خرجت من الخباء ، والحراس لم يمنعوها لاشتغالهم بحديث اليوم وما احرزوا من نصر .

فانسلّت بين الخيام حتى تجاوزت المعسكر ، واشرفت على الموقعة وقد عرفت المكان بما ينعكس عن مستنقعات الدماء من الاشعة الحمراء . فلما رأت ذلك اختلج قلبها في صدرها لما تتوقع ان تراه هناك من الجثث المضرجة بالدماء ولا رؤ وس لها ، فمشت الهوينا وركبتاها ترتعدان . وتذكرت ما كان من الضوضاء في ذلك الفضاء وما آل اليه من السكون المروع ، فازدادت رهبة حتى حدثتها نفسها بالرجوع ، ولكنها تجلدت وظلت في سبيلها وهي تتلمس الطريق وعيناها شاخصتان في الجثث ، فارتعدت فرائصها لما عاينته من الامر الفظيع . . رأت الاثواب الا ما يستر العورات . وبينما هي تخطو خطوة الخائف المتهيب ، سمعت صوتاً خارجاً س بين القتلى، فاقشعر جسمها ووقف شعرها وجمد الدم في عروقها . فوقفت وأصاخت بسمعها وقد غصت بريقها وأمسكت نفسها وتفرست في مكان الصوت ، وهي على بعد بضعة عشر ذراعاً منها ، فرأت شبحاً يتحرك . فجثت في منخفض يكاد يواريها ، وقد ودت لو انها لم تتجشم القدوم الى ذلك المكان . على انها ما لبثت ان رأت ذلك الشبح يقول : « رحمك الله يا ابن بنت الرسول . . رحم الله بدناً حمله رسول الله على ذراعيه وقبّله بشفتيه . . لعن الله القوم الظالمين . . كيف تجرأوا على هذه الفعلة الشنعاء ؟ كيف مدوا ايديهم الى هذا الجسم الطاهر وفيه رائحة سيد المرسلين . . » ؟

فلما سمعت سلمى الصوت ، عرفت انه صوت الشيخ الناسك ، فاطمأن بالها وسكن روعها ولكنها احبت البقاء في مكانها لتسمع ما يقوله ، حتى اذا ابكاها قوله بكت وفرجت كربتها. فسمعته يبكي ويشهق ويقول : « قبحهم الله . . ما أقسى قلوبهم . ألم يخافوا من موقف اليوم الرهيب ؟ تجرأوا على قتلك ، وفيك بقية من دم الرسول ، وأنت ابن بنته . وقد قال فيك : « انا من حسين وحسين مني . أحب الى الله من أحب حسيناً سبط من الاسباط » ، كيف يلقون وجه ربهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً ؟ . . ويل لهم ، قتلوا سيد شباب المسلمين قتلة لم يقتلها كافر ولا منافق . ولم يكتفوا بقتلك ـ وا أسفاه عليك ـ بل قطعوا رأسك ووطئوا ظهرك بالخيل . ولكنني اراك مستقبلاً السماء وقد بسطت ذراعيك ، كأنك تشكو أمرك الى ربك وتدعوه للانتقام منهم ـ وما ربك بغافل عما يعلمون ـ الويل لي انا الشيخ التعس، وويل لشيخوختي . كتب علي ان ارى خيرة المسلمين يُقتلون ، وقد كنت أتوقع اذا حييت أن أراك يا حسين مالكاً رقاب المسلمين ، فتنتقم لي من ذلك الظالم الغادر قاتل الأبرياء . فآخذ بثأر فلذة الكبد وحشاشة القلب المقتول في سبيل الحق ، حتى اذا حانت ساعة

الموت فارقت الحياة مجبور القلب وقد شهدت الحق سائداً منبوذاً .

لقد قضيت شيخوختي ناسكاً هائمًا تائهاً لا آوي الى المنازل ولا أبيت الا في الخلاء ، ولكن أبى الله الا ان ارى الحسين وأولاده وابناء اخيه وابناء عمه جثثاً لا حراك بها . . ارى الدم يجري من رقابها وجوانبها ، وأرى ابدانها مكشوفة وقد تلطخت بالدماء المجبولة بالتراب . . ابداناً بلا رؤ وس . . فيا لله ما هذه البلية » ! فلما بلغ الشيخ الى هذا الحد خنقته العبرات ، فسكت واستغرق في البكا .

١٠٥

الفــرار

أما سلمى فلم تستطع ان تكفكف عبراتها وهي تسمع نواح الشيخ . . ولكنها استغربت ما جاء فيه من التعريض والتلميح ، ولم تفقه ما وراءه. ولو علم الشيخ انها تسمعه ما صرح بما يمكنه ضميره ، وقد صبر على كتمانه بضع عشرة سنة .

ولبث الشيخ صامتاً برهة ، وسلمى تتوقع ان تسمع منه شيئاً جديداً ، لعلها تستطلع حقيقة حاله . . فاذا هو قد نهض ثم ألقى بنفسه على جثة الحسين ، وجعل يقبّلها ويتمرغ في دمائها ويقول : « ما اطيب ريحك يا حسين، وما أزكى ترابك . . تباً لهم كيف يقتلونك وأنت بقية خاتم النبيين . أستحلفك بالله اذا لقيت حجراً أن تقرئه السلام ، وتخبره اني صبرت على قتله صبر الرجال . . وسأصبر حتى الحق به . . وأراه وقد أخذت بثأره . وارجو ألا أموت قبل ان أنال هذه النعمة . . واذا لقيت جدك رسول الله ، أخبره بما فعل المسلمون بعده. . أخبره كيف فعل الطغاة بالصالحين . . قل له انهم انقسموا على الخلافة ، وباعوا الحق بالباطل . . ولا غرو فقد علم ﷺ بذلك ، وتنبأ به قبل وقوعه . . وها قد نـزل القضاء . . » .

ثم نهض الشيخ عن الجثة ، وقد تلطخ وجهه بالدم وازدادت لحيته تجعداً واختلاطاً . . فرفع بصره نحو السماء ، وبسط يديه وهو يقول : « اللهم انت أعلم بما فعل أولئك الادعياء بابن بنت نبيك وأهله . . اللهم انت أعلم بما يقاسيه انصار الحق من الجور العظيم . . اللهم أقول كما قال الحسين : « ان منّعتهم الى حين ففرّقهم فرقاً ، واجعلهم طرائق قدداً ولا ترض الولاة منهم ابداً . . فانهم دعوا الحسين لينصروه، ثم عدوا عليه فقتلوه » .

ولم تعد سلمى تصبر عن اظهار نفسها ، فتحفزت للوقوف . ولم تكد تقف حتى رأت الشيخ ينظر اليها ويتفرس فيها . . فلما عرفها ذعر ذعراً شديداً كأنه رأى مارداً من مردة

الجن ، وصاح قائلاً : « أأنت هنا يا سلمى » !؟ ، وتحول مثل لمح البصر ، وعدا عدو الظبي النافر يلتمس الفضاء .

فنادته واستوقفته وهو لا يسمع ولا يصغي . . فظلت واقفة حتى توارى عن بصرها ، فاستجمعت رشدها ولم تستغرب ذلك النفور من الشيخ لعلمها بأطواره من ذي قبل ، ثم مشت نحو الجثث وهي تتفرس فيما بين يديها من أيد مبتورة قد عفرها التراب ، وسهام منثورة أغفلها الرماة ، واشتمت رائحة الدماء ، وقد تعفن بعضها وتصاعدت ريحه حتى أقبلت على الجثث وكلها بلا رؤ وس . . والجثث برؤ وسها ترهب قلب الشجاع ، فكيف وهي على تلك الحال بين يدي فتاة لم تتعود القتال . . ولكن سلمى انما أقدمت على ذلك ، وقد غلب عليها اليأس ، فتفرست في تلك الجثث . . ولكنها عرفت جثة الطفل المقتول لانها أصغرها جميعاً ، فهمّت به وقبّلته وأطلقت لنفسها عنان البكاء ، وتذكرت مصائبها وما يشغلها من امر عبد الرحمن وهي لا تعلم مصيره ولا أين هو . . على انها تذكرت قول الناسك ببقائه حياً ، ولكنها حملت ذلك منه على رغبته في اطمئنانها لكي تبقى معه ، فجعلت تندب حالها وما قاسته من العناء والبلاء حتى استنزفت الدمع .

١٠٦

رأس الحسين

ثم انتبهت وخشيت ان يشعر بها الحراس ، فطرحت جثة الطفل فوق جثث أهله ، وقالت : « الوداع الوداع ايها الساكنين بلا حراك . . الوداع الى يوم الحشر الرهيب . . وعسى ان ألحق بكم وأنا أحمل خبر الانتقام لكم باذن الله » ، وهي انما ترجو ذلك بما سمعته ساعتئذ من كلام الشيخ الناسك من هذا القبيل .

ثم عادت الى الخيام حتى دخلت الفسطاط ، فرأت زينب في قلق عليها ، فاعتذرت باشتغالها بأمر نفسها .

وفي ضحى اليوم التالي ، عاد عمر بن سعد بجنده الى الكوفة ، وساقوا معهم نساء الحسين وجواريه وبنتيه سكينة وفاطمة واخته زينب وابنه علياً المريض ، وتنكرت زينب في ثياب حقيرة حتى لا يعرفها أحد ، وسارت سلمى معها متنكرة ايضاً حتى دخلوا الكوفة ، فرأوا أهلها يطلون من النوافذ والكوى ليشاهدوا بقية بيت الرسول . . وسلمى تتفرس في الناس من خلال النقاب لعلها تجد عبد الرحمن او عامراً بينهم ، لأن الناسك قد أكد لها بقاء عبد الرحمن حياً مما أحيا آمالها ، ولكنها لم تر أحداً . . حتى اذا أقبلوا بهم على قصر الامارة ، مشت

زينب وسلمى ومعها بعض الجواري ، وجلسن في ناحية من القصر على مقربة من مجلس ابن زياد . وكان ابن زياد جالساً والناس حوله . ورأت سلمى بين يديه رأس الحسين ، وقد تعفر وتقلصت شفتاه وبانت ثناياه وتلطخ شعر لحيته بالدماء والتراب حتى أصبح الشعر كتلاً متجمدة ، وابن زياد ينظر الى الرأس ويبتسم . . وفي يده قضيب يضرب به ثنايا الحسين . .

ورأت بجانب ابن زياد شيخاً جليل القدر، عرفت بعد ذلك أنه زيد بن أرقم صاحب الرسول . . فلما رآه الشيخ يضرب بالقضيب ثنايا الحسين، قال له : «ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين، فوالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي ورسول الله ﷺ عليهما ما لا أحصيه» ، قال الشيخ ذلك وانتحب باكياً . .

قال له ابن زياد : « أبكى الله عينيك . . أتبكي لفتح الله ؟ والله لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك » !

فنهض الشيخ من بين يديه . . وخرج .

ثم انتبه ابن زياد الى النساء الداخلات ، فالتفت الى زينب وقال : « من هذه التي انتحت ناحية ومعها نساؤ ها » ؟

فلم تجبه زينب . .

وعاد ثانية وسأل عنها ، فقال له احد إمائها : « هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله » .

فنهض ابن زياد حتى أقبل عليها . . فلما رأته سلمى مقبلاً ، بالغت في التقنع لئلا يعرفها . . أما هو فحسبها من جملة جواري زينب او خدمها ، فلم يلتفت اليها بل خاطب زينب قائلاً : « الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم » .

فقالت زينبَ : « الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمد ﷺ وطهرنا من الرجس تطهيراً . . انما يفضح الفاسق . ويكذب الفاجر وهو غيرنا » .

فقال ابن زياد : « وكيف رأيت فعل الله بأهل بيتك » ؟

قالت : « كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم ، وليجمع الله بينك وبينهم يوم القيامة فيحتاجون اليه ويختصمون عنده » .

فغضب ابن زياد واستشاط . . فقال له بعض اهل مجلسه : « أيها الأمير انها امرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها ولا تُذم على خطئها » .

فالتفت ابن زياد اليها وقال : « قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة من أهل بيتك » .

فلما سمعت زينب ذلك الكلام احست بضعفها ، ورقت وبكت وقالت له : « لعمري لقد قتلت كهلي ، وابدت أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي . . فان يشفك هذا فقد

شفيت » .

فقال لها على سبيل التهكم : « هذه شجاعة . . ولعمري كان أبوها شجاعاً شاعراً » .

فقالت : « ما للمرأة والشجاعة ، ان لي عن الشجاعة لشغلاً ، ولكن صدري نفث لما قلت » .

١٠٧

نهـاية المشهد

فهز ابن زياد رأسه هزة التهديد ، وتحول الى مكان رأى فيه علياً بن الحسين وهو لا يزال مريضاً ، فقال له : « من أنت » ؟

فقال : « انا علي بن الحسين » .

فالتفت ابن زياد الى من حوله ، وقال: «ألم يقتل الله علياً بن الحسين » ؟

فأجابه علي قائلاً : « كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس » .

فقال ابن زياد : « بل الله قتله».

فقال علي : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » .

فغضب ابن زياد وقال : « وبك جرأة لجوابي ؟ وفيك بقية للرد عليّ ؟ إذهبوا به فاضربوا عنقه » .

فلما سمعت زينب ذلك ، نهضت نهضة الاسد وتعلقت بالغلام وعانقته ، وقالت : « والله لا أفارقه ، فان قتلته فاقتلني معه » .

فنظر ابن زياد اليه واليها ساعة ، ثم قال : « عجباً للرحم . . والله اني لأظنها ودت أني قتلتها معه . . دعوه فاني أراه لما به » ، ثم قام من مجلسه حتى خرج من القصر ، ودخل المسجد فصعد المنبر فقال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيداً وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته » .

فقام اليه عبد الله بن عفيف الازدي ، وكان من شيعة علي ، فقال له : يا عدو الله ، ان الكذاب انت وأبوك والذي ولاك وأبوه . . يا ابن مرجانة تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين » !

فقال ابن زياد : « عليّ به »

فأخذه الجلادون ثم قتلوه . . وكان قتله قاضياً على المجاهرة بنصرة أهل البيت .

أما سلمى ، فانها لم تفتر لحظة عن التفرس في وجوه الناس والتسمع لما يصل اليها من

أحاديثهم ، لعلها تسمع شيئاً عن عبد الرحمن أو عامر . . فلم تقف لهما على أثر . وهي لا تستطيع الخروج الى المدينة للبحث عنهما لأنها في رأي الناس من جملة نساء زينب ، ولا بد من ارسالها معهن مخفورة الى دمشق ولم يكن لها أمل في بقاء عبد الرحمن لو لم تسمع الناسك يقول ببقائه . . على انها حملت قوله على غرض له ، فلم تصدقه . . ولكن الانسان مفطور على التعلق بحبال الآمال ، ولو كانت أو هي من نسيج العنكبوت .

أما ابن زياد فأمر برأس الحسين ، فداروا به في طرقات الكوفة على رمح ، ولم يبق أحد الا رآه وفيهم من شمت بموته - وهم قليلون - ولكن أكثرهم ودوا لو انهم لم يقتلوه .

ولا شك ان ابن زياد ارتكب بمقتل الحسين جريمة كبرى ، لم يحدث أفظع منها في التاريخ . ولا غرو اذا تظلم الشيعة لقتل الحسين ، وبكوه في كل عام ومزقوا جيوبهم وقرعوا صدورهم أسفاً هليه لأنه قُتِل مظلوماً . ولكن القاتلين يعتذرون بأنهم قطعوا دابر الفتنة بقتله ، فلو أبقوا عليه ولو في السجن لما أمنوا قيام شيعته وعصيانهم . ولو كان وحده المطالب بالخلافة دون يزيد ، لكانت مذبحة كربلاء قاضية بخلو الجو لبني أمية . . ولكنهم حاربوا حروباً هائلة قبل أن يخلص لهم الملك .

١٠٨

السفر الى دمشق

وبعد أن طافوا برأس الحسين في أسواق الكوفة ، أمر يزيد جماعة من رجاله أن يحملوا الرأس - ورؤ وس أصحابه - ومن بقي من أهل بيت الحسين ، الى دمشق ليرى يزيد رأيه فيهم[١] ، فحملوا الاحمال وقاموا يطلبون الشام ، وسلمى في جملة الأسرى لا تفارق زينب وسكينة وفاطمة ، وكانت تعزية كبرى لهن . ولم يكن عالماً بحالها الا زينب ، ولكن مصابها شغلها عن ان تفكر معها في أمر عبد الرحمن وعامر ، ولم تتجرأ سلمى على فتح ذلك الحديث .

وكان يزيد بن معاوية بعد أن ارسل ابن زياد والياً على الكوفة وأوصاه بدفع الحسين ، لم يهدأ له بال وهو يفكر في حال هذه الشيعة وماعسى ان يؤ ول اليه أمر الخلافة ، لعلمه ان قلوب المسلمين مع الحسين . ولكنه كان شديد الثقة بابن زياد لما يعلمه من دهاء أبيه زياد من قبله . وكان يرجو ان يكون الابن له ، كما كان الاب لأبيه . . على انه لم يكن يتوقع بلوغ القسوة بابن

---

(١) كتاب الارشاد.

زياد حتى يفتك بالحسين وأولاده وأهل بيته الى هذا الحد .

وكان لا يني على ان يطلب الاخبار ، فتأتيه مع من يرد عليه من رسول ابن زياد حيناً بعد حين . فعلم بنهوض الحسين من مكة وقدومه الى الكوفة ، ثم لم يعد يسمع شيئاً . حتى اذا كان في مجلسه ذات يوم ، وقد جلس الأمراء والاعيان بين يديه ، واذا بغلامه يدخل عليه وينبئه ان بالباب رسولاً من الكوفة . فخفق قلب يزيد لما يتوقعه من الخبر الجديد فقال : « ليدخل » .

فدخل رجل عليه إمارات السفر ، وقد تزمل بعباءته واعتمّ بكوفيته ، فابتدره يزيد قائلاً : « من الرجل » ؟

قال : « زحر بن قبس رسول عبيد الله بن زياد الى أمير المؤمنين » .

قال : « وما رواءك » ؟

قال : « ابشر يا امير المؤمنين بفتح الله ونصره » .

فاستبشر يزيد وأشرق وجهه ، وابتسم وقال : « بشرك الله بالخير » .

قال : « اعلم يا امير المؤمنين ان الحسين بن علّي ورد الينا في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته . فسرنا اليهم فسألناهم ان ينزلوا على حكم الامير عبيد الله بن زياد أو القتال ، فاختاروا القتال » .

فقال : « وهل قاتلتموهم » ؟

قال : « نعم يا امير المؤمنين ، اننا عدونا عليهم من شروق الشمس ، فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مآخذ من هام القوم ، جعلوا يهربون الى غير وزر ، ويلوذون بالآكام والحفر ، كما لاذ الحمائم من صقر » .

فصاح يزيد : « بورك فيكم ، وشد أزرنا بكم » .

فقال زحر : « ثم والله ما كان الا جزر جزور أو نومة نائم حتى أتينا على آخرهم » .

فابتدره يزيد وقد بغت وقال : « وهل قتلتموهم جميعاً»؟

قال : « نعم يا مولاي ، وهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح . . زوارهم العقبان والرخم بقاع سبسب » .

فصاح يزيد صيحة قوية ، وقال : « والحسين » ؟

قال زحر : « والحسين أيضاً » .

فدمعت عينا يزيد ، واطرق وهو يقول : « لعن الله ابن سمية . . لقد كنت أرضى من

طاعتكم بدون قتل الحسين . . أما والله لو اني صاحبه لعفوت عنه . . رحم الله الحسين » ، قال ذلك وانتهر الرسول وأخرجه من مجلسه ولم يصله بشيء [1] .

١٠٩

النــدم

فخرج الرسول ، ويزيد لا يزال مطرقاً وقد قطب حاجبيه وبان الحزن في جبهته . وفيما هو في ذلك سمع رجلاً في صحن الدار يقول : « جئنا برأس أحمق الناس وألأمهم » .

فصاح يزيد : « من ينادي هذا النداء » .

قالوا : « هذا محفر بن ثعلبة ومعه جماعة يقولون انهم جاءوا برأس الحسين » .

فقال يزيد : « خسيء محفر . . والله ما ولدت أم محفر الأم ولا أحمق منه » ! ثم قال : « أين الرجل ؟ أدخلو به عليّ » .

فأدخلوه عليه ورأس الحسين على كفه ، وقد تصاعدت ريحه . . فأقبل الرجل حتى وضع الرأس بين يدي يزيد على البساط ، ومنظره ينفطر له القلب . . وقد تكمش جلده ، وتجمد شعره ، واختلطت رائحة الطيب بروائح الدم المتعفن ، وتغير لون الشعر بما خالطه من الدم والتراب . فلما وقع نظر يزيد عليه اقشعر بدنه ، وتصور هول ذلك العمل الفظيع . وتذكر أنه يرى رأس ابن بنت الرسول فتخشع وتهيب .

وما كاد ينظر إلى الرأس حتى خرجت اليه من وراء الستار امرأة مقنعة هي احدى نسائه ، وآسمها هندبنت عبد الله . . فاستغرب القوم خروجها على تلك الحال ، وهمّ يزيد أن يسألها عن سبب خروجها ، فصاحت فيه وهي تشير بأصبعها الى الرأس قائلة : « يا أمير المؤمنين ، هل هذه رأس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله » .

قال وهو يتلجلج في كلامه : « نعم ، فا عولي عليه والبسي الحداد على ابن بنت الرسول . . عجّل ابن زياد فقتله . . قتله الله » .

فأخذت في العويل والبكاء ، ثم أدخلوها الى خدرها . وأذن يزيد للناس ، فدخلوا عليه والرأس بين يديه ، وهو ينظر إليه ومعه قضيب ينكت به ثغره ويقول : « ان هذا وايانا كما قال الحصين بن الحمام :

أبى قـومنا ان ينصفـونـا فـأنصفت	قـواضب في ايماننـا تقـطر الـدما
يفلقن هــامـاً من رجــال أعـزة	علينــا وهم كـانــوا أعق واظلما

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع

وكان في جملة الحضور رجل من اصحاب الرسول ، اسمه أبو برزة الاسلمي ، فلما رأى يزيد ينكت ثغر الحسين ، قال له : « أتنكت بقضيبك ثغر الحسين ؟ أما والله لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله ﷺ يرشفه ، اما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجيء هذا ومحمد شفيعه»، قال ذلك ثم قام وولى [1] .

فلما سمع يزيد قول الرجل ، نظر الى الرأس وعيناه لا تزالان تدمعان وقال : « والله يا حسين لوكنت أنا صاحبك ما قتلتك » ثم التفت الى الناس وقال : « أتدرون من أين أتى هذا ولماذا قتل ؟ لأنه علم ان الله اكرم يزيد بالخلافة . قال : أبي علي خير من أبيه ، وأمي فاطمة خير من أمه ، وجدي رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر (الخلافة) منه . فأما قوله أبوه خير من أبي ، فقد تحاج أبي وأبوه الى الله ، وعلم الناس أيهما حكم الله له . وأما قوله أمه خير من أمي ، فلعمري فاطمة بنت الرسول خير من أمي ، وأما قوله جده رسول الله خير من جدي . . فلعمري ما احد يؤمن بالله وباليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً . ولكنه انما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » .

١١٠

فاطمة بنت الحسين

فلما فرغ يزيد من كلاه ، علم الناس انه انما قال ما قاله تخفيفاً لهول فعلته . ولكن واحداً منهم لم يجسر على قول ، فسكتوا . ثم سمع يزيد جلبة في الدار ، فقال :«ما هذه الجلبة » ؟

فقال غلامه : «هؤلاء نساء الحسين في صحن الدار » .

قال : « ادخلوهن » .

فأدخلوهن ، وفيهن زينب أخت الحسين ، ومعها فاطمة وسكينة بنتا الحسين ، وبقية النساء وفي جملتهن سلمى وكانت سلمى مقنعة كسائر النساء ، فلم تكن تخاف أن يعرفها يزيد ، وبالغت في التقنع لاخفاء أمرها . وما لبثت ان رأت تلك القاعة حتى تذكرت يومها في دار يزيد وموقف عبد الرحمن هناك ، فتجددت أحزانها . . على انها صبرت نفسها لترى ما يكون .

أما سكينة وفاطمة ، فتطاولتا من وراء الناس لتريا رأس أبيهما ، ويزيد يستره عنهما . فلما رأتا الرأس صاحتا وصاح سائر النساء وولولت بنات معاوية . . وقالت سكينة ، وكانت

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

أكبر من فاطمة : « ابنات رسول الله سبايا يا يزيد » .

فأثر قولها فيه ، فقال : « يا ابنة أخي ، اني لهذا كنت اكره » .

فقالت : « والله ما تركوا لنا خرصاً » .

فقال : « ما اتى اليكن لأعظم مما اخذ منكن » .

فقام رجل من الحضور وهو من اهل الشام ، وقال ليزيد : « هب لي هذه » ، يعني فاطمة .

فلما سمعت فاطمة قوله ، ارتعدت فرائصها وعلمت انه يريد أن يأخذها سبية ، فخافت وأمسكت بثوب زينب ، فالتفتت زينب الى الرجل ، وقالت : « كذبت ولؤمت ، ما ذلك لك ولا له » .

فغضب يزيد وقال لها : « كذبت والله ، ان ذلك لي . . ولو شئت أن أفعله لفعلت » .

قالت : « كلا والله ما جعل الله لك ذلك الا ان تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا » .

فغضب يزيد واستطار ثم قال : « أاياي تستقبلين بهذا ؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك » .

قالت زينب : « بدين الله ودين أبي وأخي وجدي ، اهتديت أنت وأبوك وجدك » .

قال : « كذبت يا عدوة الله » .

فقالت : « أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك [1] » .

فاستحيى وسكت .

ثم أمر بعلي بن الحسين ، فأدخلوه عليه ـ والغل في يديه ورقبته ، وهو غلام صغير ـ وقد تعب من حمله على الاقتاب في أثناء الطريق ، وكان المرض قد فارقه ولكنه مازال ضعيفاً مهزولاً . فوقف الغلام بين يديه وقال : «لو رآنا رسول الله ﷺ مغلولين لفك عنا» . فخجل يزيد ، وقال : «صدقت» وأمر بفك غله عنه فقال علي : «لو رآنا رسول الله ﷺ بعداء لأحب ان يقربنا» .

فأمر به فقرب منه ، وقال له يزيد : « ايه يا علي بن الحسين . . ابوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأيت » .

فقال علي : « ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها ، ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا لما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور» .

فقال يزيد : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم » ، ثم سكت عنه .

---

(١) ابن الأثير، الجزء الرابع.

١١١

خروج سلمى

وكانت سلمى في أثناء ذلك تنتفض من شدة الغضب ، وتوقعت ان يؤ ول الأمر الى الفضيحة وتهيأت للدفاع بأية وسيلة كانت . فلما رأت يزيد سكت ، هدأ روعها . . ثم رأته يشير بيده أن يخرجوهن ، فخرجوا بهن الى دار النساء ، فخافت ان يفتضح أمرها هناك اذ لا تستطيع البقاء مقنعة بين النساء ، فاحتارت في امرها ولم تر خيراً من ان تشكو حالها الى زينب وتستشيرها لانها كانت على علم بقصتها مع يزيد .

فلما خرجوا بهن من مجلس يزيد وأدخلوهن دار النساء ، أقبل عليهن نساء يزيد وسائر اهل بيته وبكين معهن ، وأقاموا المأتم وسلمى تتظاهر بالانشغال ،وهي ترى نساء يزيد وبينهن تلك العجوز ، وكانت تستتر منها وتنتظر فرصة لتخاطب زينب في الأمر .

وفي ذلك المساء ، جاءتها على انفراد واستشارتها في أمرها .

فقالت زينب : « لا تظني اني نسيت حالك ، وقد كنت وأنا في غمرة بكائي ونحيبي أفكر في امرك . . فاعلمي يا بنية ان يزيد خيّرنا في الاقامة حيث نشاء ، وسنختار الاقامة في المدينة ، فاذا شئت المضي معنا ، فاهلاً بك ومرحباً » .

قالت سلمى : « اني على ما تشائين يا مولاتي ، ولكنني مازلت آملة . . . و . . . » ، وبكت .

فادركت زينب انها تقصد أملها في اللقاء بعبد الرحمن فقالت : « لا خيب الله لك ملا » ، وسكتت لانها لا تدري ما آل اليه أمر عبد الرحمن وعامر بعد مسيرهما الى الكوفة ، وان كانت ترجح موتهما. وبعد السكوت برهة ، قالت زينب : « ذلك امر سننظر فيه بعد خروجنا ، ولكنني أرى في بقائك هنا خطراً » .

قالت : وانا اراه كذلك ، فهل تأذنين لي بالخروج الى الغوطة ، فأقيم في دير خالد ريثما تخرجن ، فأكون معكن ان شاء الله»، وهي انما اختارت الدير لكي تزور قبر والدها ، وتبكيه مرة اخرى .

فقالت زينب : « لقد رأيت رأيا حسناً . . امكثي هناك حتى نخرج » . .

ثم تظاهرت زينب بأمر تريد انفاذ سلمى فيه الى خارج القصر ، واخرجتها منه . . فخرجت وهي كالضائعة ، فاقدة الرشد لفرط ما هاج من اشجانها هناك ، اذ تذكرت كل ما قاسته من الاهوال في ذلك المكان . فلما اصبحت خارج القصر ، سارت في اسواق المدينة تطلب الغوطة حتى اذا اشتمت رائحة البساتين ووقع بصرها على تلك الغياض ، تذكرت

حاها مع عبد الرحمن وثارت احزانها . . فسارت تواً تلتمس قبر والدها ، وقد اشتد بها اليأس ولم تعد ترى في الحياة لذة .

١١٢

النـــدب

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب ، فترددت سلمى بين ان تتحول الى الدير او تسير الى قبر والدها والليل قريب . فاشتد بها الشجن ، وساقتها خطواتها الى تلك الجميزة وهي لا تعلم ، فأطلت على المكان وقد غابت الشمس . . فأسرعت الى القبر وألقت بنفسها على التراب ، وأخذت في البكاء والنحيب وهي لا تبالي بما يتهددها من الظلام المقبل . ومازالت تبكي حتى بللت ذلك التراب ، وجعلت تندب والدها بصوت رخيم قد أضعفه التعب وتقول : « ويلاه يا أبتاه . . قم وانظر الى فتاة تركتها ، وتركت لها الشقاء وحملتها فوق ما تحتمل النساء . . شببت وشب معي حب الانتقام . . ولكن وا أسفاه لم أجد الى الانتقال سبيلاً . . قم وانظر ما جرى . انظر الى فتاة عاشت يتيمة حزينة ، لم يكن لها من طيبات الحياة سوى حبيب يحبك ، وقد بذل نفسه من أجل الانتقام لك . ولكنه وا لهفي عليه ، لا أدري ما آل اليه امره . آه ، من ينبئني ببقائه حياً فأسعى اليه ؟! . . ولكن أنىّ له الحياة ، وقد كتب القتل على الصالحين والابرياء . . هل خطر لك يا أبتاه وانت على قيد الحياة ان الناس سيبغون على الحسين ابن بنت الرسول ، ويقتلونه ويحملون رأسه من الكوفة الى الشام ، وقد تعفر وتصاعدت ريحه ، ويتركون جثته طعاماً لغربان كربلاء ؟ هل خطر لك ان الشفتين اللتين قبّلهما الرسول ، تصبحان ألعوبة بين يدي يزيد بن معاوية وعبيد الله بن يزيد . . آه ، وا أسفي على اهل ذلك البيت ، كيف سفكت دماؤهم وقطعت رؤوسهم وتبددت أبدانهم ؟! وا حر قلباه على الحق ، كيف داسه الظالمون بأقدامهم ؟! لا أظنني ان انا استشرتك في البقاء على هذه الحال الا ناصحاً لي بأن اموت وألحق بك . وهل لي غير اللحاق بك سبيلاً الى الراحة ؟ قُضِي الامر ومات الحسين ومات أبناؤه وأبناء اخيه وسائر اهله معه . . سقط عماد بيت الرسول . . ذهب الحق ضحية الباطل . فهل من أسف على فتاة حقيرة مثلي ؟ . . » .

قالت ذلك وهي منكبة فوق القبر ، تتلقى ترابه بين كفيها ، وتستنشق رائحته ملء خياشيمها . ثم التفتت الى ما حولها فاذا هي منفردة في ذلك البستان ، وليس حولها غير الاشجار بلا ظلال لتكاثف الظلام . فارتعدت فرائصها واشتغلت بالخوف عن الحزن ، ومكثت صامتة وهي لا تسمع غير طنين البعوض وصرير الخنافس وحفيف الورق اذا هبت الريح ، فندمت على مجيئها في ذلك الليل ، وجعلت تمسح عينيها بكمها وتتفرس فيما يحيط

بها . . فلا ترى شيئاً لشدة الظلام ، واشتد بها الخوف حتى لم تعد تستطيع الحركة لئلا تسمع صوت خطواتها فترتعد .

وفيما هي في تلك الحيرة ، تذكرت ليلة زارت ذلك القبر ومعها عامر وعبد الرحمن . وتصورت عبد الرحمان واقفاً امامها وخنجره بيده يتعهد بقتل يزيد ، فاختلج قلبها في صدرها حتى كادت تسمع صوت خفقاته، وعادت الى الحزن وعاد اليها البكاء، فقالت: «اين أنت يا عبد الرحمن ، يا حبيبي ، يا ابن عمي ، يا خطيبي ، يا أملي ، وسعادتي . . اني قانعة من الدنيا ببقائك . انت املي ، انت سندي، انت أمنيتي ، انت حياتي . اين انت يا عبد الرحمن ؟ هل انت حي بعد ؟ هل تسمعني اذا ناديتك ؟ انت تحسبني ميتة وانا على قيد الحياة . . هل لك من يخبرك ببقائي اذا كنت في عالم الاحياء ؟ يجب ان تكون حياً . . لا ، لا . . انت لم تمت . . كيف تموت ؟ كيف ينحل ذلك الجسم ؟ كيف يصير تراباً ؟ هل تجسر الديدان على الدنو من ذلك البدن . ألا يتهيب الدود من قامتك يا أحب الناس اليّ ؟ عبد الرحمن . . عبد الرحمن . . قل لي ، أأنت حي ، فأحب الحياة من أجلك ؟ ام انت ميت فأسرع في اللحاق بك ؟ نعم انت حي . . اين انت ؟ . . » .

ثم أجفلت بغته ومسحت عينيها بطرف كمها ، وتباعدت وهي تقول : « ويلاه ماذا ارى . . أرى عبد الرحمن واقفاً امامي وعيناه شاخصتان اليّ ، ولكنه لا يكلمني . . تكلم . . عبد الرحمن ! . . كلمني ، تقدم اليّ . . انظر الى دموعي وقد بللت الثرى . . عبد الرحمن ، تعالى يا حبيبي . . ويلاه . . وا أسفاه انها أضغاث احلام ، اني لا أرى احداً أم انا ارى روحاً ! روح حبيبي عبد الرحمن تجلت لي . . حدثيني يا روح عبد الرحمن ، او خذيني اليه . . » .

ثم سكتت لحظة ريثما ارتاحت ، وعادت الى البكاء وهي تقول : « كيف لا يقتلونه وقد قتلوا الحسين واولاده ؟ قتلوه . . نعم ، قتلوه . . لا . . لم يقتلوه » ، ثم التفتت نحو السماء ، فتراءت لها النجوم خلال الاغصان ، فقالت : « لقد تعودت ان اسمع مناجاة الارواح في هذا المكان . هنا سمعت الهاتف يقول : « بشر الذين ظلموا بعذاب أليم » . ويلاه اين ذلك العذاب ؟ انه عذاب ، ولكنه لي انا التعسة . . الشقية . . » ، ثم استغرقت البكاء وأخذ التعب منها مأخذاً عظيماً . فانتبهت لنفسها وودت لو أنها أجلت الزيارة الى النهار، ونظرت الى ما يحيط بها من جيوش الظلام . فعاد الخوف اليها وصمتت، فأحست كأن جماعة من الناس وقفوا حولها يحدقون فيها بأبصار كالنار، فـ مد الدم في عروقها . . وكل شيء حولها ساكن حتى الهواء.

١١٣

الرعب

وفيما هي على تلك الحال ، وقد أمسكت انفساها لئلا تكدر ذلك السكون ، وأصبحت كالجماد لفرط خوفها ووحشتها ، سمعت سعالاً قوياً فوثبت بالرغم منها . . وصاحت صيحة الرعب : ولم تكد تتحقق من جهة الصوت حتى رأت شبحاً قامداً اليها من وراء شجرة بالقرب من الجميزة ، فصاحت : « ويلاه من أنت ؟ أأنت من الجن أم من الانس ؟ خف من الله وابتعد عني . . » .

ولم تتم كلامها حتى سمعت قائلاً يقول : « لا تخافي يا سلمى يا ابنتي . . لا تخافي » .

فتبادر الى ذهنها ـ لأول وهلة ـ ان والدها قام من القبر ، فوقف شعرها واقشعر بدنها .

ثم دنا الشبح منها ، فاذا هو الشيخ الناسك . . فلما عرفته وقعت مغشياً عليها ، فأنهضها وجعل يروّح لها بيديه حتى افاقت ،فقال لها:«سامحيني يا سلمى على هذا السعال، فقد حدث بالرغم مني.. وانا لم أزعجك الا مكرهاً » . فتشددت وجلست ، وهي تقول : « اين عبد الرحمن ؟ . . قل لي ايها الشيخ ، ان كانت فيك كرامة . . او ادفني . . في هذا التراب الآن . . ادفني . . اقتلني » .

فلم يجبها الشيخ الا بالبكاء بصوت عال ، وكأنه اصيب بجنة . وتركها وجعل يحثو التراب على وجهه ويبكي بكاء الطفل ، ويقول : « يا حبيبي يا حجر . . مت في سبيل نصرة الامام علّي . . قم انصر ابنه ، بل قم وابكه وابك أولاده وسائر اهله . . فقد ماتوا جميعاً . . هنيئاً لك ، فأنت جالس معهم الآن في دار البقاء » .

فلما سمعته يقول ذلك ورأت حاله نسيت نفسها ، وتحيرت في امره . .وتذكرتما سمعته منه ليلة مقتل الحسين في كربلاء ، فازدادت حيرتها وودت ان تعرف ما بعثه على ذلك ، فقالت : « من انت ايها الشيخ ؟ . . قل لي وفرّج كربي . . من أنت ؟ . . » .

فلما سمع كلامها تغيرت حاله وسكت ، كأنه ندم على ما فرط منه ، ثم تجلد وقال لها : « انك تسألينني عن امر ليس من شأنك يا سلمى . . اسكتي وابكي ما شئت ، واذا شئت ان تعلمي من هو الشيخ الناسك ، فسوف تعلمين . . ستأتي ساعة ينكشف فيها امره ،وارجو ألا ينكشف الا مثلما يريد هو » .

فسكتت سلمى ، وخافت ان يبدو منه ما لا تريده ، ثم أرادت ان تغير الموضوع ، فقالت : « اخبرني اين هو عبد الرحمن ؟ . . هل هو حي كما قلت لي » ؟

قال : « لا اعلم . . ولو علمت ما كنت لأقول لك لانك لا تصغين الى قولي » .

قالت : « قل . . بالله قل . . اني مصغية » .
قال : « اتعلمين كما أقول لك » ؟
قالت : « نعم أفعل كل ما تريده ، ولو قلت لي ادفني نفسك حية لفعلت » !
قال : « لا أقول ذلك ، ولكنني اطلب اليك ان تتركي هذا العالم وتأتي معي الى دير نقيم فيه . . لا نرى فيه الناس ولا نسمع بمظالمهم » .
فجاء ذلك الاقتراح صدمة قوية على قلبها ، فقالت : « وعبد الرحمن ؟ . . » .
قال : « قلت لا تسأليني . بل افعلي ما اقوله لك . . » .
فسكتت وقد تحيرت بماذا تجيبه ، ولكنها عولت على الاصغاء لقوله ، فقالت : « وأي دير تريد ان نقيم فيه ؟ . . أنقيم في هذا الدير ؟ . . » .
قال : « كلا ، لا نقيم في هذا الجوار ، اننا لم نجد فيه مغنماً . . هيا بنا الى دير بحيراء في بصرى ، وان كان يعز عليّ ان أفارق هذا القبر » ، قال ذلك واختنق صوته .
قالت : « وأين هو هذا الدير » ؟
قال : « على بعد بضع مراحل من هذا المكان في جهة البلقاء » .

١١٤

الرحيل الى الدير

وكانت سلمى قد استأنست بالناسك ، وذهب اضطرابها وخوفها ولما أحسّت بميله اليها ، ورأت بكاءه على والدها زاد استئناسها به ، وتوسمت فيه شيئاً ترجو ان يفرج كربها . ولكنها ظلت في شك من امره ، ولم تجسر على ان تسأله عن حقيقة حاله بعد ان سمعت ما سمعته من تمنعه ، على انها عولت على استطلاع ذلك في فرصة اخرى .

فلما رأت عزمه على السفر الى بصرى والاقامة في الدير ، شق عليها الانزواء في الاديرة وهي في ريعان الصبا . ولم تذق بعد راحة منذ فتحت عينيها ، ولم تجد غير الفشل في مقاصدها ، وأعظم ما أصابها فقدان حبيبها . ولولا ان الانسان بطبيعته يعيش دائماً على الامل ، ولو في المحال ، لانهارت آمالها بموته. ولبثت برهة تفكر في سفرها الى بصرى ، وتردد في ذهنها أمر خطيبها، وقد علمت من زينب انه سار الى الكوفة . فكيف تطلب الدير وهي لم تستوثق من وجوده هناك او عدمه ؟ !

فلما رآها الشيخ ساكتة قال : « ما الذي يجول في خاطرك يا سلمى ، أظنك تترددين في سفرك الى دير بحيراء ؟ وكأني بك تقولين كيف اسير الى بصرى، وقد تركت عبد الرحمن

في الكوفة . . فاعلمي يا سلمى اني لو لم أيأس من وجوده هناك ما دعوتك الى ذلك الدير . آه لو علمت اين هو - ولو في الصين - لقصدته ، كما قصدتك هنا» قال ذلك وصوته يتلجلج، كأن البكاء يعوقه عن الكلام.

فلم تزدد سلمى من ذلك الا اسفاً لان املها كان لا يزال متعلقاً ببقاء عبد الرحمن في الكوفة فاذا لم يكن هناك فأين يكون ؟ فازداد اضطرابها وقلقها، فلم تجد بداً من تسليم قيادها الى ذلك الشيخ، وهي تثق في حسن قصده وصدق غيرته في سبيل الامر الذي قامت هي لأجله . على انها لولا بقية من أمل في نفسها بلقاء عبد الرحمن ما فضلت مكاناً على الدير او القبر . ثم قالت للشيخ : « هل اترك بقية بيت الرسول ، وقد فارقت زينب على ان انتظرها هنا ريثما تخرج مع اهل بيتها الى المدينة فأسير معها » ؟

قال : « لا أرى ان تسيري معهم ، فقد كفاك ما لاقيت من الاهوال في رافقتهم . . تعالي الى دير بحيراء ، فانه ذو كرامة . ولنقم هناك حتى يأتي الله بالفرج » .

قالت : « اني فاعلة ما تريد ، ولنتوكل على الله . ولكن اين نبيت الليلة » ؟

قال : « نبيت هنا ولا خوف علينا والبلاد في أمان . . نامي انت وانا ساهر ، لاني قد نمت طول النهار » .

وباتا تلك الليلة ، وسلمى في بحر من الهواجس لا تدري ما يصير اليه امرها .

فلما اصبحا، قال الشيخ : « اعلمي يا بنية ان طريقنا من هنا الى بصرى وعر ، ولا بد لنا من قطعه على اقدامنا » .

قالت : « انا لا يهمني ذلك ، فما انا اضعف منك على تحمل مشاق السفر . . فأنت شيخ ، وأنا صبية » .

قال : « اعلمي اننا سنسير بضعة ايام نحو الجنوب حتى نقبل الى بصرى مدينة الروم ومركز تجارة بلاد العرب » ، فسكتت ولم تجب ، ومعنى سكوتها انها لا تراجعه في امر يريده .

فقال لها : « امكثي هنا ريثما أعود اليك . . » .

فتركها ومضى ، ثم عاد ومعه جراب فيه زاد وفاكهة ، فناولها اياه وقال : « هذا طعام يكفينا يوماً كاملاً ، ورزق الغد الى الغد » . . فأكلت . . .

١١٥
بصرى

وبعد السير بضعة أيام سيراً بطيئاً ، أشرفا على مدينة بصرى (وهي غير البصرة في العراق) نحو العصر . . وكانت سلمى قد تعبت واستوحشت وتغيرت حالها ، ولم تذهب

صورة عبد الرحمن من ذهنها. ولكنها لا ترى سبيلاً اليه لأنها لا تعلم مقره. . وكانت قد استسلمت الى الشيخ الناسك لاعتقادها أنه انما يسير بها الى الخير، وأنه ذو كرامة، وما تحسبه يخطو خطوة الا لغرض يقدّر نفعه.

فلما أطلا على بصرى، وهي من أكبر مدن حوران في ذلك العهد، انبهرت سلمى لعظمتها وعمرانها وخصبها وسط تلك البلاد الجرداء التي يندر فيها الشجر. ورأت خارج المدينة من جهة الغرب بحراً لا معاً بما ينعكس عنه من أشعة الشمس، فسألت الشيخ الناسك عنه فقال: «ما هو بحر يا بنية، وانما هو حوض كبير يخزن الناس فيه مياههم ابان الشتاء ليستقوا منها في الصيف، هو عبار عن خزان للمياه طوله نحو ١٢٠٠ ذراع وعرضه ٥٠٠ ذراع، وكان لبصرى احواض اخرى تهدمت».

ثم قال: «اعلمي ان بصرى مدينة قديمة عاصرت دول اليهود فاليونان فالرومان، وفيها أبنية رومانية ويونانية وسريانية».

فالتفتت سلمى الى تلك المدينة، والشيخ واقف بجانبها، فاذا هي بديعة النظام يكتنفها سور يزيد محيطه على اربعة أميال، وتحيط بالمدينة غياض وبساتين حافلة بأنواع الاشجار والثمار. ووراء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الأفق. ورأت لون أبنية المدينة مغيّراً، كأنها تلوثت بالدخان، فقالت: «وما الذي غيّر لون هذه الأبنية»؟

قال: «ذلك هو لون أحجار هذه البلاد، فان فيها حجراً أسمر يسمونه الحجر الحوراني هذا لونه. . ومما يزيدك عجباً ان أبنية حوران لا يدخل في بنائها شيء من الخشب، وإنما هم يصنعون سقوف بيتهم وأجنحة ابوابها ونوافذها من الحجر الصلد».

فاشتاقت سلمى الى النزول في المدينة لمشاهدة اسواقها، فقال لها الشيخ: «اذا اردت النزول اليها، فما انا نازل معك. . لاني كما قلت لا آوي المدن ولا أمر بها. وزيدي على ذلك، فاني، أعرف هذه المدينة كما اعرف بيتي. . فقد زرتها غير مرة وأنا شاب ـ وكنت اعتنق الديانة النصرانية ـ وزرت كنائسها وحماماتها وشوارعها وقصورها فاذا هي من أعظم المدن [1]. وربما سنحت لك الفرصة بعد حين لمشاهدتها، واما الآن فتعالي معي الى الدير».

---

(١) بالجزء الاول من رواية «فتاة غسان» وصف لمدينة بصرى.

دير بحـــيراء

فلما سمعت قوله انه كان يعتنق الديانة النصرانية في شبابه ، تفرست في سحنته فرأته يشبه ان يكون كندياً من قبيلة ابيها ، لان اهل كندة كانوا نصارى حتى جاء المسلمون بلادهم فاعتنقوا الاسلام ، وزادها ترجيحاً ما رأته من الغيرة على أبيها والانتصار لبيت علي . ولم يزدها كل ذلك الا حيرة وشكاً وهي مع ذلك لا تستطيع مخاطبة الشيخ في هذا الموضوع لئلا يغضب . فلم تر خيراً من الصبر حتى يتأتى لها استطلاع الحقيقة .

أما هو ، فقال ما قاله وسار . . فسارت هي في أثره حتى أشرفا على الدير ، فاذا هو بناءان أحدهما كبير وفيه قبة فوقها صليب ، علمت سلمى انها كنيسة والآخر صومعة على رابية . فمشيا نحو الكنيسة فلما اقبلا عليها تفرست سلمى في بنائها ، فرأتها مبنية على النمط الروماني واسمها كنيسة بحيراء فدخلا صحنها حتى جاءا البيعة ، فرأيا المكان ديراً وفيه كنيسة ، وشاهدا الرهبان والقسس . . وكلهم من الروم ، يتكلمون اللاتينية وبعضهم يتكلمون اليونانية والسريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة تلك البلاد بعد السبي .

فقالت سلمى : « ما لي أرى الناس هنا أخلاطاً من لغات شتى » ؟

فقال : « لأن بصري يا ابنتي عند النصارى مركز أسقفية بلاد العرب الكبرى ، وفيها يقيم رئيس الأساقفة ، ومنها يرسل الاساقفة الى الآفاق » .

قالت : « أين دير بحيراء » ؟

قال : « هذا هو الدير الآن . . وأما المكان الذي كان يقيم فيه الراهب بحيراء ، فهو صومعة بجانب الدير » .

قالت : « هلم بنا اليه » .

فخرج بها والرهبان لم يلتفتوا اليهما ، ولا استغربوا حالهما ، لأن الدير ملتقى الغرباء . وفيهم النساء والمهاجرون والمسافرون والمرضى وأهل النذور وغيرهم .

فلما خرجا من الدير ، التفتت سلمى الى الصومعة . . فاذا هي لا تشبه الابنية ، ولا هي صدقت أنها بناء ، لانها عبارة عن خمسة أحجار ضخمة اربعة منها للجدران وواحد للسقف ، والباب حجر واحد مرتكز على مصراع يفتح ويغلق بسهولة . فاستغربت شكل تلك الصومعة ، فقالت : « ما هذه الصومعة يا سيدي » ؟

قال : « ألم أقل لك ان الخشب معدوم في هذه البلاد ، وأهلها يصنعون أبواب بيوتهم وأجنحة نوافذهم ومقاعدهم وسائر أدوات القعود والرقاد من الحجر ؟ وقد يفعلون ذلك ولو

كان المنزل مؤلفاً من عشر غرف أو عشرين ، فانك لا تجدين فيه أثراً للخشب » ، قال ذلك ومشى أمامها وعكازه بيده ، وهو على ما وصفناه به من ارسال الشعر وعليه رداؤه القديم ، وسارت هي في أثره حتى دخلا الصومعة فلم يجدا فيها من الادوات سوى مصباحين معلقين أمام صورتين : احداهما تمثل مريم العذراء ، والاخرى تمثل السيد المسيح ، وهناك صورة أخرى لم يعرفاها . ولم يجدا في الصومعة احداً .

فلما دخلت سلمى تخشعت ، وتذكرت حالها ، فقالت للناسك : « ها أنا الآن في دير بحيراء ، فكيف ترى ان تكون اقامتنا فيه »؟

قال : « ان في الدير الذي خرجنا منه الآن غرفاً يقيم فيها المسافرون ، والدير يقدم لهم ما يحتاجون اليه من الاطعمة مجاناً - فتقيمين انت في غرفة ، وأنا أقيم في هذا البستان بالقرب منك ، فنجتمع في اثناء النهار ونفترق في الليل . . فتبيتين انت في الدير وانا ابيت تحت الشجر لأني عاهدت الله على ذلك كما تعلمين » .

فأطرقت سلمى هنيهة ، ثم قالت : « ولكني لم أرَ في الدير نساء ، فكيف أقيم وحدي »؟ قال : « في الدير نساء كثيرات ، وأكثرهن يخدمن في اعداد الطعام وغسل الثياب »، قالت : « أرى اذن ان اجعل نفسي في جملة الخادمات ، لكي تكون في اقامتي فائدة » . . .

١١٧

الأخت مريم

وخرجا من الصومعة ، وسار الشيخ الناسك الى رئيس الدير ، وقال له : « انني وابنتي هذه نريد ان نقيم بقية حياتنا في هذا الدير نعبد الله ونخدم عباده ، وانا شيخ ناسك لا آوي البيوت ، ولكن ابنتي هذه تريد ان تكون في جملة خادمات الدير في إعداد الطعام وتنظيف الغرف ، فهل تقبلوننا » ؟

قال : « أهلاً بكم ومرحباً » . .

وأتوا لسلمى بثوب مما تلبسه خادمات الدير فلبسته ، وهو لا يقضي على لابسته بشروط الرهبنة ، وإنما يقضي عليها بخدمة الدير بغير مقابل ، ثم أرسل رئيس الدير سلمى الى قيّمة الدير . . فرحبت بها وأعجبت بما شاهدته فيها من الجمال والهيبة ، وما وسمته في عينيها من الذكاء وسمّتها اسمًا جديداً على العادة المتبعة في مثل هذه الحال . . فصار اسمها مريم ، ولم يمض قليل حتى احبها كل نساء الدير ورجاله ، وكلهم معجب بما آنسوه من تعلقها وتفانيها في

الخدمة ، وقد زادها الانقباض والسكوت هيبة ووقاراً، وأصبحت بعد حين مرجع مشوراتهم وزهرة جمعياتهم .

ولم يكن يمضي يوم لا يأتي الدير فيه وفود من الضيوف من انحاء جزيرة العرب والعراق والشام ، وفيهم اهل التجارة واهل السياحة واصحاب النذور ونحوها .

وأصبحت الاخت مريم مضرب أمثال اهل الدير وضيوفهم في الرزانة والتعقل . .

أما هي ، فكانت تجد في تلك الخدمة راحة وعزاء عن مشاغل العالم ، وأحست بسعادة لم تكن تشعر بمثلها من قبل . وما كان يعكر صفو سعادتها سوى تذكر عبد الرحمن وما مر بها من الحوادث الغريبة . وعلى مر الايام . كادت تنسى كل ذلك ، الا عبد الرحمن فان صورته لم تكن تذهب من مخيلتها ساعة

وكانت اذا اجتمعت الراهبات او الرهبان ، ودار الحديث حول الامور العامة ، سمعت طعناً قبيحاً في يزيد وسوء تصرفه ، وما يرتكبه من شرب الخمور والانشغال باللهو والطرب وضرب الطنابير وتربية القرود . . وكانت اذا سمعت ذلك ينقبض قلبها ، وتقول في نفسها : « لا يصلح الحاكم الا اذا أتيح له الاطلاع على سرائر رعيته وما يقولونه في مجالسهم الخاصة من انتقاد اعماله، وما يناجون به ضمائرهم بشأنه. وهو اذا أتيح له ذلك لا يبقى على غيه مهما بلغ من حمقه وجهله . . كذلك كان يفعل عمر بن الخطاب ، فكان يتنكر ويخالط الناس فيسمع ما يقوله عجائزهم وصبيانهم وشبانهم وكهولهم ، ويتدبر ما يسمعه من الانتقاد . فيصلح خطأه وينصف المظلوم ويضرب على ايدي الظالمين ، فساعده ذلك على تشييد مملكة الاسلام واقامة دعائمها على العدل والحق .

« وأما يزيد فانه انشغل بنسائه وخموره ، واستبد بأبناء الرسول ، واضطهد اهل بيته حتى كاد يودي بالاسلام والمسلمين . كاد يهدم بناء أسسه الخلفاء الراشدون على كتاب الله وسنّة نبيّه . ولو ان الله منَّ عليه بأناس من اهل الشورى والصدق يطلعونه على حقيقة حاله ، وما يتقوله الناس عن حكومته ، وما يشكونه من ضعفه واهماله لأخذ نفسه بالاصلاح جهد طاقته ولعل الله اراد ذلك ليدني أجله ، حتى تخرج الخلافة من يده » .

١١٨
زيارة يزيد

قضت سلمى في دير بحيراء سنتين وبعض السنة ، وهي على تلك الحال، والشيخ الناسك معها ، حتى ألفت الوحدة وكادت تنسى مصائبها . . لولا ذكرى عبد الرحمن ، فانها

كانت اذا ذكرته استغرقت في التأملات ، فيخيل لها احياناً انه لا يزال حياً . . فيتجدد املها بلقياه ، ثم لا يلبث ذلك الامل ان يضمحل من مخيلتها ، فتعود الى البكاء عليه في خلوتها ، والشيخ الناسك لا يشفي غليلها بخبر صريح أو بنبأ صحيح .

وأصبحت ذات يوم ، فرأت اهل الدير في هرج ومرج ، وقد أخذوا في تزيين الابواب والنوافذ ومد الابسطة وذبح الذبائح . . فسألت عما دعاهم الى ذلك ، فقيل لها ان الخليفة قادم الى حوران ، ولا بد له من المرور بالدير والاقامة فيه يوماً او يومين . . فلما سمعت ذلك اختلج قلبها في صدرها وتذكرت اشجانها ، فانقبضت نفسها ولم تر لها مخرجاً من ذلك إلا بلقاء الشيخ الناسك . فلما اقبلت عليه ، رأته جالساً تحت شجرة وعكازه بيده ينكت الارض بها ، وقد بالغ في الاطراق كأنه يفكر في امر ذي بال . فلما دنت منه ، رفع بصره اليها وعيناه تتلألآن كأنهما شعلتان ، وابتدرها قائلاً : « ان الطريدة اوشكت ان تقع في الفخ ، فهل تفلت منك هذه المرة » ؟

فشعرت سلمى للحال بتجدد آمالها بالانتقام ، ثم اجابت : « ارجو ان لا تفلت ، والله المستعان » . .

قال : « اعلمي يا سلمى ان يزيد قادم الى الدير في مساء هذا اليوم ، وسيقيم هنا ليلة ريثما يستريح ثم يشخص الى حوران . . فاذا استطعت امراً ينسينا مصائبنا واحزاننا ، فانك تفرجين كربنا وترفعين عن عاتق المسلمين ثقلاً كبيراً » .

فأطرقت سلمى هنيهة ، ثم قالت : « اني فاعلة ذلك باذن الله . . ولكن هل يسعدني الحظ بعد ذلك بلقيا عبد الرحمن » ؟

قال : « اذا نجحت في قتل هذا الرجل ، فانك تحيين عبد الرحمن وتقيمينه من بين الاموات » .

فاقشعر بدنها ، وقالت : « اذن فأنت على ثقة من موته » ؟

قال : « كلا . . انما ارجو ان تؤدي الواجب عليك ، والله نصير المظلومين . فاذا كتب لك لقاء عبد الرحمن في هذه الدنيا فانك تلقينه ظافرة وتعيشان سعيدين ، والا فانك تلاقينه في الآخرة وقد انتقمت لأبيك ولأهل البيت وذلك يكفيك » .

وأرادت ان تجيبه ، فسمعت الناقوس يدعو الرهبان وسائر أهل الدير الى العمل ، فهمّت بالرجوع . فناداها الناسك : « تمهلي يا سلمى » ، وتناول طرف ثوبه وفيه عقدة حلها ، وأخرج منها ورقة ومد يده بها ، وقال : « خذي هذه الورقة فان فيها دواء الظلم ، اذا شربه يزيد شفي الاسلام من دائه » . فعلمت انه سم ، فتناولت الورقة وفتحتها ، فرأت فيها مسحوقاً ناعماً . . فعادت وطوتها وخبأتها في جيبها ، وهرولت الى الدير حتى وصلت الى

المطبخ واشتغلت مع سائر النساء في اعداد الطعام .

ولما مالت الشمس الى الاصيل ، ظهر غبار في عرض الافق ، ولم يكد يرى الرهبان ذلك حتى خرجوا بالمباخر والقماقم واصطفوا في ساحة الدير وعليهم الملابس الرسمية تتلألأ بألوانها الزاهية ، وفيهم المرتلون وضاربو الصنوج ، والرئيس في مقدمة القوم وبين يديه غلمان يحملون سعف النخيل وباقات الزهور .

وبعد هنيهة ، أقبل الركب تتقدمه الخيالة وفي صدرهم يزيد راكباً على فرس عربي عدته من فضة ناصعة البياض . وعلى كتفيه قباء وردي اللون مزركش بالقصب ، وحين وقع نظر سلمى عليه عرفته فاقشعر بدنها وتذكرت حالها معه ، ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر ما يكون . فاذا بالرجالة قد أسرعوا فضربوا فسطاطة بقرب الدير ، وترجل الفرسان وأقبل الخدم وفيهم خدمة الصيد يحملون البزاة والقرود ويسوقون الكلاب والفهود ، كما رأتهم في دير خالد منذ نحو عامين ، وكان يزيد اذا رحل جعل همه الاشتغال بالصيد . .

١١٩

الضيافة

ولما ترجل يزيد، استقبله الرئيس وكبار اهل الدير بالملابس الرسمية ورحبوا به . فلما دخل الفسطاط دخلوا في أثره واستعطفوه ليقيم بينهم ويتناول العشاء عندهم، فأجاب دعوتهم .

فأمروا بالأبسطة ففرشت في مكان معد لذلك، وجاؤ وا بأصناف الأشربة الحلوة بألوانها الزاهية وقدموا ليزيد ورجاله فشربوا . ثم أمر الرهبان بإحضار الطعام فحملوه الى هناك، وكانت النساء تهيئه وتساعد الخدم في إحضاره .

فلما رتبت المائدة ووضعت الآنية والأطباق، نزع يزيد كوفيته وغسل يديه وجلس في صدر المائدة على وسادة من الحرير المزركش، وجلس أمراؤه بين يديه وأخذوا في تناول الطعام .

وفيما هم في ذلك، أخذ يجيل بصره في الراهبات الواقفات للخدمة، فوقع بصره على الأخت مريم . فانبهر من جمالها وهيبتها وتذكر سلمى ، وكان قد بلغه انها ماتت منذ عامين او اكثر . فقال في نفسه : « يا للعجب ! كم يتشابه الآدميون »؟!

وقضى مدة الطعام وهو يردد بصره فيها ، فأحس بميل شديد اليها ، وأعجب بها لشدة شبهها بسلمى .

أما سلمى ، فكانت تتجاهل وتتظاهر بتقديم الأطعمة والأشربة ، وهي مطمئنة البال

الى ان يزيد لا يمكن ان يعرفها بعد ان بلغه نبأ موتها من طبيبه . . وبخاصة لأنها بدلت اسمها وثيابها وسائر أحوالها.

أما يزيد فإنه شغف بالفتاة، وكتم شغفه بها ريثما يحتال في استقدامها اليه . . فأخذ يلاطف الرئيس ويثني على ما لقيه من كرمه وحسن وفادته، ويعده خيراً بكل ما التمسه منه. فلما نهضوا عن المائدة دعاه الى خيمته وبالغ في إكرامه حتى غربت الشمس، ودق ناقوس الصلاة فاستأذن الرئيس في الانصراف فأذن له، ثم أسر الى رجل من بطانته ما أضمر من أمر الأخت مريم، وكلفه استقدامها بحيلة.

فخرج الرجل الى الرئيس وأبلغه سرور الخليفة مما لقيه من الاكرام والحفاوة، إلى أن قال: « وقد تعود الخليفة ان يتناول المرطبات قبل النوم».

فقال الرئيس: « إننا اعددنا كل ما ترتاح اليه نفسه، ونحن طوع إشارته».

قال: « ولكنني لا أظَنكم تستطيعون القيام بكل ما يحتاج اليه».

قال الرئيس: « وكيف ذلك ونحن لا ندخر وسعاً في سبيل مرضاته»!

قال: «لا يخفى عنك أن مولانا أمير المؤمنبن تعود ان تعد له الطعام فتاة جئنا بها معنا من دمشق، فمرضت في أثناء الطريق فأرجعناها الى أهلها. وقد قضينا بقية السفر والخليفة لا يرى الطعام لذيذاً. فلما تناول العشاء عندكم الليلة أعجبه حسن طهية، ورأى بين النساء فتاة أعجبه ذوقها في إعداد المائدة، وتمنى لو أنها تصحبه بقية سفره الى حوران. ولا أظن ان الراهبات يخرجن من الدير، ولذلك خشيت ان لا تستطيعوا القيام بكل ما يحتاج اليه أمير المؤمنين».

فابتدره الرئيس قائلاً: « ان بين نساء هذا الدير فتاة ليست راهبة، ولكنها من أحسن النساء عقلاً وذكاء، وهي تعد الطعام احسن اعداد. فإذا كانت هي التي وقعت من مولانا أمير المؤمنين موقع الاستحسان، ألحقناها ببطانته في هذا السفر، ولا نظنها إلا فرحة بهذا الشرف العظيم».

فاستبشر الرجل بنيل المرام وقال: « وأي فتاة هي»؟

قال: « هي التي ندعوها الأخت مريم».

فقطع الرجل كلامه قائلاً: « وهي التي اعجبت الخليفة، فهل تظنها ترضى بخدمته»؟

فهز الرئيس رأسه في استخفاف وقال: « ومن ذا الذي حصل على هذا الشرف ثم لا يقبله»؟

١٢٠
كأس العسل

ونادى الرئيس قيّمة الدير، وطلب اليها ان تستدعي الأخت مريم. فلما جاءت ووقفت بين يدي الرئيس، قال لها: « اعلمي يا بنية ان مولانا الخليفة مسافر الى حوران، ويحتاج الى فتاة تعد له الطعام، فامتدحت له مهارتك في ذلك. وقد تنازل ان تكوني في خدمته، فابشري باقبال سعدك واذهبي اليه. وأوصيك ان تبذلي الجهد في ارضائه».

فسكتت سلمى وقد ارتسمت على وجهها علامات الاغتباط، وخفق قلبها سروراً بتلك الفرصة.

ففرح الرئيس ايضاً وأثنى على لطفها، وقال لها: « سيري منذ الآن مع هذا الأمير، واسهري على خدمة الخليفة.. فإنه قد غمرنا بفضله واحسانه».

فسارت سلمى وقد تهيبت تلك المهمة، ولكنها صممت على الفتك بابن معاوية مهما كلفها ذلك.

وكان يزيد في انتظار رسوله، فلما عاد اليه ظافراً أثنى على صدق خدمته وأمره ان يعد له المرطبات والفاكهة ليتناولها قبل النوم.. فأعد كل شيء وانصرف، وبقي يزيد في الخيمة وحده، فاستدعى الأخت مريم فدخلت وقد تلثمت بالخمار.. وزعمت ان اللثام عادة من عادات اهل الدير.

فوافقها يزيد على رأيها ترغيباً لها في خدمته، على أن ينال مرامه بعد سفره. واكتفى بأن يتمتع برؤية ما ظهر من عينيها. فلما وقفت بين يديه أمرها ان تناوله بعض الفاكهة. فقدمت له ما شاء وهو لا يبدي شيئاً مما في نفسه مخافة ان تفر منه وتأبى الذهاب معه، ثم تظاهر بالنوم وقال لها: « اسقيني كأساً من الماء المحلى بالعسل».

فقالت في نفسها: « اني والله قاتلته بسلاحه»، فتناولت الكأس وصبت فيها العسل، وتظاهرت باستحضار ماء بارد، فخرجت من الخيمة ويداها ترتعشان من عظم الاضطراب.. وفكرت هنيهة في أمر السم الذي أعطاها اياه الشيخ الناسك، فرأت انها إذا صبته كله ربما يظهر تأثيره عاجلاً قبل ان تتمكن من الفرار فيقبضون عليها، فصبت جانباً منه في الماء ومزجته بالعسل وقدمته له. فتناوله وشربه الى آخره، وهو يريد أن ينام ليبكر في الرحيل ويخلو بالفتاة في حوران.

أما هي فلما تحققت انه شرب الكأس خرجت من الخيمة، ولم يشك في أمرها احد.. ثم سارت تواً الى الناسك فرأته واقفاً في ظل الشجرة، فأشارت اليه إشارة فهم منها أنها أتمت

مهمتها وتريد الفرار، فقال: « هيا بنا لا تخافي».

وتسلق الشجرة وعاد، معه صرة تأبطها، وأمسك سلمى بيده وخرج بها في طريق لا يراهما احد. ولم تمض برهة حتى تواريا عن الدير وأصبحا في الصحراء، فوقف الشيخ وفتح الصرة فأخرج منها ثوبين من أثواب اهل البلقاء. أعطى سلمى ثوباً ولبس الآخر، فأصبح لا يشك من يراهما في أنهما رجلان من أهل البلقاء، فعجبت سلمى لتأهب الشيخ الناسك وحذره، ولكنها ظلت خائفة فقالت: « أخشى ان يلحق بنا الجند، وربما تمكنوا منا فما العمل».

قال: « لا تخافي.. اتبعيني، والله يرعانا» فسارت في أثره، وقضيا بقية ذلك الليل يلتمسان الطريق والناسك يرشدها كأنه يسير في ضوء النهار.

١٢١
صرح الغدير

وأصبحا في اليوم التالي، فإذا هما بالقرب من بناء خرب تدل بقاياه على فخامة أصله لضخامة احجاره وسعة مساحته.. فقالت سلمى: « أين نحن يا مولاي»؟

قال: « إننا في البلقاء، وهذا صرح الغدير الذي يتغنى به الشعراء».

قالت: « ألا يسكنه احد الآن»؟

قال: « كلا.. فإنه من بناء الغساسنة ـ وكانوا عرباً نصارى ـ فلما جاء المسلمون الشام وفتحوها دخلوا تحت امرتهم. وكان القصر لبعض ملوكهم يقيمون فيه بعض السنة، وهو من بناء احد اجدادهم ثعلبة بن عمرو.. بناه منذ اربعة قرون وقد درس كما درسوا، وسبحان الحي الباقي[1]».

قالت: « فالقصر مهجور الآن»؟

قال: « أجل.. ولا بأس من ان نختفي فيه بقية هذا اليوم، ولا يمكن ان يهتدي الينا احد.. فإذا انقضى النهار نستأنف المسير ولا خوف علينا بإذن الله».

قالت: « والله لا أبالي إذا مات يزيد ان اموت أنا في أثره، إذ اكون قد قمت بالواجب وشفيت ما في نفسي ونجيت المسلمين من شر عظيم».

قال: « انه ميت لا محالة لأن نصف ذلك السم كاف لقتله».

قالت: « ولكنني لم اسقه اكثر من النصف، فهل يقتله»؟

---

(١) يتضمن الجزء الاول من رواية «فتاة غسان» وصفاً لهذا القصر.

قال: « إنه يقتله بعد أيام، وقد فعلت حسناً بتقليل الكمية».

ومشيا وهما يتكلمان حتى دخلا من باب القصر الى ساحة تراكمت فيها الاتربة والأحجار، وانسابت فيما بينها بعض انواع الحشرات. فتحول الشيخ وسلمى الى بقايا غرفة كأنها كانت مجلس اهل ذلك القصر في أيام عمارته، لها نافذة تطل على واد فيه آثار جدول جف ماؤه منذ اعوام. فاختار الشيخ حجراً نظيفاً بجانب النافذة وأجلسها عليه وجلس هو إلى جانبها. ثم نهض بغتة وقال: « دعيني انصرف عنك برهة ثم اعود اليك بالطعام.. هل تخافين الوحدة»؟

قالت: « لا اخاف، ولكنني استوحش وأنا في هذه الخرائب المرهبة. دعنا من الطعام فإني لا احتاج الى شيء منه غير الذي جئتني به من الدير ريثما ننتقل الى مكان آخر».

قال: « تحدثني نفسي ان نختبىء في هذا المكان غير يوم لنرى ما يكون، ولا اظن ان احداً يعرف مقرّنا. فإذا انطوى النهار فرغ زادنا، ولا يعيش الإنسان بلا طعام.. فامكثي هنا ولا بأس عليك، وأنا اذهب لعرب اعرفهم من بقايا الغساسنة على بضع خطوات من هذا المكان، فآتيك بما تصل اليه يدي منهم، والله الموفق. ولكنني أوصيك بالانتظار في مكانك ريثما أعود»، فلم ترَ بداً من طاعته، فسكتت.

فخرج الشيخ الناسك، وعليه ثوب أهل البلقاء، وبقيت سلمى بين تلك الاطلال وحدها.. وما ان توارى الشيخ عن بصرها حتى احست بالوحشة، وندمت على بقائها في ذلك المكان، وودت لو انها سارت مع الشيخ الى حيث يسير. ونظرت الى ما حولها، فإذا هي بين ركام من التراب تسعى بينها الخنافس وانواع النمل، فملت الجلوس هناك.. فوقفت وارادت ان تشغل نفسها عن وحشتها، فمشت لتتفقد بقايا ذلك الصرح وتتأمل في اصل تكوينه.. فخرجت من تلك الحجرة الى غيرها فغيرها حتى انتهت الى دهليز مشت فيه فأفضى بها الى سلم يطل على الوادي، فعلمت انه كان مخرج اهل القصر الى ضفاف ذلك الجدول في ايام جريانه، فانحدرت على السلم حتى انتهت الى مصطبة صغيرة. وكانت قد تعبت، فجلست عليها واعجبها الظل وأنعشها النسيم البارد، فطاب لها البقاء هناك برهة. فتحولت الى متكأ من حجر والنسيم يجري عليلاً، فأحست بالتعب الشديد والنعاس الثقيل على أثر ما قاسته في الليلة الماضية من التأثر والسهر والركض، فغلب عليها النعاس فنامت واستغرقت في النوم. ولا تسل عما مر في مخيلتها من الاحلام وفيها المروع والمزعج.

١٢٢
الضيوف الثلاثة

وبينما كانت سلمى مستغرقة في نومها، إذ طرق سمعها جعر جمال.. فأفاقت مذعورة

ووقفت بغتة والتفتت الى ما حولها فرأت ثلاثة رجال قادمين من عرض البر نحو القصر، وعلى الرجال الملابس الدمشقية، فارتعدت فرائصها ولم تشك انهم من اتباع يزيد وقد اقتفوا أثرها بعدما أصاب يزيد من سوء، فهرولت على السلم وعادت الى الدهليز ومنه الى الحجرة التي كانت فيها، وانزوت بحيث ترى القادمين ولا يرونها. . فإذا بهم ترجلوا بجانب شجرة على بعد مائة ذراع من القصر، وعقلوا الجمال واستخرجوا طعاماً وجعلوا يأكلون. فتوارت سلمى عنهم، وعادت الى جهة باب القصر لعلها تجد الشيخ عائداً من مهمته فتستأنس به، فلم تجد احداً. فاستبطأته وشغل غيابه خاطرها، وهي تعلم انه لا يبطىء إلا لأمر ذي بال. فعادت الى الحجرة وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ودنت من الأصيل ولم يعد الشيخ. . فازداد قلقها فعادت الى باب القصر، ولم تكد تصل اليه حتى رأت الشيخ يعدو نحوها، فوقفت في انتظاره. . فلما اقبل استغربت مظهره لأنها رأته قد قلم اظافره ومشط لحيته وقص شعره ورفع حاجبيه عن عينيه، ولولا الثوب الذي رأته عليه في ذلك الصباح لما عرفته، ولكنها رأت التعب والبغتة في وجهه، فقالت: «ما وراءك يا مولاي؟ وما الذي جرى»؟

قال: «ما ورائي الا الخير. . دعيني أسترح ثم اقص عليك الخبر، ولكنه خبر مفرح لا تخافي»، فاطمأن بالها بعد ان كانت مضطربة . . وبينما هي في انتظاره وهو يلهث من التعب، سمعت وقع اقدام خارج الباب وسمع الشيخ ذلك ايضاً. . فجلس وقد استراح وهدأت انفاسه، ثم وقف وتقدم الى الباب، فرأى رجلاً عليه لباس اهل دمشق والشيخ لا يزال - هو وسلمى - بلباس أهل البلقاء، وقد أمر سلمى ان تبقى داخل القصر ريثما يعود. . فمكثت كما طلب منها.

أما هو، فلما اقبل الرجل رحب به وحياه. . فقال الرجل: «هل في هذا المكان منزل للضيوف»؟

قال الناسك: «كلا، وإنما هو قصر خرب لا يسكنه احد».

قال: «ولكننا رأينا فيه اناساً».

قال: «ليس فيه أحد الا أنا وابني. . وقد مررنا به في هذا الصباح فأقمنا ريثما نستريح. . من اين انت قادم»؟

قال: «انني قادم مع رفيقي هذين(وأشار الى رفيقيه) من دمشق».

قال الشيخ: «والى اين تقصدون»؟

قال: «الى بصرى. . ويظهر لي من لباسك انك من اهل البلقاء، فهل كنت في بصري»؟

قال الشيخ: «نعم انني قادم منها».

قال: « هل مررت بدير بحيراء»؟
قال الشيخ: « نعم ».
قال: « أرأيت في الدير او في جوار الدير شيخاً ناسكاً لا يأوي المنازل»؟
فلما سمع الشيخ كلام الرجل خفق قلبه، وقال: « نعم أظنني رأيت مثل هذا الناسك هناك. ولكن ما الذي يهمك من أمره»؟
قال: « لا يهمني شيء، ولكن رفيقي عرفاه مذ كان بجوار دمشق، ثم سمعا انه يقيم بجوار بصرى.. وهو شيخ ذو كرامة لو لقيته وخاطبته لعلمت انه من أولياء الله الصالحين».
فأدرك الشيخ ان في الأمر سراً يهمه ان يطلع عليه فقال: « ومن هما رفيقاك»؟ قال: « لا أدري من اين هما.. ولكنني صحبتهما من جوار دمشق على أن آتي بهما الى بصرى ثم اعود.. وهما اللذان قصا علي كرامات الشيخ الناسك».
قال الشيخ: « لماذا لا يأتيان الى هنا، فأقص عليهما من نبأ الشيخ الناسك ما يغنيهما عن التعب الكثير»؟

١٢٣

مصادفة غريبة

فتحول الرجل الى رفيقيه، وسار الشيخ في أثره حتى اقبل على الرجلين، وكانا جالسين تحت الشجرة. فلما رأيا الناسك مقبلاً مع رفيقهما تبرما كأنهما استاءا من قدومه.. اما الشيخ فلم يكد يراهما حتى عرف انهما عامر وعبد الرحمن.. ففرح فرحاً عظيماً، ولكنه تجلد واراد ان يمتحنهما.. فلما أطل عليهما رحبا به، فقال لهما: وماذا تريدان من الشيخ الناسك؟ لعلكما من اهله»؟
فقال له عامر: « لسنا من اهله، ولكننا عرفناه في دمشق، وأحببنا ان نلقاه. فهل رأيته»؟
قال: « لقيته في دير بحيراء، ولكنكم إذا ذهبتم اليه فلن تجدوه هناك».
فقال عامر: « وأين نجده»؟
فالتفت الشيخ الى رفيقهما، وخاف من التصريح امامه، فقال لعامر: « إذا شئت أن ترى الناسك، فإني أدلك على مكانه في هذه الساعة.. تعال معي».
وكان عبد الرحمن جالساً يسمع حديث عامر والشيخ وهو لا يتكلم، فلما سمعه يقول ذلك نهض وقام عامر.. ومضيا حتى بعدا عن الشجرة ودنوا من القصر، فقال الشيخ: « ان الشيخ الناسك مقيم في هذا القصر الخرب».

فقال عبد الرحمن: « منذ صباح هذا اليوم وأنا انظر الى هذا القصر، فلم اجد فيه غير شاب يظهر انه في ريعان الشباب، وكأنه مقيم وحده هنا. وقد استغربنا مقامه».

قال وقد رفع صوته: « يا للعجب! اقول لكم قولاً فلا تصدقونني، إنه لعجب عجاب». فلما سمع عامر صوت الشيخ ينتهره اشتبه عليه، وجعل يتأمل في سحنته فرآه يشبه الناسك من جهة، ومن جهة اخرى يشبه شخصاً آخر يعرفه ولم يكن قد رآه منذ بضعة عشر عاماً. فلبث عامر صامتاً لا يتكلم كأنه أصيب بالبله. فقال له الشيخ: « ما بالك؟ ما الذي ربط لسانك يا عامر»؟ وما أتم كلامه حتى ترامى عامر على الشيخ، وجعل يقبل يديه ويقول: « «انت الشيخ الناسك»؟ فقال: « انا هو». فلما سمع عبد الرحمن ذلك صاح فيه: « وأين سلمى»؟

قال: « وما ادراك ببقائها وأنت اخبرتني انها ماتت ورأيت قبرها محفوراً»؟

فقال: « قلت لك ذلك.. وهذا هو اعتقادي واعتقاد عمي عامر، ولكن زينب بنت علي أنبأتني بأنها على قيد الحياة، وأنها صحبتها في موقعة كربلاء ثم الى دمشق، ثم لم تعد تعرف مقرها». فنظر الشيخ الى عبد الرحمن، وقال: « وهي كانت تعتقد انك ميت حتى أنبأتها ـ ونحن في كربلاء ـ بأنك حي. ثم علمت انك خرجت الى الكوفة في مهمة وانقطع خبرك، فيئست من بقائك و...». فقطع عبد الرحمن حديثه وقال: « والآن قل لي أين هي سلمى؟ هل هي معك ام أين؟ قل. بالله قل لي». قال: « ألم ترها اليوم»؟

قال: « أين»؟

قال: « في هذا القصر».

فأطرق عبد الرحمن، ثم قال: « لعلها هي الشخص الذي رأيته وحسبته شاباً»؟

قال: « نعم».

فهم عبد الرحمن بالمسير الى القصر، وقد شاعت عيناه وخفق قلبه ولم يعد يصبر عن رؤية سلمى.. فمنعه الشيخ وقال: « تمهل لأطلعها على خبرك رويداً رويداً لئلا تضر المفاجأة بها.. وأرى ان تصرفا هذا الرفيق الى مكان ما لئلا يطلع على شيء من أمرنا».

فقال عامر: « انه رفيق مأجور ليدلنا على الطريق».

قال الشيخ: « فاصرفه الساعة، ونحن نعرف الطريق».

قال عامر: « سأرسله الى بصرى ليسأل عن الشيخ الناسك هناك ويعود».

أما عبد الرحمن، فأشرق وجهه، وأبرقت أسرته، وأخذ يتطلع الى القصر ويتطاول لعله يرى سلمى.

١٢٤
خبر غريب

اما الشيخ فأسرع الى القصر، فرأى سلمى في الحجرة وقد ملت الانتظار لتعلم من هو ذلك الرجل، وتستطلع ما دعا الى تغيير سحنة الشيخ وبغتته.. فلما اقبل عليها ابتدرته بالاستفهام عن سبب ذلك التغيير، فقال: «دعي عنك ذلك الآن، وفكري معي في كيفية النجاة من هذه الورطة».

قالت: «وأي ورطة»، وعلت الحمرة وجهها.

قال: «ان هؤلاء الرجال قادمون من عند يزيد للبحث عنك، فهل اخبرهم بمكانك»؟

فبغتت سلمى، وقالت: «قلت لك اني لا أبالي بما يحدث لي إذا علمت ان سهمي اصاب مقتلاً من يزيد»

قال: «إذا أكدت لك ان يزيد قد مات من تلك الجرعة، هل تسلمين نفسك الى رجاله ليقتصوا منك»؟

قالت: «إذا استطعت النجاة لا ألقي بنفسي بين ايديهم، أما إذا قبضوا علي وأرادوا قتلي فإني لا ابالي بالموت.. ولكن».. وسكتت..

قال: «ما لك تترددين؟ قولي، أن هؤلاء الثلاثة تتبعوا خطواتنا حتى ادركونا هنا وهم يبحثون عنك، فهل أقول لهم انك هنا».

فاستغربت سؤاله ولم تفهم هل هو يمزح أم يقول الجد فأجابته: «قلت لك اني إذا نفذ سهمي لا أبالي ان اقتل إلا إذا كان».. وخنقتها العبرات ولم تستطع ان تحبس نفسها عن البكاء والشيخ صامت لا يتكلم حتى فرغت من بكائها، فقال لها: «إذا كان ماذا»؟

قالت والبكاء يغالبها ويختنق صوتها: «أراك تهزأ بي، وعهدي بك احن علي من الوالد على ولده.. فما بالك تتجاهل عواطفي؟ وانا مع ذلك لا استحي ان اقول: «إذا كان حبيبي عبد الرحمن لا يزال حياً، فإني اضن بحياتي وأحب البقاء من اجله.. وإلا فإني لا انتظر رجال يزيد ليبحثو عني، بل أنا القي بنفسي بين ايديهم وأعرض صدري لأسنتهم او اتجرع بقية السم وهو لا يزال معي.. أكد لي ان عبد الرحمن مات، فتراني ميتة في هذه الساعة»، قالت ذلك وهي تشهق من شدة البكاء

فأجابها الشيخ بضحكة طويلة طالما سمعتها منه، وقال لها: «عبد الرحمن؟! أيه.. وما لك وعبد الرحمن؟ وإذا فرضنا ان يزيد قد مات وعبد الرحمن حي صحيح، فماذا تقولين».

قالت: «قلت لك يا مولاي.. لا تهزأ بعواطفي فقد كفاني ما أصابني، أستحلفك بالله

ان تتركني وشأني».

قال: « وما معنى الاستهزاء الآن؟! اني اقول الجد. . وإذا كنت لا تصدقيني فإني أرفع صوتي منادياً عبد الرحمن فإذا هو بين يديك وعامر معه». فحدقت في الشيخ وعليها سمات الدهشة، وفكرت قليلاً وهي لا تزال تظنه يمزح، ولكن قلبها خفق خفقات الفرح. . وكأنه دلها على صدق قوله، فقالت: « نعم. . ادع لي عبد الرحمن، او قل لي أين هو فأسعى اليه على رأسي ويدي». قال: « بل هو يسعى اليك. . تمهلي ريثما ادعوه اليك»، قال ذلك وخرج، وهي لا تزال تحسبه يعبث بها، ولكنها سارت في أثره. . فلما وقع بصرها على الرجلين، قالت في نفسها: « لعل عبد الرحمن احدهما»، فلما أطلت عليهما عرفت عبد الرحمن وأسرعت وأسرع حتى تقابلا. . ورمت نفسها بين ذراعيه فضمها ودموعهما تتساقط من شدة الفرح، وعامر والشيخ واقفان وقلباهما يرقصان فرحاً لالتقاء ذينك الحبيبين بعد اليأس من اللقاء. . ثم دخلوا جميعاً الى القصر، ويد سلمى بيد عبد الرحمن. . وعامر لا يزال يفكر في امر هذا الناسك ومشابهته رجلاً يعرفه.

١٢٥

موقعة الحرة

فدخلوا الحجرة، وجلسوا يقصون ما مر بهم. فبدأ عامر يقص ما صادفه وصادف عبد الرحمن منذ ذهبا الى الكوفة، فقال: « ذهبنا الى الكوفة للبحث عن امر مسلم بن عقيل، فقبضوا على رفقائنا ونجونا نحن واختفينا في مكان ريثما نرى ما يكون من امر الحسين ورجاله، فلما علمنا بمقتلهم وإرسال اهلهم الى دمشق اقتفينا اثرهم اليها، فقيل لنا انهم ارسلوهم الى المدينة، وكان اليأس قد اخذ منا مأخذاً عظيماً لاعتقادنا بموت الحبيبة سلمى، مع حبوط مسعانا في نصرة الحسين. سرنا الى المدينة فأقمنا فيها حيناً. ولم يتفق لنا لقاء زينب الا بعد موقعة الحرة التي اتم بها يزيد فظائعه.

«وكنت في اثناء هذه الموقعة مع اهل البيت، وقد أوصى بهم يزيد خيراً هذه المرة فلم يصابوا بسوء، فلما انقضت المذبحة لقيت زينب فسألتني: « هل لقيت سلمى؟. . ثم اخبرتني بما كان من امرها، وبأنها فارقتها آخر مرة خارج دمشق، فركبنا الى دمشق وبحثنا عنها فلم ينبئنا احد بخبرها. ولكننا فهمنا في اثناء البحث انك كنت هنا في ذلك الوقت، فترجح لنا انكما سرتما معاً. . وبعد التحري علمنا من بعض القادمين من بحيراء الى دير خالد انك تقيم الى جانب بصرى، فجئنا لعلنا نراك ونبحث عن سلمى. . فالحمد لله على هذه المصادفة

الغريبة» . .

وقصت سلمى ما اتفق لها منذ كانت في قصر يزيد الى آخر حديثها، وقص الناسك ما كان من موقعة كربلاء حتى أتى على حديث الأمس وجرعة العسل، فابتدرته سلمى قائلة: «لم تخبرني بعد عن سبب تغيير سحنتك»؟!.

قال: « هذا لا اخبرك به الآن، ولكنني أخبرك بسبب تأخري عن الرجوع، وذلك اني لما خرجت لاحضار الطعام، رأيت ان استطلع عاقبة تلك الكأس، فهرعت الى بصرى لاتنسم الأخبار، فعلمت ان يزيد ركب في ذلك الصباح وهو يشكو من جنبيه، وقد أصابته بحه . . وهذه اول اعراض ذلك السم، وما أظنه إلا ميتاً قريباً، فينجو الإسلام والمسلمون من خلافته» .

وكان الشيخ يتكلم وعامر يتأمل في ملامحه وحركاته لمشابهته رجلاً يعرفه، فلما سمعه يذكر قرب موت يزيد، شغله الفرح بذلك عن كل شاغل، وكذلك عبد الرحمن «سلمى، وباتوا تلك الليلة ولم يناموا إلا قليلاً لشدة الفرح.

١٢٦

موت يزيد

وفي ضحى اليوم التالي، عاد رسولهم الذي أنفذوه الى بصرى، فسألوه عما وراءه فقال: « لم أجد الشيخ الناسك، ولكني سمعت بموت يزيد على حدود حوران» .

فصاح الشيخ: « هل تحققت من موته»؟

قال: « نعم يا مولاي» .

فقال الشيخ: « وما سبب موته وعهدنا به صحيح البدن، ولم يجاوز الثامنة والثلاثين»؟

قال الرجل: « سمعتهم يقولون انه أصيب بداء الجنب والذبحة، وكأنه ذاب ذوبان الرصاص» .

فتظاهر الشيخ بالأسف، وأشار الى عامر ان يصرف رسوله ففعل. . ثم عاد وخلا الأربعة في احدى حجرات صرح الغدير، ولم يمر بأحدهم يوم أسعد من ذلك اليوم ولا سيما سلمى، لأنها هي التي باشرت الانتقام بنفسها.

ونظر اليها عبد الرحمن نظرة المحب المفتون وقال: « لا أدري كيف ابدي لك حبي؟ وقد احرزت اشرف خلال النساء وأندر خلال الرجال، فجمعت بين الجمال والوقار والحكمة والعقل والشجاعة. . وحسبك انك قتلت ذلك الدعي وأنقذت المسلمين من ظلمه،

وانتقمت لأبيك انتقاماً عجزنا كلنا عنه».

فقالت سلمى: « إني إنما فعلت ذلك لأنه الواجب».

وكان الشيخ في اثناء ذلك شاخصاً في الفضاء كأنه مستغرق في امر ذي بال، وعامر ينظر اليه من طرف خفي ويتفرس في وجهه لمشابهته رجلاً يعرفه، وهو عزيز عليهم جميعاً، ثم انتبه الشيخ الناسك كأنه هب من نوم والتفت اليهم وقال: « آن لي ان اقص عليكم ما تتساءلون عنه من خبري.. تعالوا معي». فساروا في أثره حتى دخلوا غرفة، فجلس وقد تغير وجهه وبان الجد في عينيه وكأنه كان مصاباً بالجنون وعاد عقله اليه في تلك الساعة، وظهر ضعف الشيخوخة فيه. وقبل ان يقص حكايته التفت الى عامر وقال: « ألم تعرفني بعد يا عامر»؟

فتفرس فيه عامر وقال: « قد عرفتك الآن فقط.. ألست عدياً والد حجر»؟

قال: « نعم».

فلما قال ذلك التفتت سلمى اليه وقالت: « جدي »؟!

قال: « نعم يا حبيبتي، ولعلك ادركت شيئاً من ذلك يوم سمعتني ارثي الحسين في سهل كربلاء».

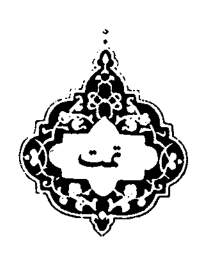
فترامت سلمى على يديه تقبلهما، فقبلها عدي وهو يبكي ويشهق، وبكى عبد الرحمن وقبل يد الشيخ.. ثم عاد الشيخ الى اتمام الحديث فقال: « اما سبب تكتمي، فذلك اني لما اصبت بقتل حجر لم يعد يحلو لي البقاء. ولكن قلبي ظل عالقاً بالانتقام، فعللت نفسي بموت معاوية ومبايعة الحسين، وجعلت مقامي فوق قبر ابني في غوطة دمشق استنشق ترابه وأتنسم ريحه. فلما لم يظفر الحسين بالبيعة، وتولى الخلافة يزيد صبرت في انتظار الفرج او الموت، فلما جئتم الى دير خالد واجتمعتم تحت الجوزة وتعهد عبد الرحمن بقتل يزيد، كنت أنا مختبئاً في اعلاها، وأنا القائل لكم في تلك الليلة: « وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم». وظللت كاتماً امري وأنا اسعى في مساعدتكم جهدي، وأخفي وجهي حتى لا يعرفني عامر. وقد عاهدت الله منذ مقتل حجر ألا أقص شعري ولا آكل غير الفاكهة ولا آوي الى المنازل، فلما علمت أمس بقرب موت يزيد تحللت من نذري وقصصت شعري كما ترونني».

وسكت الشيخ قليلاً، ثم قال: « اما وقد مات يزيد، فقد آن لي أن أسلم الروح، واني اوصيكم بتقوى الله، والتفاني في نصرة اهل النبي، فاقيموا بمكة وحجوا الى كربلاء وابكوا قتلاها ما استطعتم، وسيقتص الله من القوم الظالمين».

قال ذلك وقد تلجلج صوته، وكلهم يبكون ويعجبون، ثم توسد وتمطى وهو يقول: «اني اتلقى الموت بالترحاب». وما اتم قوله حتى اسلم الروح.

فبكوه وهم في دهشة في امره.. ثم دفنوه في اصيل ذلك اليوم.

وبعد ايام رحلوا عن البلقاء، حتى وصلوا الى مكة وفيها ابن الزبير ولا سلطان للأمويين فيها، فعقدوا لعبد الرحمن على سلمى.. وعاشوا في هناء وسلام.



طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت . شارع سوريا
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠